

مقدمة

هذا هو الجزء الثّالث من كتاب «أيْ بُنيّ»، سار مسار سابقيه، وحذا حذوهما، ونهج نهجَهما. جاء على نمط حديث المجالس، يتّسم بالعفويّة، وقلّة القيود المنفّرة، ينطلق مع الفكرة، وعندما تلهث مصعدة يتركها إلى أخرى متّجهة للسّهل، يقتنص الفائدة، ويحذر الضّرر أو الاعوجاج، يستطرد حينا، ويمعن في الاستطراد، ويلتزم خطّاً واحداً مستقيماً حيناً آخر، محاولا أن يحقّق الهدف في كل اتّجاه يسلكه، عينه دائمًا على الملل يتجنّبه، وعلى ما ينفّر من القراءة فيبتعد عنه. فالهدف أن يقرأ القارئ، ويكمل القراءة، وكمال الفائدة أو بعضها يكفي في بلوغ الهدف.

وهذا الجزء من الكتاب فيه من الأمور التي تخصّ الماضي، وأحيانا مقارنتها عند الاقتضاء بالحاضر، ما لم يأت في سابقيه، أو استوفي فيه ما تم الحصول عليه، أو تذكّره فيما بعد، مما يكمّل الفائدة، ويجمّل

الكتـاب، ويـأتي بالمـطلوب. والمعلومـات في هذا الصّدد معين لا ينضب، وكثير منها يأتي بالصّدفة، إمّـا نتيجة قراءة كتاب، أو أثناء حديث عابر، أو خلال تأمّل جرّ إليه حدث من الأحداث، أو عن طريق اقتراح من صديق، أو قارئ، رأى مناسبة استيفاء أمر، أو التّركيز عليه، أو تبيان ما غمض منه.

وقد جربت في الجزء الثاني أن أبذر، هنا وهناك، قصصـا وملحـا وطـرائف من العصور الاسلاميّة الأولى، فوجدت لها فائدة وقبولا. وكان القصد منها في الأساس تعريف القارئ الناشئ بتراثه وتحبيبه إليه، وتمهيد طرق له يسلكها إلى مظانّه، لعلّ أن يكـون له بها غنى عن قراءة ما لا ينفع، أو لعلّها تعوّده القـراءة وحبّ الـتراث، والاستفـادة منه، وأخذه قدوة فيما ينفع، وليعرف ابن اليوم أنّ آباءه كانوا سرجا مضيئة في مجتمعهم، وهو مجتمع له أن يفخـر به إذا ما نوقشت الحضارات التي سادت، ولعلّهـا وما يروى له عنها تثير فيه النّخوة والعزّة، فيحاول أن يساهم في إعادة ذلك المجد.



وقـد أكون في هذا الجزء زدت في مجموع هذه القصص، لِما رأيت من قبـول النّاس لهذا النّهج، ولصلة بعضهـا بحـديثي عن ماضينـا، فبدلا من القصّـة الواحدة ذكرت قصّتين، وأحيانا أكثر من ذلك، وقد أكون انسقت في هذا أحيانا فوق إرادتي واختيـاري، لأني لم أستـطع المقاومة، فاستحساني لبعضها كان طاغيا مما جعلني لا أمسك نفسي من ذكـره، حبّـا في أن يشـاركني القـارئ هذه المتعة الفكرية الفريدة. وأقرّ أني أحيانا أحتاج إلى أكثر من عنان، لأقهر حصان الاندفاع في سرد قصص أكثر وأكثر. ولا أشك أنّ هناك من هو مثلي في هذا، يشعر بشعوري، ويحسّ احساسي عند قراءة تراثنا، والفخر لمسجليه، الذين كانوا يحفظون لنا حقائق تشدّ، وطرائف تبهج، وفوائد تنفع، ولا يحتاجون في ذلك إلى خيال القصصي في هذا الزّمن.

والصّـــور التي حاولت أن أسجّلهـــا عن زمن آبـائنـا، أو زمننـا، بجـانب أنّ هذا حفظ لها من الضياع، أو التحريف، فهي تحمل في طيّاتها تسلية

أو وعـظا، أو مظهـر إصلاح، فشرح عادة كانت منتشرة، وهي غير حميـدة، وقـد تكـون باقيـة في مجتمعنا، أو أنّ معالمها بدأت تبهت أو تختفي، أو اختفت، يكمّل صورة الماضي لدى النّاشئ الذي لم يعاصره، والمقارنة تجعله يقدّر اختفاءها أو ضعفها، ومن هذه الأمور الاعارة التي كانت تسير على قدم وساق في الماضي، وقلّت كثيراً إلاّ بين الأقارب أو المعارف في حدود أضيق مما كان قائماً.

ومن الصّور التي كانت من معالم المجتمع القديم البارزة، ومن شاغلات وقت الشّبان، وذهنهم في ذلك الزمن: المهابيل والمعتوهون فرصد الصّورة من الماضي، وما أصبحت عليه في زمننا نعمة يجب أن يدركهـا أبناء اليوم، ويحمدوا الله على ارتفاعها من المجتمـع، فقـد كانت كلفا يشوه صفحته، وندبة تخدش عزّته. هذا إلى ما كانت تأتي به من أخطار قد تكون نتائجها وخيمة.

وحـاولـت، كما سبـق أن فعلت في الجـزأين السابقين، أن أدسّ الفوائد خِفية للنّاشئ حتى لا



يجفل منها، ويقاومها، قبل استطعامها، وكانت هذه الأفكار تعالج أحيانا عيباً اجتماعيا، أو ترمي إلى تقويم معوجّ أمالتهُ العادات والتّقاليد، وكان في الأصل حسنا، ولكنّ كرّ الأيام والليالي أدّى به إلى الخلل، فأصبح منتقدا في منتهاه بعد أن كان محمودا في بدئه. وقد يكون انحرافه جاء نتيجة شبهات دبّت عقاربها بسمّها إلى عسله.

والصّفات التي تنشأ مع الانسان، وتصبح منتقدة لأنها لم تشذّب ولم تهذّب، ولم يؤخذ على يد الطفل فيها منذ نعومة أظفاره كانت شغلي الشّاغل، فقلّة الصّبر، وسرعة الحنق وسوء الظّنّ المفرط، والتّواني في العمل، والتّراخي فيه، والاسراف والكسل وعدم المبالاة، والاقدام على العمل دون تفكير، والتّواكل، وغيرها كثير، أمور حاولت أن انبّه إليها، وإلى نتائجها السّيئة، وإلى هدمها لجوانب الحضارة، وكنت أتلمّس طريقي إليها برفق، حتى لا يبدو ما أدعو إليه وعظا، والوعظ يبنى بينه وبين السّامعين أسواراً حصينة في كثير من الأحيان.

ومن بين الأهــداف الـرّئيسيّـة، لهذا الجـزء، التّعريف ببعض الانجازات التي تمّت في السّنوات الأخـيرة في بلادنـا، مثل التّعليم والصّحة، وبناء الطرق والجسور، والمطارات والموانئ ، وغيرها. ولم يكن بالأمكان أن تتّضح الصّورة عن هذه الأمور إلا بمقارنة الحاضر بالماضي فيها، وبنسبة الانجاز للوقت الذي تمت فيه، والظّروف التي أحاطت بها، ولأنّ أحد العناوين الرئيسيّة عن «الأبناء» فقد أخذ التعليم، وشرح خطوات سيره نصيبـا وافيا، لأن العنصر الرّئيسي للتّعليم هو النّاشئ في أطوار نموّه المتتابعة.

والأختلاف بين مجتمعنا الحاضر في بعض المظاهر مع الماضي، وارتباط الشّبّان بصورة رئيسيّة في هذا، أوجب الـوقوف عند بعض الصّور، التي تميّز فيها مجتمع الصّغار في زمن مضى، عن مجتمع الصّغار اليوم، فالحروب التي كانت تعصف بسكّان المدن والبادية، كانت لها صور مصغّرة، بين الصّغار في الاحيـاء المختلفـة في المـدينة الواحدة، إمّا تقليدا



للكبار، وتأثّرا من الصّغار بما يدور حولهم في مجتمع الكبار، أو ايحاء من الكبار لهم ليبدؤا التدربّ على الحرب في وقت مبكّر، زيادةً في ضمان الاتقان، وأجسامهم ما زالت لدنة، وبعض مسارب الخوف من العواقب في نفوسهم لم تتفتّح بعد.

والنّشاط عند الشّباب في هذا المجال أدّى إلى الالتفات إلى مجالات الشّباب الأخرى، مما أوجب استقصاء الالعاب المختلفة، التي لم تعد قائمة اليوم، وقليل من يذكرها، ولا تجد الاهتمام عند ذكرها، ووصفها، لأنه حلّ محلّها غيرها، وتغيّر تركيب المجتمع بأكمله، فلم تعد الحارة تلعب دورها، ولا الحيّ يؤدّي ما كان يؤديه في الماضي، مما يساعد على ممارسة هذه الألعاب. وصلاتُ النّاس بعضهم ببعض اختلفت وضعفت، ولم يعد عند الطّفل أو الشّاب ذاك الفراغ الذي كان يساعده على متابعة هذه الأنواع من النّشاط، وأصبح في داخل البيت، أو في بعض النّوادي، ما أخذ وقته، واستولى على رغبته. وذكر ما ذكر من هذه الألعاب



يؤكّد لابن اليوم ما كان عليه أمثاله في الماضي من حركة ودأب ونشاط.

ولعلّ بعض هذه الألعاب يجد من يهتمّ به ويطوّره وينشره، فقد نكون في هذا رائدين، كما فعلت بعض دول المشرق في المحافظة على مظاهر النّشاط في الماضي.

وإذا كنتُ في بعض ما لمست في هذا الجزء هدفت إلى إعادة ثقة الآباء اليوم في أبنائهم فيما يشكُون منهم، بتذكيرهم بما كان آباؤهم يلاقونه منهم، فانّي لمست بعض جوانب الاهمال في تربية الآباء لأبنائهم اليوم، وما قد يوصل إليه هذا من ضرر إذا لم يتدارك. ولم أقتصر على رعاية الطّفل بعد أن يولد، بل نبّهت إلى ما يجب أن يسبق هذا من تخطيط يساعد على توفر الصحّة، والبعد عما عرف أنه قد يكون سببا في ضعف النشء، وهو زواج الأقارب، وإنّ الملاحظة في هذا ليست جديدة، وأنّ قدَمها، واتّفاقَ الطّبّ الحديث مع القديم على



تَجنّبها، يجعل تقديرها والعمل بها أقرب إلى التصرّف العقلي السّليم.

وزيادةً في كشف بعض الخبايا في نفوس الأطفال، ذكرت بعض ما يتّصفون به، مما قد يكون مظهراً من مظاهر التمرّد، ومما هو من طبيعتهم، ونتيجة ما يعتقدونه من نقصهم بجانب الكبار، وهو حبّهم للتلفّظ ببعض الألفاظ البذيئة في فترة من العمر، وقلب الكلمة الطّيبة الجميلة إلى كلمة نابية منتقدة، وأعطيت أمثلة على ذلك مشاهدة، وحاولت أن أغوص على أسباب تلك الظّاهرة.

وسوف يتميزّ هذا الجزء عن سابقيه في أنه يحاول أن يجعل القارئ يتذوّق طعم التخصّص اللذيذ، فيستريح في محطّة من محطّاته، يتنعّم بما لا يثقل كاهله منها، حتى لو لم يكن هذا التّخصّص من تخصّصه، فالمعاجم اللّغوية للقارئ الناشئ مهمّة، ويفيده أن يعرف عنها، ولم أرد له أن تبقى معرفته لها في الوشل، فيكتفى مثلا بالمنجد، ويظن

أن هذا منتهى ما وصل إليه قومه في هذا المجال، وأردت أن أفتح نافذة يطلّ منها على روض أَغنٍّ، يبهر العين، ويغنى الروح، ويبعث على الفخر والاعتزاز، لهذا كتبت له عن المعاجم اللّغوية باختصار.

وأعرف عنه، قياسا على نفسي، في مرحلة من المراحل، أنه كان يظنّ أن أهل حضارته كانوا بعيدين عن التّقدم الصّحّي، فأخذته بيده، إلى كتاب واحد، تصفّحته معه، وجلنا فيه بعجلة، ليرى معي العمق التاريخي لفنّ العلاج المتقدّم، والعلل والادواء والأدوية. ثم وصلت معه إلى بؤرة جهد علماء الطّب في عصور النّهضة الاسلامية، وما طوروه مما عرف، وإنّنا إلى اليوم نعيش في بعض جوانب حقل الصّحة على ضفاف نهر سبق أن زرعوا شطآنه، وشذّبوها وغرسوها ونسّقوها. وكنت ألمس الأمر معه برفق، وفي ذهني أنّ الناشئ في هذه المرحلة مؤلّف قلبه، وأريده أن يمشي مطمَئِنّا إلى حيث أرجو أن يحطّ رحاله، فلا يكون له



فقط هدنة مع التّراث، وتاريخ الحضارة الإِسلاميّة المنير، وإنّما يبرم معاهدة متبوعة بالصّيانه والوفاء.

ولأنّي أريد للنّاشئ أن يقدّر النّعمة التي يتمتع بها، ويحمد الله على الانجاز الذي يرفل في سرباله الضّافي، تحدّثت عن بعض الأمراض، التي كانت تفتك بالمجتمع في الماضي، والأوبئة التي كانت تحصد النّاس بمنجلها حصداً، فلا يقف في طريقها دواءٌ، ولا يُحتاط عنها بتطعيم أو تلقيح. وحوادثها ونتائجها كان يشيب لذكرها الوليد.

والطّريقة العفوية التي سرت عليها في التبويب جعلت العناوين الداخلية في هذا الجزء أقلّ منها في الجزأين السّابقين، ولم تزد عن ثلاثة، إلا أن المعلومات التي اندرجت تحتها لم تنقص في حجمها، وتنّوع محتوياتها عن السّابقات، ولعل السّبب في تضخّم المعلومات تحت عنوان واحد يعود إلى أنّني عدت إلى بعض هذه العناوين بعد أن أتممت هيكلها، فوجدت ثغرات تحتاج إلى سدّ، فجاءت

السدّة أكبر من أن تعتبر سدّة، وتتالت الاضافات، فتضخّمت المعلومـات تحت عنـوان واحد. ولهذه الثّغرات فضل علي في أنها أعادتني إلى مراجعة بعض كتب التراث التي بعد العهد بها، وإن كان الشّوق يزداد، وكانت العودة إليها ممتعة، لأنّ ما علقته على حواشي هذه الكتب قبـل سنـوات، قد تزيد على أربعين سنة، توجب التأمّل، فأحيانا أقبل تعليقي عليهـا معجبـا به، وأحيـانـاً أخجـل منـه. ولعلّ الطّريف في هذا أني أعلّق ببيت شعر كنت أحفظه حينئـذ، ولكني وأنـا أقرؤه الآن أجد كأنّي أسمعه لأوَّل مرة. أو أشير في الهامش إلى كتاب فيه معارضة لما ورد في الكتاب الذي أقرؤه وأهمّش عليه، فأجد أنّي لم أعـد أذكـره، ولغبـطتي وسروري أجد هذا الكتاب، المعارض به، عندي في مكتبتي، أو لخيبة أملي لا أجده.

وحـاولت في بعض مواقع من الكتاب أن أفتح نافذة للشّاب يطلّ منها على النّقد المفيد، وفحص محتـويات التّراث، فلا يأخذ كلّما يجد مسلّما، ولا



يرفضه، وإنّما يخضعه لاداة فحص دقيقة، وبوتقة متقنة، وأعطيته عناصر للنّقد، اخترت ألّا أوغل فيها، وألّا تكون فنّية بحتة مما يعتمده علماء النّقد الأقدمون والمحدثون، حتى لا أدخله إلى قواعد وأصول منفّرة، تجعله يقف حَرنا عند أوّل خطوة في الطّريق، فيتراجع عما أقدم عَليه، وينفر مما أقبل إليه. وبدلا من ذلك حاولت أن أجعله يعتمد الفكر والذّوق فيما يقرؤه، وأن يزن الأمور بهذين الميزانين، وأن يتنبّه لبعض العوامل التي تلوّن الخبر عمدا، فتشوّه التّراث مثل الشّعوبية، والمذهبيّة، والعنصريّة، والعداوة الشّخصيّة، والمهنيّة، وحالة الغنى والفقر، والبداوة والحضارة، ونظرة المدن إلى المدن، والأقطار إلى الأقطار، والشّباب إلى المشيب، والمرأة إلى الرّجل، إلى غير ذلك من الأمور التي تكمن أسبابا خفيّة، أو شبه خفيّة، خلف الاختلاق، والوضع، والنّحل، والافتئات، والتلفيق والتّشويه، والاضافة والحذف، في الاخبار المروية.

أبجدي

والاخطاء اللّغوية، والتمادي فيها، والتّهاون تجاهها، مما يشغل ذهن كل غيور على اللّغة العربيّة، لغة القرآن الكريم، مصدر عزّنا وفخرنا، وقد حاولت أن أوجد عند النّاشئ ملكة تساهم في إيقاف الجناية المستمرّة على اللّغة العربية، والاهمال في حقها، وسرعة النّاس إلى تقبل كلمات ليس لها صلة باللّغة إلا في بعض الملامح الموهمة، خاصة إذا كان هناك، من الكلمات المعروفة والمستعملة، ما يسدّ مسدّها. هذه الكلمات الطارئة الغريبة في صياغتها، المنحرفة في معناها عما أريد لها، قد تكون دخلت عن طريق مترجِم حظّه من اللّغة العربية ضئيل. ولهذا حرصت على اقتناص جمل رصينة، وكلمات عربيّة فصيحة، وأقوال ناصعة الصّلة بتراثنا، وحاولت أحيانا أن أنبه إلى كلمات عامّية أبعدت عن اللّغة العربية رغم التصاقها بها، ودقّة معانيها فيما جعلت له. كل هذا أملّت أن يكون صُوًى على الطّريق تهدي إلي غايته ومنتهاه، دون انحراف أو جنوح.



وكشفت للنّاشئ حيرتي في بعض الأمور التي لم يستقرّ الرأي فيها، وأبنت له تعارض رأيين في أمر ما، وحاولت أن أنبّه إلى الطريق السليم في الحوار الذي يجب أن يَسُود بين متناقشين مختلفين، وأصول ذلك، وألمحت إلى طرق الجدل العقيمة، وإلى الانفعال الذي يرافق أصحاب هذا الأسلوب مما يضيع الجولة على الجائل، فيخسر بهذا قضيّته بدلا من أن يكسبها. وقد ردّدت هذا الرأي، لأهميّته، في مجالات متعدّدة، لعلّ الطَّرق على الباب يفتحه.

ومن الأمور التي توفّرت في هذا الجزء محاولتي الرجوع إلى كتب جديدة، تضاف إلى المراجع والمصادر السّابقة، لعلّ الحديث عنها، والاقتباس منها، يوصل إلى اقتنائها، فتزيد مكتبة القارئ، وتَغنَى رفوفها، فيجد في تجمّعها ما يجعل لها الحقّ عليه في قراءتها ورعايتها ومراجعتها، وراعيت أن تكون هذه الكتب مما يسهل الحصول عليه وُجداً وقيمة، واخترتها منوّعة من حقول مختلفة. ولتحقيق هذه الأهداف لم أقتصر على رواية القصّة أو الخبر أو



الأبيات من المصدر الأساسي لشهرته، وإنما عمدت إلى كتاب أقرب إلى التّناول، لحداثة طبعته، أو لصغر حجمه، وأمّلت أن يكون طُعما يوصل إلى المرجع الأصلي، وبهذا يكون المقتِني قد حاز الاثنين معا.

وعندما أجد أنّي أبعدت في ميدان الجدّ والصّرامة، أعمد إلى بعض الطّرائف والملح التي تمتلئ بالفوائد، رغم مظهرها الهازل، خشية من ملل القارئ ونفوره، وحاولت أن أصل إلى هذا الانتقال دون اهتزاز في المركب الذي نستقلّه معا، وإذا حدث أن كان الانحراف شديدا مما يشعر القارئ معه أنّ اتّزانه قد اختلّ أعطي المبرر لهذا التّصرّف المفاجئ ، والنّاشئ يقبل ما دام التّغيير من الجدّ إلى الهزل.

وقد اختار الطّرائف المفيدة مما عرف عن العلماء الأجلّاء، حتى يعرف النّاشئ أنّ التزّمت ليس صفة لهم لازمة، كما قد يظنّ من قراءة كتبهم الجادّة، وإنما لهم جوانب ممتعة اجتماعيّا، وأن



المجتمع بدون روحهم الباسمة يصبح ثقيلا، والحرص على طرائف هؤلاء بما فيها من عفّة واتّزان تعوّد الشّباب على هذا النّوع من جالبات الابتسام والفرحة.

والألغاز ممّا اهتمّ به الأوّلون والتّالون لهم، ولها جاذبيّتها، وقد لجأت إليها في بعض الأحيان، لأنّها صور للماضي، ومن الأمانة أن يكمل ما يقال عنها بتسجيل مظاهرها، ولأنّ النّاشئ يميل إلى هذا الجانب، لما فيه من رياضة فكريّة، وتوقّع يصدق ظنّه معه في تخمين النّتيجة أو يخيب، وفي هذا متعة وتسلية، وشغل وقت.

ولهذا الجزء أن يفخر على الجزأين السّابقين، فهما وإن كانا موجّهين للنّاشئين، وأنّ ما فيهما من وحي محبّتنا لهم، وسعينا في صالحهم، فقد جاء هذا الجزء مبتدئا بعنوان يَخُصّهم، ويدور حولهم، وأخذ من حجم الكتاب ما لا يقلّ عن الثلث، والابناء دائماً في الذّهن، لا يكاد المرء يطرق موضوعا إلا ويجد أنه دخل من أحد منافذه إلى ما يهمّهم، أو يرمي إلى



إفادتهم ونفعهم، ولا غرو فهم فلذات الأكباد، وعدّة المستقبل، والأمل الباسم لرقيّ البلد، وفلاحه، وأمانة المرحلة التي عشناها بما فيها من انجاز. هذه الأمانة سوف تسلم لهم والأمانة حمل ثقيل، ينوء به الكاهل، فنودّ أن يكونوا في المستوى في حمل الأمانة، وقصورهم في ذلك نحاسب عليه نحن، فقد يعزى إلى تقصيرنا في رعايتهم، والأخذ بيدهم، وتربيتهم التّربية السّليمة، وإعطائهم من الوقت والجهد ما هو من حقّهم شرعا، وعقلا، وعادة وعاطفة.

إنّ هناك ملامح في الإسلام، وصفات اتّصفنا بها، ولكنّا لا نبرزها لغيرنا من الأمم الأخرى، لأننا نظنّ أنّها من المسلّم به، وهذا يجعلنا نعمل بها، ولا نبرزها لأهل الحضارات الأخرى، فنفاخرهم بها، ونبرز لهم أن أصول فضائلهم التي يفاخروننا بها إنّما جاءت منها، وأننا قد سبقناهم إلى هذه الفضائل، وهذا يجعلنا نسترجع ما أهملناه منها، أو ما أضعفناه بصدّنا عنه، مثل الرّفق بالحيوان، والعناية



بالأطفال، والحدب على الحاملات والمرضعات، والعطف على العجزة والضعفاء. تفوّقنا عليهم بالبرّ بالوالدين، وصلة الرّحم، ورعاية الجار، والعطف على الفقير واليتيم، والوفاء بالعهد، وردّ الجميل، وحفظه، وما أنشأه ديننا من حقوق، وما أثاب عليه، وما حرم منه. وما شدّد به على من تراخى أو أهمل في الوفاء بهذه الأمور، وإبراز ما أقيم على مرّ عصور الحضارة الإسلاميّة من إقامة المنشآت العامّة، لرعاية الفئات المحتاجة من مستشفيات وملاجئ وإقامات. كل هذا حاولت أن أبثّه أو بعضه، هنا وهناك، متفاديا الظّهور بمظهر الواعظ، والواعظ كثيرا ما ينفر منه الناس. لأنه، مواجهةً، يطلب منهم أن يكسبوا، ولكن بركوب الصعب، والنّاس أقرب إلى مراكب اللّين حتى لو قلّت الفائدة، أو أحيانا توقّع الضّرر، فما بالك بالنّاشئ ، وهو ألصق بمتعهِ ولذّاته، وثنيه أصعب من الكبير في بعض الأحيان.

وعندما طرقتُ العنوان، في آخر الكتاب:



«الحاوي وما حوى»، وجدته بابا واسعا، يمكن أن يدخل تحته شيء كثير، ولو استقصيت كل وعاء له محتوى لأصبح الموضوع كتابا، ولهذا اقتصرت على ما صار إليه في هذا الجزء، وأصبح ما فيه لا يعدو أن يكون نموذجا لعبض الحاويات وما تحويه. ولا أكتم القارئ سرّا في أنّ الشّبح الذي يبرز أمامي في كثير من الأحيان، لعلّ القارئ يلاحظه من ثنايا الكتابة، هو ايقاع القارئ في الملل، فالملل عدوّ لدود في الاستفادة من المعلومات المدوّنة، والخير في أن تُتّقَى مواجهته، لأنّ الدّخول معه في معركة قد لا تنتهي بالانتصار عليه.

بدأ الجزء الأول من كتاب «أيّ بُنيّ» منفرداً، ليخدم هدفاً شُرح في مقدمته، ولم يقل عنه أنّه الجزء الأول، لأنه لم يكن من المؤكّد أنّه سوف يكون هناك جزء لاحق، إلا أنّ قبوله من بعض الفئات التي رأت فيه ما ظنّته مفيدا، ومحققًا للغاية التي كتب من أجلها، وكلمات المحبّين والأخوان الذين كتبوا عنه في الصّحف أو في خطابات خاصة شجّعت على



المضيّ في هذا الـطّريق، مما أتبـع الجزء الأول ثان وثالث، فلهم فضل بعد الله على نزع ثوب الكسل والتّـواكـل، وتوفير الوقت من بين أنياب البرنامج اليومي لمتابعة الكتابة في هذا المجال. ومع كل جزء أقول إن هذا آخر جزء، ولكن الله يريد غير هذا، وأرجو أن يكون التّمكين، لهذا، لخير أرادهُ عزّ وجلّ.

وبعـد :

هذا تعريف موجز لهذا الجزء، وما هو عليه، وما قد يكون هناك من مرتكزات وأعمدة قام عليها، بعضها ظاهر كله، وبعضها ظاهر بعضه، أحببت تقـديمها أمامه، لعلّها تضيف فائدة عند قراءته. وأسأل الله التّوفيق لي وللقارئ .



فلذات الأكباد[1]

أيْ بُنيّ !

نعود مرّة أخرى، ونتحدّث عن الشّباب في مراحل حياتهم المختلفة، وهم من هم ! فلذات أكبادنا، وأملنا للمستقبل، ونلقي نظرة على حياتهم في الماضي، وسوف لا نحيط بكلّ شيء عنهم، ولا نفصّل في كلّ المستويات، وإنّما نأتي بقطاع ضيّق نعطي عن طريقه صورة، لك أن تقيس عليها صوراً أخرى، ونترك لخيالك الجامح أن يركض في مضمارها.

لعلّ من المناسب، يابنيّ، أن نتحدّث عنهم

---

(١) قال الشّاعر حطّان بن المعلّى الطّائي، وهو شاعر إسلامي:

لولا بنيات كزغب القطا •• رددن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع •• في الأرض ذات الطّول والعرض
وإنّما أولادنا بيننا •• أكبادنا تمشي على الأرض
إن هبّت الريح على بعضهم •• لم تشبع العين من الغمض

وفي رواية لامتنعت عيني من الغمض — تدريب الناشئين ١٢٣

العقد الفريد ٢/٤٣٨



بادئين بالولادة، وهي لم تكن تتمّ في مستشفى وإنّما في البيت عادة، وقد تتمّ في غيره من الأماكن المختلفة، فهذه امرأة ولدت وهي راجعة من عملها، ولدت آبنتها في الطريق تحت أثلة. ومن حسن حظّها أنّ ابنها الصغير كان يسير بجانبها، فأرسلته أمامها لخالته، وقالت له قل لها إنّ أمي جلست تحت الأثل لوجع أصاب رجلها، وكانت خالته قد دخلت في صلاة المغرب، فقطعت صلاتها، لأنّها عرفت أنّ أختها تلد، وركضت وفي يدها سراج ما لبث أن أطفأته الريح. ووجدوها قد ولدت، فسرّوا الطّفلة[1] وأحضروها مع والدتها إلى البيت. ولم يكن الطّفل ليفسّر هذا الانزعاج الذي بدا من جميع من حوله، ولعلّه أدرك الأمر عندما رأى أنه أصبح له أخت.

وأخرى كانت «تروس» في حقل بين أحواض الزّرع عندما جاءها المخاض، فتوقّفت للولادة،

(١) أي قطعوا حبل السرّ، وهو الحبل الذي يصل الجنين بأمه، عن طريق سرته.



وسرّت الـطّفـل ووضعتـه على عبـاءتها، وأكملت عملها، وعادت إلى بيتها تحمله. فهي لم تتوقّف عن العمل، وإنّما اهتمّت بإكماله، لم يساعدها أحد من النّـاس، ولم تحاول أن تبحث عن أحـد، ولعلهـا ضنّت به عن أن يشاركها في جلبه إلى هذه الدنيا أحد.

كنّ فائقـات، يا بنيّ، يكـددن ليل نهار، وقد نفعهنّ ذلك، فقوّى العمل بنيتهنّ، فقاومن، رغم نقص الغذاء، الأمراض المنتشرة مع قلّة الأدوية، وانعـدام الـوعي الصّحّي، وكـان المشي مسـافات طويلة يفيدهن في سهولة الولادة. وقد ثبت هذا في العلم الحديث. فإنه إذا أبطأت الولادة عند المرأة الحديثة نصحها الطّبيب أن تمشي وتمشي وتمشي. إنّ الله سبحانه يلهم الحكمة من يرضَى عنه، لِما يبذل من جهـده فيـما يفيده. تكاد الواحدة منهنّ تقضي يومها كلَّه في حركة يمينا أو يسارا، طلوعا أو نزولا، ذاهبـات أو راجعـات مرويـات أو غاسـلات أو



جالبــات أو زائـرات، أو ذاهبـات لمساعدة أو ردّ مساعدة. لو وزن ما يقمن به لم ينقص عن الرّجل. ولا يمنُنَّ ولا يتأفّفنّ.

ويولد الطّفل، وترضعه أمّه، وتكمّل له الرضاع سنتين إن استطاعت، فإن عجزت عن سدّ حاجته في السّنة الأولى، لنقصِ الحليب عندها، أو لمرض أصابها، أو لوفاتها، التَمست له مرضعة تكون له أمّا أخرى، وقد ينفع الطفلُ «أمَّه من الرّضاع» في المستقبل كما نفعته في الماضي. وقد يكون نفعه لها وهي ترضعـه، فقـد تكـون فقـيرة وأهله أغنياء، يكرمونها من أجله. ويصبح أولادها إخوانه. وفي الرّضاع من أمّ أخرى نفع، وفيه كما سبق أن قلنا بعض المشاكل التي قد تظهر فيما بعد. وبعضها ليس هناك حيلة لتجنّبه. والمحظوظ من يجد مرضعة من أقـربائه الأقربين، حتى لا تتعقّد الأمور، وتختلط الأمّهات من الرّضاع، ويتداخل الأخوان والأخوات.



وما دمنا في الحديث عن الرّضاع والمرضعات، فسوف أقصّ عليك قصّة وردت فيها كلمة الرّضاع وفيها ذكر للصّلة الوثيقة بين المرضعة والرّضيع:

> أكل رجل مع معاوية، وقيل مع غير معاوية، فجعل يمزّق جَدْيا أمامه على المائدة، ويمعن في أكله. فقال له معاوية: «إنّك تحرد عليه كأنّ أمّه نطحتك». فقال الرّجل: «وإنّك لمشفق عليه كأنّ أمّه أرضعتك»[1].

وتتوقّف حياة الطفل الأولى على حالة عائلته، غِنًى وفقراً، فقد تمرّ بسلام، فلا يعاني من عسرة في الغذاء أو الرعاية، أو قد يتعرض لأمراض قد يشفى منها أو تترك به عاهة، أو ينتقل إلى المقبرة، شأن عدد كبير من الأطفال الذين يموتون كلّ يوم، ومن هذه الأمراض كانت العاهات منتشرة، وأغلبها فقد العين أو ضعف بصرها، وقد تكون العاهة في اليد

(١) محاضرات الأدباء، ص ٢١٨، قارن هذا بما ورد في كتاب الأذكياء ص ٩٣.



أو الرجل نتيجة كسر لم يجبر بطريقة سليمة.

وقليل من الأطفال يجد الرّعاية الكافية في السّنوات الأولى ماعدا محاولة القادر من الأهل على حماية ابنه من البرد أو الشّمس، وإلّا فالأغلبية في شغل شاغل بالمعيشة، والسعي لتوفيرها، والجهاد في سبيلها، مما يجعل إهمال الأطفال أقرب إلى السّائد. فالطّفل يخرج في الصّباح ويلعب في شويرع أهله مع أنداده ومن هم أصغر منه أو أكبر، ويأخذ دوره في اللّعب تابعًا أو متبوعًا، غالبًا أو مغلوباً. يوم يُبكّي غيره، ويوم يبكّيه غيره، يوم يَظلم زميلا، ويوم يظِلمه زميل. وقد يبدأ اليوم وهو ودود مع آخر، فلا ينتهي اليوم إلّا وهما متنافران. وقد يبدآن اليوم متجالدين، فلا ينتهي اليوم إلا وهما معًا على ثالث.

والطّفل وهو يلعب بهذه الصّورة، في غفلة من أهله، يتعرّض لأنواع من الأخطار، على رأسها التّرامي بالحجارة. هذا أمر يلجأ إليه الأطفال في



العراك سريعاً. ويبدو أن السّبب يكمن في وجود فريقين غير متعادلين، فإنّ المتعاركين إذا كانا متساويين في القوة الجسمية فإنّهما يكتفيان بالمصارعة، يكتنفهما الصّغار الآخرون ممن يشجّع هذا أو هذا. ولكن إذا كان أحدهما يشعر أنّ هذا التّلاحم ليس في صالحه فإنه يلجأ إلى الحصَى، وهذا في الغالب إذا لم يكن له من أخ أو صديق حام ومجير. والأطفال في هذه السّنّ سريعو التغيّر في العداء والصّداقة، وتغيير الجانب الذي يحتمون به أو يحمونه.

وأحيانا لعب الصّغار هذا يكون سببا في دخول الكبار طرفا في النّزاع، خاصّة إذا كانت الآثار موغلة في الأذى، كأن تتسبّب في سيلان الدّم من الرأس أو الوجه، أو تتسبّب في أذى العين، أو كسر إحدى العضلات، ويتوقف إنهاء النّزاع بين الكبار على عدّة عوامل: رزانة أحدهما، أو بساطة الأصابة، أو الأخذ على يد الجاني من قبل والديه.



أو تراضي الصّغــار من خلف الكبــار، وإبـطال الشّكوى من أساسها.

ومـا دام الصّغـار في حدود الشّويرع الملاصق للبيوت فالأهل إلى حدٍّ ما مطمئنون على الصّغار، لأن المهتمّ منهم يطلّ بين آن وآخر على آبنه. وإذا غابت أصوات الصّغار عن آذان الكبار استوجب الأمـر من الكبـار أن يتحرّوا، فالهدوء أحيانا من جانب الصّغـار مقلق لجانب الكبـار، وغـالبـا ما يكتشف أن الصّغـار في تمثيليّة طبيعيّة تنتهي بأذى يأتي نتيجة مؤامرة على أحد أو على شيء. وقد تكون ضدّ الغنم أو البقر أو الدّجاج.

والتمثيليات بينهم لا تنقطع، فهم أحيانا يمثّلون الحياة في البيوت، هذا أب، وهذه أم، وثالث عم، ورابع مدرس، وهكذا، وأحيانا تأتي المشاكل من قيام شخص بدوره على الوجه الأكمل، فقد يزيد فيــه قليــلا، فالـذي يقـوم بدور الأب، أو دور المـدرّس، قد يؤدب المخالف، وهما يمثلان، أدبا



ينسى معـه أنّ الأمر تمثيل، فيجور لانسجامه مع الـدّور الذي يقوم به، ولا يوقظه من الجور إقدام المؤدَّب بالدفاع المحتّم في مثل هذه الحالة، فلا هذا يدرك أنه تعدّى دوره، وأن زميله خرج عن طور التّمثيـل وبدأ يدافع عن نفسه دفاعًا حقيقيًا، ولا الثّاني يدري أن الأول لا يزال يظن أنه يمثّل، وأنه لم يتنبّه إلى أن الثّاني لم يعد يمثّل.

وسـوء التّفـاهم هذا مزعج، ليس في الانسان الصّغير فقط، بل في الحيوان أحيانا، وأبين مثل لهذا الكلب والقطّ، فالقطّ من عادته إذا غضب أن يحرّك ذيله، والكلب بخـلاف ذلـك فهو إذا فرح يحرّك ذيله، فتصوّر، يا بنيّ، ماذا يحدث عندما يتقابل قط وكلب، ويبدأ القط بتحريك ذيله، فيظنّ الكلب أن القطّ فرح بلقائه، فيقترب منه للتودّد إليه، وكلما زاد القطّ في تحريك ذيله ظنّ الكلب أن هذا زيادة في التلهف للتقـرّب منه والتودّد إليه، والقطّ يرى الكلب يحرك ذيله، فيظنه يريد به شرّا، وأنه يستعدّ بهذا للهجـوم، فيبـدأ، وهـو يراه يقترب، يستعدّ



للمعركة، فإذا كانا على وشك التلامس، القطّ مع الكلب، قفز القطّ في وجه الكلب ليمزّق بأظافره وجهه، فيندهش الكلب على هذا التغيرّ المفاجئ.

وبعد أن يتعدّى الأطفال المرحلة التي لا ينفعون فيها إلا للّعب، ينقسمون إلى أقسام، قسم يذهب إلى الكتّاب، وقسم يلتحق بالعمل مع والده، أو مع غيره، ليساهم في كسب الرّزق له ولأهله، وقد يذهب قسم إلى الكتّاب في الصباح، ويعملون مع ذويهم أو غيرهم بقيّة النّهار. وهذا العمل أو الدّراسة يعطيهم مادّة للحديث عندما يجتمعون عصرًا أو ليلاً أو يوم الجمعة حيث لا مدرسة، أو العمل فيه محدود.

ولكلّ قسم من أقسام الشّباب نوع من الأحاديث يصبّها في آذان مستمعيه، وقد يضفي عليها المغالاة، وقد يخترع ما لم يحدث، ليزيد من أهميته، وليؤثّر عليهم في الجانب الذي يختاره. فابن المدرسة لديه ما يقوله عن السُّوَر التي حفظها من



القرآن، وما رآه من تأديب «المطوَّع»، المعلّم، لأحد المذنبين من التّلاميذ.

وقـد يحكى لهم ما اكتشفوه من أن فلانا جاء إلى المدرسة، والوقت شتاء، لابسًا سبعة «أثواب» كلّ ثوبٍ فوق الآخر، وكلّها قطن، ولم تدفئه. وفلانًا عنده «زربول»، حذاء، يقيـه برد الأرض. وقد يكون الحديث عن التّلميـذ الفـلاني الـذي ظنّـوا أنه من أكثر التلاميد أدبا وهدوءاً، وقد أدّبه المدرس اليوم، لأنـه تبيّن أن تحت هذا الهدوء شيئا يوجب التـأديب، فقـد تبـين أنّه قد اقتنى كلبا في إحـدى الخرابات التي خارج المدينة. وكان يذهب إليـه كل يوم مسـاء ليطعمه، وكان يدّخــر «الحنيني» من فطوره في الصّبـاح، ليـطعمه له في المساء. وهو غذاء متكامل، لأنه يحتوي على عنصر التّمر والخبز والزّبدة.

وقد فضحته «مخباته»[1] جيبه[2]، الذي كان يتسرّب إليه بعض السّمن الذي ما فتئ أن أسودّ من ملامسة الغبار له، فأثار الشكّ عند أهله، فأخبروا المعلّم الذي نصب رصدا له، ومسكه «بالجرم المشهود». فكان عقابه قاسيا أمام التّلاميذ، الذين وهم يشمتون به، لأنّه ظهر منه خلاف ما كان يبطن، ولأنّه عوقب، إلا أنّهم غبطوه لأنه كان عنده كلب طوال هذه المدة دون أن يعكّر عليه أحد صفو هذه الميزة. وكانت متعة له من قبل أن يكتشف أهله ذلك.

وهذا ثان لم يحفظ دروسه فأدّبه المدرّس، وذاك ثالث أحضره والده يجرّه بأذنه لأنّه تبينّ له أنه لا يذهب إلى المدرسة، وكان يتظاهر بالذّهاب إليها، ولكنّه بدلا من ذلك كان يذهب إلى الحقول، يتصيد

(١) المخباة في نجد: هي الجيب في الحجاز.

(٢) والجيب في نجد: هو فتحة الثوب الأمامية، منها يدخل الرأس، فيه الأزرّة (جمع أزرار) في نجد، وزرار وجمعه أزارير في الحجاز. وهناك نوع من الجيب يسمى في نجد «الزبزور»، وهو الجزء الخارجي لفتحة الثوب التي يدخل الرأس منها.



الطيــور، يضع لها «الحُبّالة» أي «الخِيّة» والمصائد المختلفة، «ويحبل» لها ليصيدها، ولا يعود إلى البيت إلا مع خروج الأولاد من المــدارس، فيركض معهم، وينشد أناشيدهم التي ألَّفُوها هم بوحي مما يدور في أذهــانهم، ويـتنــاسب مع عقليّــاتهم، ويتجاوب مع «عصافير» بطونهم وزقزقتها، صدى للجوع. يركضون ويقولون:

يا ويل الجِصّة وانْ جيته وآكل عشرٍ قبل أسمّى

سوف يصدقون في قولهم هذا، وسوف ينتهون من الأكل بكامله ولن يتذكروا أن يقولوا باسم الله الرحمن الرحيم.

ومــا دمنــا، يا بنيّ، في الحـديث عن المـدرسة والمدرّس ، ومـرّ ذكر الأدب والتّأديب قبل قليل، سأسمعـك قصّـة طريفـة حدثت في زمن مضى، وسُجلّت في أحد كتب الأدب، وطرافتها، وهذا مما يعجبك، تأتي في أنّ الطّالب غلب أستاذه بالحجّة، والحكمة، يابنيّ، يؤتيها الله من يشاء، وينزعها ممن يشاء:

ذكـر أن السّريّ بن المـقـلس قرأ على مؤدّبـه: ﴿ونسـوق المجـرمين إلى جهنّم وِردا﴾(١). فقـال له: يا أستاذ، ما الورد؟ فقـال له المؤدّب: لا أدري. فقـرأ: ﴿لا يملكـون الشّفاعة إلا مَن اتّخذ عند الرحمن عهدا﴾(٢). فقال له: يا أستاذ، ما العهد؟ فقـال المؤدّب: لا أدري. فقـطع السّريّ القـراءة، وقـال: إذا كنت لا تدري، فلِم غررت بالنـاس؟ فضربـه المؤدّب، فقـال السّريّ، يا أستـاذ، ألم يكف الجهـل حتّى أضـفـت إليـه الـظلم والأذى؟ فاستحلّه المؤدِّب، ثم تاب إلى الله من التأديب. وأقبل على طلب العلم(٣).

والنجـابـة ليست غريبـة على بعض الصّغـار، وكثـيرا ما أدهشت الكبـار، وكتب الـتراث ملأى

(١) القرآن الكريم، سورة مريم، الآية (٨٦).
(٢) القرآن الكريم، سورة مريم، الآية (٨٧).
(٣) عين الأدب، ص ١٩٢ .



بأخبار ذلك وقصصه، ومن أمثال ذلك ما ذكره صاحب كتاب الأذكياء في هذا الباب:

قال: بلغنا أن المعتصم ركب إلى خاقان يعوده، والفتح (ابنه) صبيّ يومئذ فقال له المعتصم: أيّما أحسن دار أمير المؤمنين أو دار أبيك؟ قال: إذا كان أمير المؤمنين في دار أبي أحسن. فأراه فِصّا في يده، فقال: هل رأيت يا فتح أحسن من هذا الفصّ؟ فقال: نعم، اليد التي هو فيها[1].

على أي حال رغم ما في هذه القصص من طرافة، فعليك أن تأخذها بحذر، لأن بعضها وضع ليرجِّح جانبا على جانب من طوائف الأمم المتعايشة في ذلك المجتمع. وانظر إليها من جانب الطّرافة وعلى أنها قصّة قد تكون مركّبة، وهي قد تدلّك كيف تعمل العقول حينئذ، وتحدّد لك مراحل الطّموح عند النّاس.

---

(١) الأذكياء: ص ٢٠٢.

ولعلّك، يابنيّ، لم تسمع عن أخبار القاضي إياس بن معاوية، وذكائه مع الخصوم، ومقدرته على كشف ما يحاول أحدهم إخفاءه أو إنكاره. وذكاؤه يبدو أنه قد أطلّ برأسه منذ أن كان صبيًّا:

يُروى أنه تقدم، وهو صبيّ، إلى قاضي دمشق، ومعه شيخ، فقال: أصلح الله القاضي! هذا الشّيخ ظلمني، واعتدى عليّ، وأخذ مالي. فقال القاضي: ارفق به، ولا تستقبل الشّيخ بمثل هذا الكلام. فقال إياس: أصلح الله القاضي! إنّ الحقّ أكبر منّي ومنه ومنك. قال: اسكت! قال: إن سكتّ فمن يقوم بحجّتي؟ قال: تكلّم بخير. فقال: لا إله إلا الله، وحده، لا شريك له. فرفع صاحب الخبر (للخليفة) هذا الخبر، فعزل القاضي، وولّى إياس مكانه[1].

ثم انظر، يا بنيّ، إلى الفطرة عندما يريد لها الله

(١) الأذكياء: ص ٢٠٢، والعقد الفريد ج ٢ ص ٢٧١ ويرويها بطريق مختلفة.



الاضاءة، فِهي تشعّ بما يبهر، وتأتي بما يدهش:

أعرابي صغير أجاب عندما سئل أتحبّ أن يكـون لك مئـة ألف درهم، وأنّك أحمق؟ قال: لا والله، فلما سئِل ولِمَ؟ قال أخاف أن يجني عليّ حمقي جنـاية تُذهب مالي، ويبقى عليّ حمقي.

تدبّــر، يا بنيّ، كيـف دارت دواليب عقله في لحظة، فتصوّر مساوئ الحمق، فوجدها آفةً تغلب مبلغ المال الذي ذكر.

ونعـود الآن، يا بنيّ، إلى وصـل ما انقطع من حديثنا عن الأطفال، فنجدهم يتحدثون كيف أنّ معلّمهم رأفةً منه وعطفا وتجنّبا للبرد، أبقاهم في «صفّة» المدرسة حتى تنتشر الشّمس، ويدفأ الجوّ، فيخرجهم إلى طريق المسجد يجلسون للدراسة في «مشراقه»[1] حيث تنتشر الشّمس، وكيف استغلّوا

---

(١) المشراق لعب دورا في حياة النّاس في نجد باديةً وحاضرة، وكان مظهرا من مظاهر حياتهم في الشّتاء تكاد لا ترى منحنى تشرق عليه الشّمس، إلا وكبار القوم ممن لا عمل لهم قد جلسوا فيه.



فرصة البقاء في الصفّة والجلوس حو ل النّار، بعد أن دفئت أجسامهم، فأخذوا يرمون بعض «الطِّلو» «الغرين»[1] في النّار، أذى «وعفرتة»، حتى يفرقع، ويتنــاثـر الجمـر على أثـره على من حول النّـار، فيتباعدون عنها حينئذ، ويتمكّن من ليس له مكان حولها من أن يقترب، ولا أحد يدري من الذي رمى الغرين، هذا الطّين الخاصّ اليابس الذي تُطلى به الألواح لتستعدّ للكتابة عليها. وبهذا التّصرف من الـعـبـث يعــرف المعلّم أنهم بدأوا يملّون النّــار فيخرجهم إلى الخارج.

وسوف يتحدّثون عن كيف لمّا سمح لهم المدرس بالـذّهـاب لمحـو الألـواح وتنـظيفهـا في «الحائط» القــريب، وهــو بستـان له شبـه بركـة خارجـة، يستفيـدون منهـا لغسل الألواح وطليها بالغرين، إعداداً للكتابة عليها عندما يجفّ «الطّلو» الطلاء. لعبـوا حينئـذ أكثر من الوقت المقرّر لهذا العمل،

(١) مادة طينيّـة خاصّـة تبلّ بالماء، وتطلى بها ألواح القراءة، فتمحو ما بها من كتابة، وتهيّؤها لكتابة جديدة.



وغافلوا المدرّس، ناسين أنّه كان مثلهم في صغره، ويعـرف أعـمالهم، ولكنّه يغضّ النّظر لأنّه يعرف طبيعتهم أولاّ، وثـانيـا لأنّه يرتاح منهم إذا أبعدوا عنـه، وثالثاً لأنّـه يعتقـد أنّ هذا يعـطيهم دفعة للاقبـال على القـراءة فيـما بعـد. وكيف وهم في طريقهم لطلي الألـواح مرّوا «بـالسِّرْح»[1] التي مدّدهـا رجل امتهنها مصدرا لرزقه، وثبّتها بأعواد متتالية. يأتي هؤلاء الصّغار يتبارون في قلع الأعواد، فإذا صادف وجود الرّجل حولها ركض في أثرهم، وهم يرون أنّ هذا جزء من اللّعب، مهما لحقهم من الأذى بسببه، وقليلا ما يلحقهم لأنّ الرجل أعرج، وبطيء الحركة.

ويتحـدّثـون عن المعارك التي تدور رحاها بين التّـلاميذ بعد الانتهاء من المدرسة، لأنّ كثيراً من الخصـام لا يمكن متـابعتـه في المـدرسة، فيتواعد التّلميذان المتنازعان في مكان معيّن بعد الدراسة،

(١) مفردها سريح : جلد البعير يقص حبالا، تستعمل بعد المعالجة، للسواني لرفع الماء من البئر.

وينقسم الأولاد فريقين كل فريق مع أحد «المتضاربين»[1] «يتفرّجون» عليهم كأنّهم «يتفرّجون» على «ديكة» تتصارع. وينتهي الأمر بالاقرار للغالب من المغلوب، أو بتمزيق الملابس. أو بمرور أحد الكبار فيعطي هذا «صفعة» وهذا «سطرة» ويفرح المغلوب، وقد لا يكره الغالب هذا أيضاً.

ويتحدّثون عن النّصارى الذين مرّوا بالمدرسة، وجوههم حمر كأن الدّم سوف يصبّ منها، ويتعجّبون كيف يستطيع بعضهم أن يأكل أمام بعض، لأنّ هذا الاحمرار الزائد «يطيح الكبد»[2]. بعض هؤلاء الشّباب ذهبوا إلى الخارج ودرسوا في بلاد هؤلاء، وتغيّرت عندهم معايير الجمال. على كل ليس فقط احمرار وجوههم هو الذي يلفت أنظارهم، وإنما «كوابيسهم» قبعاتهم التي يلبسونها على رؤوسهم حتى لا يروا سماء ربّهم كما قيل لهم.

(١) في نجد في بعض المناطق يسمى هذا مهاوشة وفي الحجاز مضاربة. وفي نجد يقول المتحدي للآخر «تطلّع» وفي الحجاز «اطلع لي برا».

(٢) أي يقرف أو يقزز.



ومعهم آلات تصـويـر «يعكسون» بها الأولاد في مدرستهم التي ليس فيها فِراش ولا «ماصات» ولا كراسي. فِراشهم الـتراب، و «مـاصـاتهم» جدار المسجـد الذي يسندون إليه ظهورهم، وقد حفره «جـذمـار[1] المطوّع» من كثرة ما يدرجه عليه لينَبِّه الأولاد لاستمرار القراءة، حاكّا له صاعدا ونازلا.

يتحدّثون كيف أنّهم وقد عادوا بعد صلاة الظهر إلى المدرسة، وبعد أن شربوا الشّاهي الذي هو أشبه بالماء الـذي ينتـج عن غسيـل أواني الشّاهي لقلّة الشّاهي فيه، وجدوا المعلم لم يحضر بعد وقد وكل الأمـر إلى أحد الأولاد الكبار، وكيف أنّ أحدهم «رشـا» هذا الـولـد «بِقفرة»، قديـد من اللحم اليـابس، فتهـاون معـه وتسـاهـل، ولم يجبره على القراءة، هو والآخر الذي أعطاه قطعة صغيرة من «الكليجـا»، والثـالث الـذي أعـطاه شيئـا من «المعمول». وهي أشياء لو أعطيت المعلم نفسه فقد

(١) عسيب النخلة، بعد نزع الخوص منه، والمطوّع: المعلم، وهو عادة يستعمل الجذمار عصى يضرب بها التلاميذ عن بعد.

يتساهل معهم، فما بالك بطالب مثلهم. وينصبّ عمله على الطلاب الذين لم يعطوه شيئا.

يقصّون على الآخرين الذين ليسوا معهم في المدرسة كيف ذهبوا في «زفّة» وحفل مع أحدهم، وقد حفظ جزء «عمّ»، وهم ينشدون: «حافظ حافظ جزو عمّ، حافظ حافظ كلّ القرآن». وكيف اخترقوا الأزقّة والحارات من المدرسة إلى بيت التّلميذ الحافظ، وكيف استقبلهم كبار العائلة بفرح وبهجة، وكيف أكلوا خلافا للعادة طعاما مطبوخا في الصّباح، لقد كان هذه المرّة «تمّنا»: أرزا، وهو أمر يسجّل في الذّاكرة، لأنّ حصوله نادر. وترى المستمع «يتلمّظ» وهو يتصوّر الصّحون ملأى بالأرز والأولاد تنزل أيديهم وترتفع كأنها سنّ حفّار، لا تبالي بحرارة الأكل، ولا بنظرات الآخرين، إنّه يوم مشهود، ولا ينسى.

الأحاديث شتّى، والقصص تترادف، وكلّها من البساطة بمكان، ولكنّها تملأ فراغ هذه الأذهان الصّغيرة، ويرون فيها ما لا يراه الكبار، عالم خاص



بهم يكوّنون تفاصيله، بتصرّفاتهم المبسّطة، يتوارثونه بأجـزائـه جيلا بعد جيل، يسلّمه جيل إلى الجيل الآخر بأمانة، حتى لو قام جيل بعد موته بقرون لم ير أنّ فيه ما قد تغيّر. لأنّ الحياة عندهم هي الحياة نفسها، والمحيط هو المحيط،والطّبيعة على ما خلقها الله لم تهذّب بغير ما عرفوا.

ويشبّـون عن الـطّوق، ويـدلفـون إلى عهـد المـراهقة أو يزيدون عنه، وتتغيّر نظرتهم للحياة، وتتغـيّر ممارستهم لها، وتكـبر أمورهم معهم، ولا يكون الشّارع القريب من بيوتهم هو مسرح لعبهم ولهوهم، بل يبتعدون إلى أطراف القرية أو المدينة، ويدلفون إلى الحقول والمزارع، طوعا من أصحابها أو كرها، ينتهزون فرصة «الإيضاع» عن السّواني، وإراحة الحيوان الذي يقوم بمتح الماء في القيلولة، فيمتّعون أنفسهم بالسّباحة في الآبار، وكلّما كانت البئـر واسعـة وعميقـة، كان الاقبـال عليهـا أكثر، والتملّص للدّخـول إلى حائطها أشدّ إلحاحا. وفي هذه الآبار والبرك مجال لتعلّم السباحة.

وقد يسمح صاحب البستان بالاستفادة من بئر بستانه، وقد لا يسمح، ولكنّ هؤلاء الشّباب إذا لم يسمح، يخاطرون، ويضعون على مسافة من البئر من يرصد الطّريق، وينبّه السابحين إلى صاحب البئر إذا أقبل، وقد يفاجئهم فينالون من الجزاء ما سرعان ما ينسونه، ويكرّرون فعلتهم، ويتكرّر العقاب، والغريب أن الجيل الماضي (من الفلاحين) الذي كان مرّ بهذا الدّور في شبابه لا يفكّر في التسامح من باب أنّ هذه طريق للشّباب مسلوكة، وأنها من الاغراء والفائدة بحيث تحتاج إلى تنظيم بدلا من المطاردة والمقاومة. وليس هناك من يتذكّر ما كان يأتي به في شبابه، وقد يكون في هذا البئر بعينها، أو في مثيلة لها. فتخدّره الذّكرى فيتساهل مع هؤلاء الشباب. ولكن لهم من الرأي بعد أن كبروا ما قد يكون مانعا لمثل هذا التفكير. قد يكون السبَبَ في عدم التّساهل المخاطرُ التي قد تحدث لهؤلاء الشباب فيكون هو مسؤولا عنها، وقد يكون العبث «بالسِّرح» و «الأرشية» وبقية معدّات



البئـــر هي السّبب في تصرّف صاحب البستـــان. يضاف إلى هذا ما قد يأتي منهم من وطء وتخريب للزرع في طريقهم إلى البئر، وصرم للسّنابل قبل أن تنضـــج، وسرقـــة للمنتـــوجـــات، من «جـــحّ» و «جراوة»: (حبحب وخربز).

والكبير منهم يعلّم الصّغير على السّباحة، وقد ينـزلـون إلى البئر عن طريق التّدلّي بالحبال، وقد يكون عن طريق الاستفادة من الفراغات بين حجار الطَّيّ الذي يجدون فيه أماكن لأصابع أقدامهم أو أيديهم. ويأتي وقت يكون النّزول إلى الماء سهلا على المتعلّم على السباحة، فهو يسقط نفسه من «الكافّة» أو «الجوبة» وهي شفة البئر التي في أعلاها، ويخرج بعد أن يسبح بالطّريقة التي ذكرناها. وبعضهم، خاصّة في أول الأمر، ينزل مستقيما مقَدِّما أصابع قدميـه، ولكنّـه بعـد مدّة، خاصّة إذا كانت البئر عميقة، ينزل مستقيما على رأسه مقدّما يديه قبله.

ويأتي وقت ينزل من «الدّامغة»، وهي أعلى من

«الكـافّـة» و «الجوبة» وأحيانا من الزرنوق. وإذا وجد نخلة بوضع تجعله يتمكن من النّزول من أعلى فرعها، فإنه لا يدّخر وسعا في أن ينزل منها. ومثل هذا التّنافس الذي يقرب من حافة الأخطار يوجب قلق أهلهم عليهم وقلق الفـلاح، فالشّبـاب إذا بدؤا في التّنافس فإنّ تفكيرهم لا يهديهم إلى نقطة الوقوف عن الدّخول في مرحلة الخطر، ولا ينتبهون إلى المحذور إلاّ بعد أن يقع. ولهذا النّشاط ضحايا يتكرّر حدوثها.

ويكثر عدد الأولاد في البئر أحيانا بما لا يطيقه حيّـزها، وهذا من الأخطار، ورغم أنّ لهم ترتيبا بينهم يحاولـون به تفـادي مثـل ذلك، وهو نزول أحدهم على الآخر مما قد يؤذيه إلى حد الموت، إلاّ أنّ هذا الترتيب لا يفيد أحيانا، ومن ترتيبهم أن ينبّه الذي فوق، ويريد أن يرمي نفسه، من في الماء، بقوله: «الماء»، أي أريد حيّزا من الماء أنزل إليه، فيردّ من في البئر «هولك» كلمة تنبّه إلى أنهم عرفوا بنـزولـه، وأنّهم أوسعوا له الحيّز المطلوب. ولكن



أحيانا يخونه ممسك يده أو رجله، فيقع دون تحذير منه لمن تحته، أو انذار، وهذا مأتى الخطر.

هنـاك مجموعة أخرى كبيرة من هؤلاء الشباب ليس لديهم وقت للّعب، والاسـترخاء في الحياة، لأنهم في أعـمال توجب الكدّ والكدح، كل واحد يتبـع في الغالب مهنة أبيه، يبدأ بمساعدته فيها، ويتعلّم منه أصولها، ثم يخلفه فيها عندما يشيخ، ثم عنـــدمـــا يلبّي نداء ربّـــه. بين هؤلاء النّجـــار، والصّـــانـع، والفـلّاح، والتنّـاك أو السّمكـري، والخرّاز، والتّاجر الذي يجلس مع والده في دكّانه، أو يسافر معه من بلد إلى آخر. ومنهم الذي يبيع ويشتري في الحيوانات جمالا أو بقرا أو أغناما.

ويدخل بعض الشّباب في مدارس تختلف قليلا عن الكتّاب، فهي تعلّم مع القرآن الكتابة والقراءة والحساب، وبعض الموادّ الأخرى، مباشرة أو عن طريق موادّ أخـرى. ويملأ هؤلاء الشّباب الفخر عندما يجتمعون ليتذكروا ما جرى لهم أو منهم في



هذه المدارس، وأحيانا يميّز هؤلاء خارج المدرسة بما يظهر على ثيابهم من آثار الحبر، لأنّ الكتابة في تلك الأيــام تعتمـد على «غطّ»: غمس القلم في الدواة، ولا يعدم الكاتب من نقطة تقع على ثوبه. بل إنّ بعضهم يعمـد إلى رشّ الثوب بالحبر حتى تكـون العـلامـة ظاهرة، وتدلّ على أنه يدرس في مدرسة من هذه المدارس التي على هذا المستوى.

وهم يُقـدِمـون، يا بُنيّ، على نثـر الحـبر على ثيابهم، كما رأيت، طوعا واختيارا. للهدف الذي ذكرنا، ويبدو أنّهم ليسوا بدعا في النّظرة هذه إلى الحـبر، فهنـاك قصّـة من الـتراث جميلة، ذكـرهـا صاحب كتاب الأذكياء، يحسن أن تسمعها: قال:

حدّثنـــا ابن المحسّن عن أبيــه، قال: سمعت أبا القاسم الحسن بن علي بن مقلة يقول: كان أبو علي بن مقلة يوما يأكل، فلمّا رفعت المـائدة، وغسل يده، رأى على ثوبه



نقطة صفراء من الحلوى التي كان يأكلها، ففتح الدواة، واستمدّ منها نقطة على الصّفرة، حتى لم يبق لها أثر، وقال: ذاك أثر شهوة، وهذا أثر صناعتي، (وكان كاتبا) ثم أنشد:

إنّما الزّعفران عطر العذارى
ومداد الدّاواة عطر الرّجال[1]

وكما رأيت، يا بُنيّ، في هذه القصّة البديعة، وضع الحبر في كلا الحالين كان متعمّدا، إلا أن النيّة والهدف مختلفان.

وقال الحسن بن وهب في ترشيش المداد على الثواب:

وماشيء بأحسن من ثياب
على حافاتها سمة المداد[2]

وما دمنا في هذا الباب، فعله يعجبك أن تسمع

(١) الأذكياء، ص ٤٨.
(٢) محاضرات الأدباء، ص ٤٨.



شيئا عن الدّواة، وعاء الحبر، فلها شأن عند القوم في ذلك الزمن البعيد، وفي زماننا، وتستحق أن يكتب فيها، وفي صناعة الحبر، كتيبًا.

قال الشيخ المزني في وصف دواة:

أنا دواة يضحك الجود من
بكا يراعي جلّ من قد براه
دلّوا على مثلي من شفّه
داء من الفقر فانّي دواه[1]

ونختم الحديث عن الدّواة بهذا الألغاز عنها على لسان أحد الشّعراء:

وزنجيّة لم تلدها الأناث
وفي جوفها من سواها ولد[2]

والآن نعود إلى مدارس زمن والدك، وجدّك، ونصل ما انقطع من حديثنا عنها:

---

(١) ثمرات الأوراق، ص ٣٦٩.
(٢) محاضرات الأدباء، ص ٥٠.



هذه المدارس، قد تكون امتدادا للمدرسة التي تكلّمنا عنها، وهي حلقات المساجد، التي ينقطع للتّدريس فيها رجال علماء في الدّروس الشرعيّة، يعلمون التّفسير والحديث والفقه والتّوحيد والمواريث والأصول، وكان هؤلاء هم سرج المجتمع، ولهم من الاحترام في أنفس النّاس، ما يدلّ على تقدير النّاس لحامل هذا العلم. وهم أهل لهذا لأنّ منهم القضاة، ومنهم المفتون، ومنهم من يلجأ إليهم النّاس لحلّ ما قد يقع بينهم من مشاكل. يضفي عليهم علمهم من الوقار، وحسن التصرّف، والمقدرة على الانصاف، وحبّ الخير، والسّعي له، والنّظرة العميقة، والنّزاهة المتناهية، ما يجعلهم مفخرة للمدينة التي يوجدون فيها.

أي بُنَيّ!

هذه لمحة خاطفة عن الشّباب منذ أن يولدوا حتى يدخلوا مرحلة الرجولة اختصرتها لك، ولم أترك مما تودّ أن تعرفه، أو تحبّه إلاّ ما قد يكون غاب



عن ذهني ، أو ليس له من الأهمّيّة ما يجعلك تلتفت له ، وقد أترك شيئا لأنّ فيه بعض ما يرضيك ، عقابا لك لأنّك لا تقرأ إلا ما هو مسلّ ومريح ، ولو كنت تقرأ بتمعّن ما هو مفيد بصرف النّظر عما إذا كان مسليّا أم لا ، لذكرت لك بعض ما لم أذكره . مثل الحديث عن بعض ما يقوم به الشباب في سنّ المراهقة من الحرب، نعم الحرب، يا بُنيّ، فمثلما يتصارع اثنان ويتعاركان ، يقوم النّزاع بين حارتين ، وتعلن الحرب، أجل تعلن الحرب . ولها أصول وقواعد . عندما تتقرر الحرب بين حيّين، يأتي مندوب من هؤلاء ومندوب من هؤلاء، ويتّفقان على نقط يراعيها الطرفان . يتّفقان على اليوم الذي تشنّ فيه الحرب أو على الأيام، والوقت المعينّ لشنّها، وغالبا ما تكون بعد العشاء، وعلى السّلاح الذي يستعمل، هل يقتصر على الأيدي، أو يسمح باستعمال الحصى، أو العُصِيّ، ويراعي الطّرفان ما يُتّفق عليه من شروط، ويضاف إلى الشّروط شرط أخير، وهو هل يُؤذَى الفرد من أحد الفريقين إذا



دخـل في غير الـوقت المحدد للحرب حيّ الفريق الآخر، أو تقتصر العداوة فقط على ساعات المعركة.

إنّهم، يا بُنَيّ، يرضعون لبان عادات آبائهم من الصّغر، وفي زمنهم الحرب لا مناص منها بين المدن، أو المنـاطق، أو بين الحـاضرة والبـاديـة. وحـرب الشّباب هذه التي تقوم بين الأحياء ما هي إلا تجارب لما سوف يخوضـه هؤلاء الشّباب في المستقبل، من حرب قوامها السّيف والرمح والرّصاص. ولعلك تلاحظ أنّ الاتّفـاق المتحضّر الـذي يجريه الصّغار ويتقنونه لا يتقنه الكبار. ولعلّ السّبب أنّه مع الكبار الأمر جدّ، وفيه موت أو حياة، وفيه نهب وسلب، أمّا مع الصّغار فالأمر في «متطرّف الرّيش» لا ينفذ إلى اللّحم. وشتّان بين الأمرين.

أظنّ الحديث عن العراك هذا أعجبك، وقد يعجبك أن تعلم أمرا قد لا يخص الحرب هذه وقـد يخصّهـا، ولكنّـه تصرف لأحـد

الشّباب ممن كان يحلو له أن يسهر بعد صلاة العشاء، ويسمر مع أصدقائه خارج البيت، ولكنّ والـده يرى أن من مصلحته أن ينام مبكـرا حتى ينهض مبكـرا، وفي هذا فائدة كبرى لصـحّتــه ونمــوّه. ولكنّــه، لقصر تفكـيره، يرى أنّ لذّة السمر مع الأصدقاء أهَمّ، فكان يحتال بعد أن يدخل مع والده إلى البيت، ويلجــأ إلى وسيلة ناجحــة في الخـروج منـه بعـد أن ينـام والده، وكانت المـشكلة في أنّ البــاب إذا فتــح «يصرّ»، ويحـدث صوتـا مزعجا يوقظ والده. فوجد طريقــة يتغلّب بها على هذه الصّعــوبـة. والأبواب، يا بُنَيّ، في الزّمن القديم تعمل من خشب الأثل، والباب يدور على دوّاسة في «الصّــايــر»، ويـوضع تحتها أحيانا خفّ بعير. هداه تفكيره إلى أن يبلل الخفّ، (ولن أخبرك كيف يبلّله إلا همسا في أذنك!) فوجد بذلـك أن الصّرير لا يحدث، فصار يخرج



باللّيل، ويسمر مع أصدقائه، ويعود دون أن يعلم به أحد.

وهو نفسه، يا بُنَيّ، الشخص الذي لما كبر، صار يحتال على الفلاحين الدائنين له ليؤجل دفع الدين عندما يأتون عند صلاة العشاء، وهو أضمن وقت يفرغون فيه من عملهم ويجدونه، فيصلّون معه، وهناك من يحدّث عليهم من قبله، فيطيل الحديث ليملّوا وينعسوا فينصرفون، لأنّهم يعملون أثناء النّهار عملا شاقّا، يبدؤونه قبل صلاة الصبح، ولا يستطيعون الاستمرار طويلا في السّهر بعد صلاة العشاء، فيبدؤون الانسحاب الواحد تلو الآخر، وكان ينظر إلى القارئ ليرى إن كان بقي أحد، حتى لا يلتفت إليهم، وتلتقي الأعين، فيفهّمه القارئ باشارة منه بأنه بقى واحد، فيقول: «زِدْ لَهُ بصفحة» فيستمرّ في قراءة صفحة

تكـون في الغـالب كافية لأن ينسحب آخر «الدّيانه»، وأصبحت كلمة «زد له بصفحة» مثلا. وهكذا، يا بُنَيّ، الذّكيّ في الصّغر قد يتطوّر معه ذكاؤه في الكبر.

واللّعب، يا بُنَيّ، كان هو سلوة الشّباب في تلك الأيام، مثلما هو كذلك في هذه الأيام، وكانت أيام اللّعب أحيـانـاً تتـداخل مع أوقات الجدّ، يدخل الواحد منهم مرحلة الجدّ وهو لم يقض وطره من حياة اللّعب والمرح، فيبقى في نفسه شيء من الحنين إلى المرح واللّعب، فينقل حياة المرح هذه معه وتخرج بطريقـة مقـالب وأمثالها، وهو أمر لا يخلو بعض النّاس من المرور به في زمانهم هذا.

ومن الأمور الجادّة التي يسرعون إلى الدّخول في مرحلتهـا، الـزّواج، فهم يزوّجون الشباب وهم صغـار، ويـرون أن في هذا فائدة، ولعلّ أوضح فائـدة أن يصبح الأب وابنه من جيل واحد، فلا يحدث بينهما الخلاف الذي يحصل بين جيلين، لعدم



فهم جيل الأب لجيل الابن، خاصّة في زماننا هذا الـذي اتّضح فيه اختلاف الزّمن عن الزّمن الذي قبله في مظاهره ومحتوياته.

بحث رجـل من الجيل قبل الماضي عن ابنـه، في أحـد الأيّـام قبل صلاة المغرب، فوجده يلعب فأخذه من ذراعه وقال له: «أما تستحي، اللّيلة زواجك، وأنت هنا تلعب مع أقـرانك». وأخذه بيده وأدخله البيت، وقـال له تغسّـل والبس ثوبـا غير ثوبـك. والابـن يسـتـفسر منــه عما يجب أن يعمله الشاب عندما يتزوج!!

وللشبـاب في ذلـك الـزّمن لعب منظم حسب مواسم معيّنــة، لا يدخـل موسم في موسم، ولا تدري كيف توصّلوا إلى هذا التّرتيب، إلاّ أن يكون تبلور مع الزمن، وارتبط بعدّة اللعب وأدواته، وما قد يناسبها من حرّ أو برد.

في وقت من الأوقات تكون اللّعبة المسيطرة في



الأحيـاء هي «الـطّابَـة»، الكرة، ولم تكن في تلك الأيام الكرة بالصّورة التي هي عليها اليوم. كانت مصنـوعـة محليًّـا من الخرق، تصنعها الأمهّات أو يصنعها الأولاد أنفسهم، وهي بحجم كرة التّنس. لا تقفز بعيدا، ولا تسير على النّظام الذي تسير عليه الكرة اليوم. وأحيانا تقتصر على محاولة إصابة هدف ينصب لها، وأحيـانـا بحذفها إلى الجدار، وتلقّيها راجعة وإعادتها فورا إلى الجدار، وبعدد المرّات التي يفعـل بها ذلـك دون فترة انقـطاع يَغلِب المـرء أو يُغلَب، وقد تجد كرة من المطّاط طريقها إلى أيدي الشّباب، ولكنّها لا تلبث طويلا قبل أن تتمزق، ويعود الأولاد إلى كرة القماش.

وتستولي على وقت الشّباب في موسم آخر لعبة «الكعـابـة» في نجد و «الكبوش» في الحجاز وهي عظام المفصل في رجل الخروف. تنظّف من بواقي اللّحم فيها، وعند اللعب يوضع بعضها فوق بعض في داخل دائرة تحدّد في الأرض، ويقف الطّفل من بعيد ومعه واحد منها، أحياناً يوضع فيه ثقب يصبّ



فيـه قليـل من الرّصاص ليزيد في ثقله، حتى إذا أُرسـل إليهـا وضربهـا أخـرج أكـبر عدد منها من الدّائرة، ثم يتحرك الشّاب من مكانه، ويقف في المكان الذي انتهى إليه «الصّول» المرصّص، ويعيد الكرّة ليخرج ما في «الخوطة» : الدّائرة إلى خارجها، وما يخرجه هو مكسبه، حتى ينتهي ما بداخلها أو يخفق مرة في إخـراج ما أرسـل «الصّـول» عليه. وحينئـذ يُسلّم العمـل إلى منـافسه. والواحدة من «حبّات اللّعب تسمّى «طَزْقَا» وهي ما يتسلط عليه «الصّـول» ويضربـه ويخـرجه. وأحيانا يشترط في اللّاعب أن يقف وقفة عسرة، امعانا في جعل اللّعب صعبا.

وهنـاك موسم للعب «العجاوي» جمع «عجيّة» وهـذا اسمهـا في نجد وهي «الدوّامة» واسمها في الحجـاز «المـداوين» جمع «مـدوان» وفي نجد هي نوعـان «عجيّـة» وهي ما يلعبه الكبار، و «مغزل» وهو ما يلعبه الصغار. والعجيّة مدوّرة بشكل هرمي يثبت في طرفها المدبّب الدّقيق الرّفيع مسمار تدور

عليه عندما «تثبت»: أو ترمى على الأرض لتدور، بعد أن يدار عليها خيط يبدأ من أعلاها الدّقيق إلى أن ينتهي إلى أسفلها المنداح، وطريقة إرسالها بعد أن يدار عليها الخيط، وطريقة إدارة الخيط ونوع الخيط، كلها أمور تحتاج إلى دقّة، ويتحسّن العمل بها مع التجارب والممارسة. ويُعتنَى عناية خاصّة بتمليس المسمار الذي ستدور عليه، لأنّ هذا يزيد في ثباتها. ويحفر حفرة صغيرة في الأرض يوضع فيها بعض التّراب، وعندما ترسل «العجيّة» ترسل على أمل أن تكون في أقرب نقطة ممكنة من الحفرة، ولأنّه لا يتوقع أن تنزل في الحفرة مباشرة، وليس من المناسب أن تنزل من أوّل الأمر، والكاسب هو الذي يستطيع أن يدخلها الحفرة بأقلّ مجهود. والمجهود نوعان: أحدهما أن يدفعها بحافة يده، ضربة أشبه بضربة السّيف، أو إذا كانت قريبة من الحفرة ولا تحتاج إلى ذلك فيدخلها بنفخة من فمه. ويحسب الأمر على أساس: نفخة و «ندّة»، أو ندّة ونفختين، أو ندّتين ونفخة وهكذا. وبمجرد أن



تدخل الحفرة «تدمغ» أو يطبق عليها اللاعب يده بسرعـة حتى لا «تنتق» من الحفـرة، وتقفز منها، وليس هذا من مصلحة اللاّعب.

أما المغزل فهو لعبة الصّغير، لأنّه لا يحتاج إلى كبير فنّ، ومع هذا فهو أول الطريق للاعب هذه اللّعبـة، يتعلم فيه لفّ الخيط و «ثبت المغزل»، ورميه مع الامساك في الوقت نفسه بطرف الحبل، فيهوي المغزل يدور بانتقاض الحبل من سابق لَفِّه، ويكمل الدّورة بعد أن يصل الأرض.

وهناك تعبيرات في هذه اللعبة تدلّ على ما يأتي منها من أفعال، فبجانب «الثّبت» و «الدّمغ» هناك «التّلعيس» وهو الأثر الذي يتركه المسمار على الأرض بعـد الـدّوران أطـول مدّة ممكنـة، وقـد «تسهي» «العجيّـة» بمعنى تغرق في دورانها إلى الحدّ الذي تظنّها معه واقفة لا تدور، وهذا مظهر من مظاهر الاتقـان في «الثّبت» والحذف أو الارسال. وهناك «اللّقف»، وهو ممكن خاصّة عندما تسهي «العجيّة»



يأتي لاعبها و «يقحفها» أي يخطفها بطريقة خاصّة، لتدور باقي دورتها على راحة يده. وطول مدّة دورانها على يده يحدده مدى قدرته واستفادته من تجاربه، وطيب «العجيّة» وحسن صناعتها.

و «البعّة» لها موسم، وهي لعبة بسيطة ولكنّها مسلّية، وميزتها أنّها أحيانا تناسب الذي يسير في طريق طويلة. وهي عبارة عن خشبة طولها في حدود خمسة عشر سنتيمترا، «محذرب» طرفاها، ومسنّنان. حتى يكونا مرتفعين عن الأرض إذا وضعت عليها. وتضرب بعصى يحملها اللّاعب فتقفز البعّه في الهواء فيضربها في الاتّجاه الذي هو سائر فيه. وتحسب الضّربات وتقاس المسافة، ويغلب الغالب بزيادة الطّول الذي يزيد فيه عن منافسه.

وهناك «الدّنّانه» وهي دائرة من الحديد قد يكون قطرها ثلاثين سنتيمترا أو خمسين أو أكثر، يدحرجها الشّاب بواسطة قضيب هيّء طرفه لدفعها، فيستمرّ



سائــرا فيهــا، وازنــاً لها عن أن تميـل أو تسقط، وبالتّدريب والتّمرين يستطيع اللاّعب أن يتقنها، واللّعب بها عبارة عن سباق يربح الواصل فيه إلى الهدف دون أن تفلت منه أو تسقط.

وهنــاك «أمّ خطوط» أو «بربر» وهي عبارة عن مستطيلات مخطّطة في الأرض، بعضها يتلو بعضا، وعددها إمّا خمسة أو ستة كلّ واحد منها له اسم. ويؤتى بقطعة صغيرة بمقدار حجم ثلاثة الأصابع أو الأربعة، مفرطحة، مربّعة، مذروبة الاركان، أو دائرية، تحذف في أوّل الأمر، في أقرب مستطيل، ويـرفع اللاّعب رجلا، ويقفز حاجلا بحيث تحطّ رجله الأخرى على القطعة، فإن لم ينجح ضاعت منه اللّعبة، فإن نجح فعليه، وبهذه الطريقة، أن يخرجهـا إلى خارج المستـطيـل، على أن لا تلمس رجله خط المستطيل، فإذا نجح رماها في المستطيل الثاني، ثم يدحرجها برجله، ويدفعها إلى المستطيل الأول إلى أن يخرجها إلى الخارج. وهكذا حتى يمرّ بجميع المستطيلات عائدا من الآخر إلى الأول ثم



يخرج. والناجح من يتم ذلك دون خطأ من إنزال رجله إلا في المكان المسموح به لذلك، وهناك خطّان، يرمز إليهما بخط النار، لأنّ المسافة عندهما بعيدة، والميزات عند التغلب عليها كثيرة.

ولا يجوز له أن تلمس قدمه الخطّ أو أن يخرجِ من المستطيلات إلّا بعد أن ينتهي من الأوّل عائداً، أو في خانة «الملينة» وهي الخانة التي تلي خط النار، وفي تحريكها بقدم واحدة إلى المكان المقصود صعوبة، وفي تفادي مجيئها على الخط صعوبة، وفي تفادي لمس الخط بالرّجل صعوبة، وفي إبقاء الرّجل مرفوعة، خاصّة في المراحل النّهائية، صعوبة. وهي رياضة للجسم مفيدة لما فيها من مجهود[1].

هذه بعض الألعاب التي تتماثل المناطق المختلفة في لعبها، وفي الحجاز لعبة لا يعرفها أهل نجد، وهي لعبة «الكبت»، وهي أقرب للعبة المبارزة في

(١) الأداة التي يلعبون بها في نجد قطعة صغيرة من ضلع البعير في الغالب تهذّب وتشذّب حتى لا تجرح الرجل. أما في الحجاز فهي شقفة من حجر رقيق مهذّب، والأغلب شقفة من فخار.



الحرب، يقف فريقان متقابلين، يخرج من أحدهما فرد كأنه يهجم على الفريق الثاني فإن لمس أحدهم ولم يمسكـوه فالملموس يعتبر ميتا. وإن نجحوا في مسكه مع حذره فيعتبر ميتا. وهي لعبة مسلّية يلعبها الكبار والصّغار.

كما ترى، يا بُنَيّ، كان لديهم من الألعاب المسلّية ما يشغلهم، وقد اختاروها منوّعة حتى لا يتسرب إليهم الملل، ولم أذكـر لك إلاّ بعضهـا مما يتّصـل بالنّشاط الجسمي، وإلا فهناك مسلّيات أخرى مثل لعبة «الرجعة» «البذّه» ومثل «الطرّة» ومثل «إصفر وانخر» ومثل «عظيم لاح» و «الغمّاية» الخ، وربما تعرضت لها فيما بعد.

مادمنـــا يا بُنَيّ في الشّبـــاب، وقلنـا طرفـا عن ألعـــابهم، أفـلا تريـد شيئـا عمّا قيـل في نمـوّهم ومراحله، وهو انتقال مريح من الحديث عن اللّعب إلى بعض أقوال السّابقين الجادّة. يُروى عن عمرو ابن العاص أنّه قال: «يتغيرّ الغلام لسبع، ويحتلم



لأربــع عشرة، ويتمُ خلقــه لإحــدى وعشرين، ويجتمع عقله لثمان وعشرين، وما بعد ذلك فتجارب[1].

هذه لمحة خاطفة، يا بُنَيّ، عن الأولاد منذ أن يولدوا إلى أن يبلغوا مبالغ الرّجال، والحديث عن الـرّجـال بعـد ذلك، وعمّا تفعله بهم الحياة، وعما يفعلونـه بها أمر يحتاج إلى حديث خاصّ به، يلمّ بمهنهم، ومعالجتهم لها، ويلمّ بأسفارهم، وحصد الحروب لهم، وإشقاء عوائلهم.

يكـبر الصّغـير وتكبر بعض عيوبه معه، وتكبر مزاياه، يفتقر ابن الغني، ويغنى ابن الفقير، وقد يبقى ابن الغني غنيّـا، وابن الفقـير فقيرا. تجتمع عائلتان وتقتربان بالزواج، وتفترق عوائل وتتبعثر بسبب الـزّواج، يرتحـل هذا عن أهله إلى مدينـة أخــرى، ويبقى هذا في مدينتـــه. وهكـذا يبقى «دولاب» الحياة وعجلته في الدوران إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) المحاسن والمساوىء، ص ٣٦٨.



والآن حان الوقت لأن نتحدّث عن البنات، وإن كنّ داخلات في بعض ما ذكرنا، ونبدأ عنهنّ عندما بدأن يفترقن عن البنين. لم يكن هناك حرص كثير على تعليم البنت في الماضي، وفي المدن يوجد سيّدات يدرّسن القرآن الكريم، ولا يتعدّينه إلى غيره، وفي الغالب لا تكمّل البنت منه إلا قليلا، فيقطع عليها الزّواج ما نوت أن تكمّله، وهذا لا يعني أنه لا يوجد من يحفظن القرآن حتى لو تزوّجن. بل هناك، وهنّ قليلات جدا، من تواصل وتتفقه في الدّين، وإجادة الخطّ.

ألا تريدني، يا بُنَيّ، أن أقف هنا بين قسم البنين، وقسم البنات، وأقصّ عليك قصّة من التّراث، تتحدّث عن ابن وبنت، فيكون هذا صلة بين الحديثين الماضي والمقبل:

قال صاحب كتاب الامتاع والمؤانسة:
قال أبو الحسن: كانت لي ابنة تجلس معي على المائدة، . . . ، فلا تقع عينها على أكلة

نفيسة إلّا خصّتني بها. فزوَّجتُها، وصار يجلس معي على المائدة ابن لي، فيبرز لي كفّا كأنها كرنافة (أصول كرب النّخلة) في ذراع كأنّها الكربة (أصل العسيب) فو الله إن تسبق عيني إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها[1].

إنّما أنا، يابُنَيّ، راوية، ولا دخل لي فيما أروي، أبادر بهذا القول حتى لا تتّهمني بالتحيّز، وإن كانت هذه حال الرّجل مع ابنته وابنه فقد لا تكون حال غيره مثله، فالله خلق الخلق، ونوع طباعهم.

وليس صاحب القول الذي مرّ هو الوحيد في مدح البنات، فالذين يمدحونهنّ كثيرون، والمدح الآتي له ظرفه، فهو تهنئة بمولودة، فالمدح هنا يشتمّ منه رائحة تخفيف وقع الخبر على من توقّع ولادة ولد، ولكن رزقه الله بنتا. وخطاب التهنئة طويل

(١) الامتاع والمؤنسة، ٣/١٤.



سوف اجتزئ منه بعضه، وهو ما يلي:

أهلا وسهلا بعقيلة النّساء، وأمّ الأبناء، وجالبة الأصهار، وأولاد الأطهار، المبشّرة بأخوة يتناسقون، ونجباء يتلاحقون:

فلو كان النّساء كمثل هذي
لفضّلت النّساء على الرجال
فما التأنيث لاسم الشمس عيب
ولا التذكير فخر للهلال

وإذا كانت العبارات يجمّلها الترادف ويوضّحها، والبيت لا يكمل إلا بشطريه، فسوف نوجد توءما يلي ما ذكرناه عن البنت، ولو وجدنا ثالثا لنصبنا فوق هذه الأثافي قدر مدح النّسوة، فلهنّ في أمر القدور حظّ وافر، أعانهنّ الله.

يقول عمارة بن عقيل، في شعر رقيق، يشرق فيه الحنو وحرارة العاطفة، وتبتسم فيه العبارات، وتضحك الكلمات، خاصة كلمتي «الأنيف

(١) زهرة الآداب، ص ٦٤.

الأكشم». لو عشتَ في زمن والدك في الماضي، يا بُنَيّ، لسمعت الصّغار يتحدثون عن «الطزقا الكشاء»، وهي أحد كعاب اللعب المتدنّية في قيمتها، لأن الزّمن في الغالب جارَ عليها، وجذّم أطرافها الناتئة. ولسمعت الكبار كثيرا، من باب التمليح، يصفون أنف الرّضيع «بالأفينس» تصغير أفنس، وكل طفل أفنس. وكلمة «ساطه» كلمة لها موسيقى في آذان جيلنا، لأنّها كلمة متداولة، وفي استعمالها ذكريات لجيلنا، فالأم تسوط «تحرّك» «مدودة»[1] البقرة، وتسوط «الدّويفة»[2]، وكثير من جيلنا سيقول: آه على الدّويفة، رحم الله زمانها. ولقد حاول بعضهم، بعد أن توفّرت النّعم أن يعيد طبخها، وهيأ لها كل أسباب الطّعم الغني اللّذيد، بتكثير اللّحم، وتنويع الخضروات، إلّا أنها لم تأت باللّذّة التي كانت تأتي بها في ذلك الزّمن، لأنّها فقدت عناصر مهمّة، فقدت الشّباب، والجوع،

(١) نوى التمر، يغلى حتى يلين، يقدّم للبقرة، ويعتقد أنه مدرّ للحليب.

(٢) أقرب وصف لها الحساء، أو الشربة.



وهـــذان عنصران مهـــمّان للشّهيّـة، والاستمتـاع بالأكل. وقد تسمع من أحد الكبار كلمة «هؤلاء العيـال ساطـوا المكان» أو «حاسوه»، بمعنى أنهم قلبوا رأسه على عقبه. هذه الكلمات لها صدى، ولها نغمـة خاصـة، يا بُنَيّ، عند جيلنا. والآن اسمع الأبيات يقولها عمارة بن عقيل، والد البنت:

حبّك ياذات الأنيف الأكشـم
حبّ تسـاقـاه مشاش أعظمي
ودبّ بين كبــدي ومحـزمــي
وســاطـه الله بلحـمي ودمـي
فليس بالمـذاق ولا المــكـتّـم
ولا الـــذي إن يتقـــادم يسـأم
لقد نزلت من فؤادي فاعلمي
منـزلـة الشيء المحب المكرم[1]

وحتى لا نترك الأبناء، يا بُنَيّ، دون أبيات شعر (جبر خاطر) أسوق إليك هذه الأبيات (لاحظ، يا

(١) الأمتاع والمؤانسة، ٢٢٢/١ .

بُنيَّ، «أسوق» هذه، كأني أسوق إليك قطيعا من المواشي، ولعلها إبل، أو مئات من الأغنام، وبصرف النظر عن هذا التعبير، وما فيه من استعارة، فالأبيات جميلة، وخفيفة ظلّ، وراقصة، تتناسب مع الظّرف الذي قيلت فيه، إحفظها جيدا، فسوف تحتاج لها لابنك، وابن ابنك، إن شاء الله تعالى، وهي لأعرابية، ترقّص ابنها:

كأنّما ريح الولد ريح الخزامَى بالبلد
أهكذا كل ولد أم لم يلد قبلي أحد[1]

والبنت في بعض المجتمعات قبل أن «تتخفّر»، وتحتجب عن الغريبين عنها، ومن هو غير محرم لها، يُدار بها، في زفّة، في حيّها وبعض الأحياء المجاورة، وكأنّ هذه إشارة إلى بلوغها سنّا يؤهّلها للزّواج بعد أربع أو خمس سنوات من الزفّة. فهذا تذكير لمن يهمّه الأمر الآن أو فيما بعد. وتبقى البنت

(١) صاحب المحاسن، خلاف المتواتر، ينسبها لأعرابي.
المحاسن والمساوىء، ص ٥٤٦. ولمزيد مما ورد عن الابناء راجع كتاب نزهة الالباء في طبقات الادباء، لابن الانباري، ص ١٣٥، وما بعدها.



في البيت تساعد أمّها وتتعلّم منها أصول الطّبخ، وتتـدرّب على الخياطة التي تعتمد على جهد اليد، وتتبارى البنات في إتقان خبز الخبز في التنّور. لأنه فنّ يحتاج إلى مران ومواظبة.

وعلى العموم مؤهّلات البنت للزواج من أهمّها إجادة أعمال البيت من طبخ وكنس، وترتيب، أما التّعليم في ذلك الزّمن فلم يكن مهمّا البتّة. وتبدأ البنت بمساعدة أمّها في البيت منذ الصغر، وتتحمّل جزءً كبيراً منه تحت إشراف أمّها، وقد يكون من بين ذلك تكسير الحطب الذي يلعب دوراً كبيراً في حياة النّـاس. وجلب الماء إن كانت العائلة فقيرة عمل يومي، لأنّ الماء لا يُستغنى عنه، ويُستهلك في كل الأوقات. ولهذا فالبنت لا يحزن أهلها عند ولادتها، وإن كانوا يفرحون بالولد.

ومشط شعر البنت يأخذ وقتا، وتطويل الشّعر والعناية به مجال تفاخر بين البنات، وإذا لم يكن بين ربّات البيت من لديها الوقت والجهد لهذا، فهناك

المشّاطات المعروفات بإتقانهنّ هذا العمل، ويأخذن عليـه مكـافأة مجزية، و «الفَرقة» التي تقسم شعر الـرأس قسمين هي القاعدة في مشط الشّعر، تأتي «الجدايل» الضّفائر بعدها على جانبي الرأس، بعد أن يشبـع «بالحنّا» أو «الوردة» وتبقى «الجدائل»، الضّفائر، أيّاما قبل أن تُنقض وتعاد من جديد.

ولا تخرج البنت الغنيّة من البيت بعد أن «تخفّر» إلّا بعد الزّواج، وإذا اضطرّت للخروج فتخرج مع أهلها أو محرم لها في اللّيل. ولا يراها في البيت إلّا أقاربها أو من يختلط من النّساء بعائلتها. وتجد من تريد خطبتها صعوبة في رؤيتها بعد أن بلغت، وأصبحت في سنّ الزواج، ولا بدّ من حيلة متقنة من الخـاطبـة ليتمّ لها مرادهـا في الرؤية، وأحيانا يتيحـون ذلك الأهل بطريقة لا تشعر بها البنت. والزّواج عادة يتم بطريقة مبسّطة: إذا اتّفق الطّرفان على إتمام الزّواج، يرسل أهل الزّوج «الجهاز» وهو عبارة عن أثاث كامل تقريبا، ويحاولون إرساله في



الليـل ما أمكن حتى لا يصير عرضة لمتابعة أعين المتطفّلين. ويكون عماده فراشاً، وبعض الأقمشة.

والحفل للعرس هو للنّساء والأطفال، تدار فيه كؤوس اللّيمون أو الاترنج. ويجتمع الرّجال بعد صلاة العشـاء في قهـوة بيت والـد العروس لفترة قصيرة، ثم يأخذ والد العروس العريس إلى حيث زوجته، وتكون في الغالب في غرفة في الطابق الثّاني من البيت، وقد قسمت عدة أقسام «بأردية» ملايات تَجعـل الغـرفـة عدّة أقسـام. والهدف منها اختفاء العـروس في أيّ منهـا، والخـروج من واحدة إلى أخـرى، والعـريس يبحث عنهـا، وهي تختفي، ويصبـح الأمر مطاردة حتى يجدها. و «الملاك» أو «الملكة» الإِملاك عادة يتم في تلك اللّيلة بعد صلاة العشاء في قهوة بيت والد العروس. وهناك «بيّاعة» أو «ربعيّة» تقوم على خدمة العروس والعريس في تلك اللّيلة، فهي تسهر في غرفة قريبا منهما أو تنام في مكان قريب، وهي التي تخدم العروس في تلك اللّيلة وتقـدّم للعريس طعام الافطار في الصّباح.

وتصبّ القهـوة والشّـاهي للعـريس عندما تذهب العروس للسّلام على أهلها في الصّباح في جزء آخر من البيت. و «الربعيّة» أو «البيّاعة» تكون عادة من الخـادمـات القـريبـات من العروس، تعرفها منذ الصّغر، وقد تكون هي التي ولّدتها.

ويبقى العـريس مع زوجتـه عنـد أهلها سبعة أيام، وقد تقلّ قليلا، قبل أن «ترحل» إلى أهله، أو بيته إذا كان لا أهل له، أو مستقلّا عن أهله في بيت خاصّ به، وقد تنتقل إلى بيت فيه زوجة أولى، وقد تكـون في بيت خاصّ بها، فلا تكون مع الزوجة الأولى في بيت واحد. والزوج في الأيام السّبعة التي يقضيهـا في بيت أهلهـا معهـا يكـون محلّ الرّعاية التّامة. يخرج في الضّحى إلى السّوق ويزور أهله، وبعد صلاة الظّهر أو قبلها يعود إلى البيت، وبعد الظّهر يكون مع والد العروس أو مع أخيها في قهوة البيت حتى أذان العصر، و «يفيض» بعـد صلاة العصر، ويمـرّ بالسّـوق وقـد يجلس عنـد أحـد أصحاب الدّكاكين الذين يعرفهم، حتى يحين وقت



وجبة العشاء قبل أذان المغرب، ثم يذهب إلى الصّلاة، وقد لا يعود إلى البيت إلاّ بعد صلاة العشاء.

والعادة أن يولم والد العروس لأهله وأصحابه وأهل العريس ومن يرغبون دعوته، في عصر اليوم التالي للزّواج. ويولم العريس بعد الرّحيل في بيته. ولا يختلف الأمر بين زواج وزواج أو تصرّف عريس وعريس، إلاّ في بعض التفاصيل التي لا تلمس الجوهر. وتأخذ العروس وقتا قبل أن تزور أهلها.

والطّرائف حول الزواج في الماضي قد لا تكون كلّها مما يمكن أن يدوّن، وقد مرّ بك قصّة الذي أخذه والده من الشّارع وهو يلعب، في حين أنّ زواجه كان بعد صلاة عشاء ذلك اليوم. ومما يُقصّ في ذلك الزمّان عن الزّواج أن أحد العرسان سأله «المملِّك» عما إذا كان يقبل الزواج من فلانه، فكان رده:

«إذن لماذا تركت أمي تروس بدالي». هذا



يدل على أنه لم يترك عمله المهم في الحقل إلا لهذا الأمر، فكيف غاب عن الشّيخ هذا الأمر، مما أوجب سؤاله!!

وآخر على نمط هذا عندما سأله الذي جاء ليعقد لهما الزّواج وقال له: «هل تقبل الزّواج من فلانه؟»، قال العريس: «أفّ» دليل التلهّف، وأنّ الأمر لا يوجب السؤال فلم يملك نفسه المملّك من أن يهمس لمن بجانبه قائلا: «لم أعلم أني أملكّ ثورا». لأنّ كلمة «أفّ» صوت يخرجه الثّور من أنفه عندما يربض من التّعب، أو يُؤذَى فيهيج.

ولعلّك تتطلّع، يا بُنَيّ، إلى شيء عن الزّواج: قصّة أو ما يماثلها وقد لا يكون ما يتداوله العامّه مناسبا للتّدوين، ولأنّ حديثنا كان عن الزّواج في القديم القريب، فمن العدل أن «نَعدل» الكفّة، ونتحدّث عن شيء يتصل بالزّواج في القديم البعيد، وأرجو أن يكون مقبولا منك، وأن تحفظه، فهو يتسحق ذلك:



حدّث رجل من بني ذهل بن ثعلبة قال :

شهدت شبيب بن شيبه بن الأهتم، وهو يخطب إلى رجل من الأعراب بعض حرمه، وطوّل في خطبة النّكاح، وكان للأعرابيّ حاجة يخاف أن تفوته، فاعترض الأعرابيّ على إطالة شبيب للخطبة، وقال له: «ما هذا؟ إنّ الكلام ليس للمتكلم المكثر، ولكن للمقلّ المصيب. وأنا أقول: الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمد، سيّد المرسلين، وخاتم النبيّين. أمّا بعد: فقد أدليت بقرابة حقّا، وعظّمت مرغبا، فقولك مسموع، وحبلك موصول، وبَذْلك مقبول، وقد زوّجناك صاحبتك على اسم الله تعالى»[1].

هذا ما ورد عن خطبة النّكاح، وهي مقدّمة الزّواج، فاسمع شيئا عن خطوة تالية، ولعلها قيلت

(١) نزهة الألباء، ص ١٤٤ .



للبنت قبل مغادرة العروس بيت أهلها، راحلةً إلى بيت زوجها:

كانت نساء العرب يعلّمن بناتهن اختبار الأزواج، تقول المرأة لابنتها: اختبري زوجك قبل الاقدام والجرأة عليه، وانزعي زجّ رمحه، فإن سكت على ذلك فقطّعي اللّحم على ترسه، فإن سكت فكسّري العظام بسيفه، فإن صبر فاجعلي الإكاف (البرذعه) على ظهره فامتطيه، فإنّه حمارك[1].

وحتى لا ندخل فيما يقال عن «الحموات» وعدائهنّ للرّجل، وافساد العلاقة بين بناتهن وأزواجهن، نعدل الكفّة هنا بنقل ما روي عن أمٍّ عاقل، توصي ابنتها، وهي وصيّة تكتب، كما يقال، بماء الذهب، لرجاحة العقل فيها، وحسن المنطق، والإحاطة بأسباب سعادة الزّوجة. ومن حسن الحظّ

(١) المراح، ص ٣٥٥.



أنّ هذه النّصيحة هي المشهورة. أما الأولى فلا يعرفها إلا أناس قليلون:

أي بنيّه! إنّك فارقت بيتك الذي منه خرجت، وخلّفت العشّ الذي فيه درجت، إلى وكرٍ لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فاحملي عنّي خصالا عشرا، تكن لك ذخرا:

اصحبيه بالقناعة، وعاشريه بحسن السّمع والطاعة، وتعهّدي مواقع عينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشمّ منك إلا أطيب ريح، واعرفي وقت طعامه، واهدئي عند منامه، فانّ حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

ثم اتّقي مع ذلك الفرح أمامه إن كان تَرحا، والاكتئاب عنده إن كان فَرحا، فإنّ الَخصلة الأولى من التّقصير، والثّانية من التكدير. وكوني أشدّ النّاس له إعظاما، يكن أشدّهم لك إكراما. واعلمي أنّك لا



تصلين إلى ما تحبّين حتى تؤثري رضاه على رضـــاك، وهـواه على هواك، فيـما أحببت وكرهت، والله يخيرّ لك.

أظنّ أنّك توافقني على أن ما قدمنا في هذا المجال كاف، وأي طلب منك لزيادة تضاف إليه تدخل في باب الـطّمـع، وفي هذا الباب عندي لك قصتان أحداهما أبلغ من الثّانية في الطمع، وستكونان نهاية ما سأقوله في هذا الباب، هذا ان وافقت، وإلا زدتك.

دخل أزهر السمّان على الخليفة أبي جعفر المنصور فشكا إليه الحاجة،وسوء حاله، فأمر له بألف درهم. وقال له: «يا أزهر لا تأتنا في حاجـة أبـدا. قال أزهـر: «أفعـل يا أمـير المؤمنـين». فلمّا كان بعـد مدّة قصيرة عاد، فقـــال له الخليفـة: «مـا حاجتـك؟» قال: أزهـر: «جئت لأدعـو لأمير المؤمنين». قال الخليفة: «بل أتيتنا لمثل ما أتيت». فأمر له



بألف درهم، وقال: «يا أزهر، لا تأتنا ثالثة، فلا حاجة لنا بدعائك». قال أزهر: «نعم»، فلم يلبث أن عاد، فقال له الخليفة: «يا أزهر، ما جاء بك؟»، قال أزهر: «دعاءٌ كنت سمعته منك أُحِبّ أن آخذه عنك». فقال الخليفة: «لا تردّده فإنه غير مستجاب، وقد دعوت به الله، جلّ وعزّ، أن يريحني من رؤيتك، فلم يفعل»[1].

وقصة طمع أخرى، فيها من التدرّج في الأخذ ما في الأولى:

دخل أبو دلامة على الخليفة المنصور، فقال: «يا أمير المؤمنين تأمر لي بكلب صيد؟». قال: «اعطوه». قال أبو دلامة: «كلب بلا صقر؟» قال: «اعطوه صقرا». قال أبو دلامة: «كلب وصقر بلا صقّار؟» قال: «اعطوه غلاما صقّاراً». قال أبو

(١) المحاسن، ص ٥٨٦.

دلامة: «فلابدّ لهم من دار» قال: «اعطوه داراً» قال: «فمن أيّ شيء يعيشون؟» قال: «قد أقطعتك أربعمئة جريب، منها مئتا جريب عامر، ومئتان غامر». قال أبو دلامة: «وما الغامر؟» قال: «الخراب». قال أبو دلامة: «فأنا أقطعتك أربعة آلاف جريب بالدّهناء غامرة». قال الخليفة: «فقد جعلتها كلّها عامرة، فهل بقي لك شيء؟». قال أبو دلامة: «نعم، تدعني أقبل يدك». قال: «ليس إلى ذلك سبيل». فقال أبو دلامة: «ما منعتني شيئا أهون على عيالي من هذا»[1].

قلت قبل قليل إنّ هذا آخر ما نويت أن أحدّثك به في هذا الشأن، هذا إن اكتفيت، وإلّا زدتك. وقد تقول بسهولة ويسر، ودون تفكير وتروّ: زدني!

(١) المحاسن، ص ٥٨٧.



معتمدا على أنّ الزيادة ستستمر في قصّ القصص الممتع، ولم يخطر ببالك أنيّ قد أعمد إلى شيء يحتاج هضمه إلى طحن الأسنان، ويحتاج استيعاب معانيه، وتدبّر مراميه، إلى كدّ الذّهن وشحذه، وتبصّر العقل وتركيزه، وهذه العجلة منك في الحكم، وهذا القفز إلى النّتائج، قريب إلى ما عهدته منك من التسرّع في الأجابة، والعجلة في الرّد عند سؤالك، ولا بد من معالجتك عن هذا، وتطبيبك عن الوقوع فيه، وتعويدك التروّى، وتجْيب فضائله إليك. لهذا سوف أعمد إلى غير القصص مما يحتاج استيعابه إلى تفكير عميق، وتملّ متمهّل. ولا شك أنّك سوف تجد في هذا فائدة عظمى، ومزيّة فضلى، إذا تبصرت فيما سأقوله لك، والمهمّ أن تصبر على تتابع الأفكار عن هذا الأمر، ولن أحرمك في ثنايا حديثي من بعض ما يروّح عن ذهنك، ويدخل السّرور إلى نفسك، والبهجة إلى صدرك، والغبطة إلى قلبك، ويبعد عنك الملل، فإلى ذلك والله المستعان، ومنه التّوفيق.

ستجد - يا بُنَيّ - بالتّجربة الطويلة، عندما يمتدّ بك العمر إن شاء الله، أنّ هناك أربعة أمور لها نتائج محتّمة، وقد يكون سبب ذلك أنّ بينها من الوشائج الروحيّة القويّة، والصّلات الخفيّة ما يجعل الحدث فيها والنّتيجة متصلين. ما عليك - يا بُنَيّ - إلّا أن تفتح عينيك جيّدا، وتشحذ ذاكرتك، وتعمل عقلك، وسوف تجد صحّة ذلك، وتراه واضحا أمامك، فيعجبك، ويدهشك، ويطربك.

أحد هذه الأمور الأربعة: «النيّة» التي تسبق العمل، أو القول، ومحلها القلب، مخزن الأسرار، ومستكنّ الخواطر، ولا عبرة بما يظهره المرء أمام قوله وعمله مما قد يكون أخفى خلفه حقيقة ما يضمر. وقد قال الرّسول ﷺ عن النيّات: «إنّما الأعمال بالنّيات، وإنّما لكل امرئ ما نوى» إلى آخر ما جاء في هذا الحديث الجامع من تفصيل أنت تعرفه جيدا، لأنّك درسته في المرحلة الأبتدائية، وليس هناك تلميذ في المملكة العربيّة السعوديّة لا يعرفه، ولعلّ هذا الحديث من أول ما يعرفه الدّارس في



المملكـة. وأهميّتـه تعـطيـه هذه المنزلة من المعرفة المبكّرة، والألمام الجيّد المتمكّن، فقد حظى باجماع العلماء على صحّته، وبما لا يكاد يماثله حديث آخر في قوة السّند، وتعدّد الورود في الصّحاح.

وأهميـة النيّة - يا بُنَيّ - تأتي أيضاً من أنها الأمر الذي يبقى بين العبد وربّه، مهما أظهر المرء للنّاس، وزوّق ودلّس، ومهما دار واحتال، وأوهم بما يظهر، وما ينشر بينهم، فالحقيقة التي في نفسه تبقى معروفة لخالقه، والانسان يعلم هذا حقّ العلم، ويبقى في نفسـه من اخفـائها إذا كانت النيّة سيئة ما يصبح مصـدرا لقلقه، ومنبعا لألم ضميره، ومجلب راحة وطمـأنينـة إذا تطابق الظّاهر مع الباطن، أو كان الأخفاء لوجه الله الكريم.[1]

كان آباؤنا - يا بُنَيّ - يقولون: «أَعطى الله فلانا على قدر نيّته»، إذا تبينّ لهم أن نيّته كانت حسنة،

(١) قال ابن السماك لأصحاب الصوف ممن يلبسون هذه الثّياب زهداً: والله لئن كان لباسكم وفقا لسرائركم لقد احببتم أن يّطلع عليها النّاس، وإن كان مخالفا لها لقد هلكتم. العقد الفريد، ٢/٣٧٣، وتأديب الناشئين ١٧٣.



وجـاءت النتيجة حسنة. ويقولونها كذلك لمن ناله شر، إذا اكتشفوا أنّ ذلك بسبب نيّته السيئة، المعلنة من أوّل الأمـر استهتـارا، أو كشف مخبؤهـا بعـد ذلـك. وكـانـوا يقـولون: «النيّة مطيّة»، أي دابّة توصل صاحبها إلى ما قصده، إن خيرا فخير، وإن شراً فشر. وكـانـوا لذلـك، يحرصـون على إضمار حسن النيّـة، أو اظهارها مطابقة للعمل خوفا من مغبة شرّها، وطمعا في جني خيرها، لأنّهم وجدوا بالتّجربة سرعة ما تأتي به النيّة، وما يحصدونه منها حسب منجل الحصد. وقد تأكّدوا من هذه النتيجة بوجهيها بعد طول مُراقبة، وحسن تدبّر، وعمق في الأستقصاء والتّتبع والتّفكير، وبهرهم ما خرجوا به بعد ذلك من صدق ما توقعوه، وصحة ما لاحظوه، رأوا صاحب نيّة طيّبة، تزدهر تجارته أو زراعته أو صنـاعتـه رغم ما قد يبـدو في أعـماله من سذاجة ظاهرة، وسطحيّة واضحة، وغفلة متناهية أحيانا. ورأوا آخر يخفق رغم دهائه، وعمق تفكيره، وبعد مكره، وتفنّنه في حيله، وتهيؤ أسباب النّجاح، في



الظّاهر، فيما يزاوله، ولا يجدون سببا لنجاح هذا رغم غياب مقوّمات النّجاح عنه، وإخفاق ذاك رغم توفّر أسباب النّجاح له، إلاّ ما قد يكتشفونه من حسن نيّة، وصدق سريرة امتاز بها هذا تجاه من يتعامل معهم، واخلاصه إيّاها مع الله ولله، وسوء نيّة ذاك وعدم اخلاصه النيّة، وتصرّفه كأن الله لا يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصّدور، تعالى الله عن هذا علوّا كبيرا.

لهذا - يا بُنَيّ - كانوا يشدّدون في تربيتهم لأولادهم على تعليمهم وجوب صفاء النيّة، واخلاصهم أيّاها لله، وجعله رقيبا على ما يظهرون ويبطنون، والحرص على أن تتماشى النيّة مع العمل، ويبصّرونهم بالفوائد والعواقب، وسرعة حصد النّتيجة في كلا الحالين. فكان مجتمعهم - يا بُنَيّ - سالما من كثير من الآفات التّي تجلبها النيّة السّيئة، مما جعل معيشتهم تتّسم بالاطمئنان والسّلام نسبيّا.



ولعلّه مما يفيدك أن تحفظ بعض الشّعر الوارد في حسن ما يبطنه الانسان ويُسِرّه، ولا أحتاج أن أعيد ما سبق أن قلتُه لك وكرّرته عن فوائد حفظ الأشعار خاصّة في الحكم، يقول أعرابي[1].

وإذا أظهرت أمرا حسنا فليكن أحسن منه ماتسرّ
فمُسِرّ الخير موسوم به ومُسِرّ الشّر موسوم بشرّ

والأبيات صريحة فيما قلناه، وترسم بوضوح ما يدور في ذهن الشّاعر في هذا الأمر.

وصورة أخرى تمثل الجانب المختلف ينطق بها مالـك بن دينار. وقد تكلّم مالك بن دينار يوما، فأبكى أصحـابـه، من قوّة تأثير وعظِه، ثم افتقد مصحفه، فنظر إلى أصحابه، وكلّهم يبكي، فقال: ويحكم! كلّكم يبكي فمن أخذ هذا المصحف[2]

والأمـر الثـاني - يا بُنَيّ - فيما يجب الحذر منه، واتّقاؤه: الشّماتة بالنّاس، أو «الطِّنزة» أو «المُعايبة»

(١) العقد الفريد، جـ ٣، ص ٤٤٢ .
(٢) العقد الفريد، ٢/٢٢٨ .



كما تسمى أحيانا، وهي أن تعيب شخصا بما ابتُلي به، من مصيبة تنزل به، أو عيب خلقي فيه، لا يد له فيـه، وإنّما ابتلاه الله به لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، فالأعرج لم يختر أن يكون أعرجا، والأعور ابتـلي بفقـد عينـه مرغما، والأصمّ لو خيّر لم يكن ليُفضِّـل فقـد السّمع على وجوده، وهكذا في كلّ عاهة، ويكفي ما يمرّ بصاحب العاهة في كلّ يوم مما يذكّره بهذا النّقص، فإذا جئت أنت، وفتحت عليه بابا جديدا، يذكّره بعيبه، فمع اعتراضك على خلق الله، وتدبيره، جرحت أحد خلقه، وقد يكون عند الله وجيهـا، فيبتليـك الله بما عبته به، وقد يصبح عيبك يزيدعن عيبه بدرجات. ابتلاء الله من يعيب ما في غيره من نقص يأتي سريعـا كما أثبته التدبرّ، وأكّـدتـه المـراقبة الدّقيقة. وصغار السّنّ والشّبان عنـدهم ولــع - يا بُنَيّ - بهذا لجهلهم بنتـائجـه، والشّيـطان يجد في حبّهم لهذا العمـل مطيّة سهلة يركبهـا، ويـرجف بها عليهم، ويستخفّهم فيها، ويــرسم لهم صورا براقـة، تعميهم عما فيهـا من النّقـائص، ومـا تحدثـه من الآلام والمآسي. والمثل



العامّي يقول: «لا تِطنّز بأخيك يعافيه الله ويبتليك»[1].

والأمر الثالث - يا بُنَيّ - معاملة الوالدين، فمن أحسن معاملتهما وجد هذا سريعا في معاملة أولاده له، يكاد يكون ذلك حذو القذّة بالقذّة، فإن أساء إلى أبيه - نسأل الله السلامة - أساء إليه أبناؤه، في وقت هو في أشدّ الحاجة إلى الرّعاية والعناية به، لكبر سنّه، أو لعجزه، أو لمرضه، ولعلك تذكر قصّة الرجل العاق - وقانا الله وإياك من العقوق - الذي جرّ والده من رجله في ساعة غضب، وضيق عطن، وقلة تحمّل مسافة معيّنة من الشّارع، فلمّا بلغ حداً معيّنا منه نبهّه الوالد المجرور بأن يقف عند هذا الحد. لأنّه الحدّ الذي جرّ هو والده إليه، وإنه إن زاد عن هذا زاد ابنه عليه في المستقبل[2].

(١) يقول المتنبي:

وعذرتهم وعرفت ذنبي أنني عيرتهم، فلقيت فيه ما لقوا

وهو من قصيدته التي مطلعها:

أرق على أرق ومثلي يأرق وجوًى يزيد، وعبرة تترقرق

(٢) ان لم تخنّي الذاكرة فهي واردة في فيض الخاطر لابن الجوزي، على أيّ حال مثلها وارد في نشوار المحاضرة ٢٠١/٢ وجاء في هامشة عن مرجليوت بأنها أخذت من كتاب الأخلاف لارسطاطاليس.



ومثـل هذه القصّة قصّة رجل ملّ خدمة والده الـطاعن في السنّ، وتعب من رعايته، وضاق من نفقته عليه، فحمله في ساعة تذمّر وحنق، ووضعه في بستـان على حين غفلة من أهل هذا البستان، وسافر إلى بلدة بعيدة. ومرّ الزمن، ودارت الأيام، وشاخ الشّاب، وضاق به ابنه ذرعا، فحمله، ورماه في الصحـراء، طعاما للذئاب، وعرضة للهلاك، فزاد ابنه عليه عما كان فعله هو مع والده.

ورحم الله رجلا كاد أن يقع في مثل هذه الرذيلة، إلا أنّ الله تداركه بامرأته العاقل، التي جعل الله لها من فكرها وتدبّرها وصلاحها ما كان سببا في تفادي وقوع عمل هذا المنكر، وهو ما كاد هذا الرجل أن يقدم عليه مع والده:

كانـوا في سفـرتهم أربعـة: رجل وامرأته وابنه ووالده، ولم يكن بعيرهم ليحملهم جميعا، ولم تكن مؤونتهم لتكفيهم، فقـرّر الـرجـل أن يتخلّى عن والده في الصّحراء، فقالت له زوجته: «إن تركته فاترك ابنك معه».



وأصرّت على هذا الشّرط، ولم يكن ليفعل ما أراد أن يفعله دون رضاها، حتى لا تفضحه أمام أهله وأهلها، وقبيلته وقبيلتها، فاضطّر أن يتخلى عن فكرته، ويتراجع عن ارتكاب جريمته، بعد أن ذكّرته زوجته بأنّ ابنه إذا كبر لا محالة فاعل به ما فعله هو بأبيه، فكانت بهذا خيرا منه، وسببا في إبعاده عن الوقوع في شرّ مستطير، كان سوف يلاحقه ليل نهار حتى مماته. والله أعلم ما كان سينتظره بعد مماته من العذاب الشّديد.

فمن التّجربة المتكرّرة - يا بُنَيّ - إن بِرًّا وإن عقوقا، ومن المُشاهَد، إن ماضياً وإن حاضراً، وجد انتظام قاعدة معاملة الأبن لوالده بمثل ما عامل الوالد به أباه، والقصص في هذا تكاد لا تحصى عن الأبن البار أو الأبن العاقّ.

ولعلّك تذكر - يا بُنَيّ - قصّة الرّجل الذي كان بارّا بوالده، فلم يترك أمرا مريحا إلاّ أقدم عليه، مهما كلفّه الأمر، ولا وسيلة تمنع عنه الأذى والنّصب إلاّ



سارع إليها، مهما أجهده السّعي، وأضناه الجهد، وكلّفه ذلك من مال. كان برّه به وافيا، وَحَدَبِهِ وعطفه عليه مقدّما على كل شيء مهمّ في حياته.

ودارت الأيام، وأصبح الآبن أبا، وكبر في السنّ، وقلّ جهده، واحتاج إلى رعاية ابنه ومساعدته، فوجد في ابنه البار الحنون ما سبق أن زرعه في والده، مستويا على سوقه، مهيأ للحصد. لقد وجد من عناية آبنه به ما فاق عنايته بأبيه، لأن ابنه تنبّه إلى أمر يريح والده، ويبعد عنه الأذى، لم يتنبّه الاب له مع والده، وعزّ عليه أن فاته هذا البرّ بأبيه، وهو من حرص على توفير كلّ شيء يريحه، فدمعت عين الوالد، ولاحظ ذلك ابنه، وخشي أن يكون قد قصّر في حق والده، وذعر من دمعة والده وأجفل، وسأل أباه عن أسباب بكائه، فقال له أبكي مما فعلته الآن بي مما فاتني أن أقوم به تجاه والدي، وكان عملا نبيلا حقا، أبعد أذى حرارة الأرض عن جزء رقيق من جسمه وهو يتوضأ، وقال الأب إن هذا البرّ



الذي وفّقك الله إليه لم أتنبّه له مع والدي، وقد فاتني فعله.

وهكـذا - يا بُنَيّ - جنت اليد ما حصدت: في الدنيا راحة في البال، وطمأنينة في النفس، وامتلاء بالتقوى، وفي الآخرة - إن شاء الله - ما هو أكثر وأوفى.

تَصرُّفُ الابن مع والده - يا بُنَيّ -، وتقليب أوجه الأمور للبحث عما يريح ويسعد، ما هو إلا توفيق من الله: عرف النيّة فأعطى بقدرها، بل هو الكريم الذي إذا رضي أعطى فأغدق وأنعم.

والأمر الرابع - يا بُنَيّ - الظّلم، والظّلم - يا بُنَيّ - ظلمات: ظلمات لا تحدّها حدود، ظلمة في النّفس، وظلمة في العقل، وظلمة في التّصرف، وظلمة في المـردود، مهـما أظهـر الـظّالم للنّـاس من نور على السّطح، فداخله مظلم، وبئس لمن سكنه الظلام.

كان آبـاؤنا - يا بُنَيّ - يشدّدون على أمر الظّلم، ويؤكّدون على وجوب اجتنابه، والبعد عن شبهات



الـوقـوع فيـه، ويفضّلون أن يظلمـوا أنفسهم في الحقوق عن أن يظلموا أحداً، أو أن يحوموا حول حمى الظّلم، لأنّهم يعرفون سرعة نزول عاقبة الظّلم بالظّالم، ويعرفون أنّ الله مع المظلوم دائماً، لا يتخلّى عنه، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب. وبالتّجربة وجدوا أنّ الله، وإن أمهل الظّالم لفترة، فإنّه لا يهمله، بل يأخذه أخذ عزيز مقتدر. ولهذا كانـوا ينشِّؤون أولادهم على حبّ الانصـاف، ويخـوّفـونهم مغبّـة الظّلم والعدوان، ويروون لهم القصص المفزعة التي تُري نهاية الظّالم، سواء كان ذلك الظّلم من شاب لشاب، أو من امرأة لأمرأة، أو من رجل لرجل، أو من هذا لهذه، أو من هذه لهذا، وكانوا يشدّدون أيضاً، في القصص، على ما يتوقّع من ظلم امرأة الأب لأبناء زوجها الذين ماتت أمّهم أو طلّقت، ويـرسمـون صورا بشعة لنتائج الـظّلم هذا، ويـظهرون أنّ الزوجة الظّالمة لأبناء ضرّتهـا لا ينفعهـا، في المـدى الـطويل، إلا أولاد ضرّتها، خاصّة في شيخوختها، وهو وقت يكونون



فيه في غِنًى عنها، فلا تستطيع مجازاتهم على عطفهم عليها، فيكون برّهم بها عذابا لها وألما في الدّنيا. وقد يعقّها أولادها بما يفزعها، ويزيد في شقائها. وكانوا - يا بُنَيّ - يتفنّنون في هذه القصص، ويعدّدون نتائجها المرعبة، ممّا يجعلهم يصلون إلى التأثير المطلوب.

أو يكون الأذى من طالب في مدرسة، وهذا ما يهمّك الآن، يركب رأسه، ويتبع هواه، ويتذرّع بقوّة ما، سواء كان ذلك لأنّه أكبر من غيره سنّا، أو جسما، أو له أخ فيه هذه الصّفات، أو له مجموعة من زملائه تساعده على هذا التسلّط، فيذيق الآخرين ألوان الأذى، لجهله بنتائج عمله، فيسلّط الله عليه من لا يرحمه، ممن هو أكبر منه سنّا أو جسما، فيحدّ من قوته وآذاه وتسلّطه، ويكسر شوكته أمام من كان يتطاول عليهم، ويجعله أمثولة، فيتذكّر ما نبّه إليه من عواقب الظّلم، ويكون عبرة لغيره، ويأخذ درسا يفيده عندما يكبر وينضج، هذا إذا أراد الله له خيرا.



كان آباؤنا ـ يا بُنَيَّ ـ جيدين في العناية بأبنائهم، ومتابعة تربيتهم، كلٌّ بقدر إدراكه. وكانوا ينتهزون الفرص لتذكير أبنائهم وتبصيرهم بما ينفعهم، وتنبيههم إلى ما يضرهم، لا يدعون فرصة تمر إلا اهتبلوها، ولا يتركون حدثا إلا استفادوا منه. كان لديهم من الوقت ما يجعلهم يفكّرون في أبنائهم: يتابعون نموّهم، ويراقبون خطوهم، ويوجّهون سيرهم، ويقيلون عثراتهم قبل أن تغوص أقدامهم في الوحل بما لا يمكن معه انقاذهم. كانوا يقسون عليهم أحيانا ظاهرا، ولكنّهم باطنا يخالفون ذلك. قلوبهم لها رفيف من الخوف عليهم، ورفيف من العطف عليهم والحنوّ، ففي الوقت الذي يقول أحدهم «للمطوّع»: أو المدرّس في الكتّاب، وقد أحضر ابنه يجرّه من أذنه لمخالفة ارتكبها تجاه المدرسة: «لك اللّحم، ولنا العظم» أي اسلخه بالضّرب، حتى لا يبقى على جسمه لحم، إذا أخطأ، والطّفل المسكين يرتعش ارتعاش العصفور بلّله القطر، ولكنّ الوالد في الوقت نفسه يمسك بيد



«المطوّع»، ويبرز به إلى خارج المكان، وينفرد به، ويقول له: «إن الضّرب يميت القلب، ويبلّد الذّهن، فحاول أن تتجنّبه»، ويشدّد في هذا، لأنّه بلغه قسوة هذا المدرّس. فأوهم الابن شيئا، وأفهم المدرّس غير هذا، وحاز كلا الحسنيين، وأكمل عناصر التربية الصّحيحة.

أرأيت - يا بُنَيّ - كيف أحسن الوالد التّصرف في حدود امكانات زمنه العقليّة. قارن هذا بأب اليوم - وليس كل الآباء - يدخل على مسؤول في التّعليم، يحاسبه على خطأ ابنه، وهو لا يعلم ما اسم المدرسة، ولا السّنَة التي هو فيها، ولا يشعر باهماله الذي ارتكس فيه إلا عندما يظهر له ذلك أمام النّاس.

ولا ينتهي الحديث - يا بُنَيّ - عن المدرسة والتّلاميذ، ولا عن الرّوغان عن الدّراسة، ولا عن كذب الأطفال على الأهل في ادّعاء الذهاب إليها وهم لم يذهبوا، وبدلا من ذلك ذهبوا يلهون



ويلعبون، ويجرون خلف ما هو أكثر متعة، وأقلّ عناء، وقد لمسنا بعض هذا في أحاديث سابقة، ولعلّك تذكر التّلميذ الذي وضعه المدرس في «المشلّة» أو «الفلكة» أو «الجحيشه»، لأنه اكتشف أن عنده كليبا «جُريّ»، وأنه يذهب في بعض الأحيان لاطعامه وملاعبته، ولعلّه مما يزيد من معلوماتك أن تعلم أن التّلاميذ في زمن والدك وجدّك لم يختلفوا في هذا عن زمن من سبقهم بمئات السنين من أجدادهم، فليس زمنهم مثل زمنكم تتغيّر فيه ملامح التّعليم واللّعب بسرعة، نتيجة لسرعة النّمو والتّطوّر، فزمنكم تغيّر فيه التّعليم وطرقه ووسائله وامكاناته، وتغيّرت المدن ووضعها.

إليك صورة من هذا النوع الذي لم يتغيّر فكما كان في زمن أبيك وجدّك كان في زمن القاضي شريح:



كتب شريح القاضي إلى معلم ابنه عن هذا الابن[1]:

ترك الصلاة لأكلب يسعى بها
يبغى الهراش مع الغواة الرجّس
فليأتينك غدوة بصحيفة
كتبت له كصحيفة المتلمّس
فإذا أتاك فعضّه بملامة
أو عظه موعظة الأديب الكيّس
فإذا هممت بضربه فبدرّة
وإذا بلغت بها ثلاثا فاحبس
وأعلم بأنّك ما أتيت فنفسه
مع ما يجرّعني أعزّ الانفس

أرأيت - يا بُنَيّ - إنّها رغم بعد زمنها تجرى مجرى ما كان يحدث قبل خمسين عاما في بلادنا. هذا ابنه يترك المبادرة إلى الصلاة، ليلهو بمهارشة الكلاب، وقتالها بعضها مع بعض، وهذه الكلاب لابد أنه هو

---
(١) العقد الفريد ٢/٤٣٥ .



وأنـداده كانـوا يتنـافسون في اقتنائها، ويسكّنونها الخرابات والأثول، يسمنّونها ويقوّونها، حتى تغلب غيرهـا في المهـارشة و«المهاوشة»، ويتلذّذون بهذه الرّيـاضـة المتـوحّشـة، ويتفكّهون بهذه الضّراوة العاتية، ويتمتّعون بهذه القسوة المتناهية، وينفقون على ذلك في الخفاء ما الله به عليم، فقد يقتطعون لها من غذائهم، وما أقلّه، ولا بد أنّ انتصار كلب على آخر فيه من الفرح والبهجة ما يعوّض عن كل تعب، ويجبر كل خسارة، فيهون الاجهاد، الذي بذلـوه في إخفـاء الكلب، وفي تغـذيته ومراقبته، وتـدريبـه. وهم - يا بُنيّ - يبذلون جهدا لو بذلوا ربعه في الدّراسة لتفوّقوا. يختارون له آسما يتناسب مع موسيقى سمـع الكـلاب، ويكون ذا هدف، لعلّك لم تسمع عن الذي سمّى كلبه، وقد وضعه في أثل مهجور، خارج المدينة، فلا يظهر الكلب منه إلا إذا نودي باسمه، واسمه «من ذا» أي من هذا، تصـوّر انسانا يمرّ قريبا من الأثل، فيستفسر عن مصدر حركة فيه بقوله: «من ذا؟» يعني «من المارّ؟»



أو «القـادم» أو «من هناك؟»، وتكون النتيجة أن يندفع إليه فجأة كلب شرس في هذه المقطعة.

وشريـح ـ كما رأيت ـ يكتب كتاباً يوهم ابنه بمحتواه، كما أوهم الملك عمرو بن المنذر المتلمس بأن ما في صحيفته ثواباً، وهو في الحقيقة عقاب. ويطلب شريح من المدرّس، وهو المربّي، وله هيبته مما يجعل تأثيره على التلميذ أكثر من أهله، أن يلومه لومـا قاسيـا، أو يعظه موعظة بالغة، وإذا أحوج الأمـر إلى الضّرب فلا يزيـد عن ثلاث ضربات، حتى لا يدخـل الأمـر مرحلة التعـزيز، والضّربة الأولى يضمن معها الخوف والرّهبة، والثانية تؤكّد الأولى، وتؤكّـد واقـع الجـزاء، وتوحي بأن جلدا متعددا مقبل، والثالثة فيها ألم الضّرب، وألم الخوف مما هو مقبل، وينتهي الأمر بها لفرحة المضروب. ولـو زاد الضّـارب على ذلـك على من هو في هذه السّنّ، فقد تبدأ الفائدة تنحدر، وتتلاشى، ويصير التّأديب غير ذي جدوى، ويدخل الصّبي مرحلة التحدّي والعناد، بل المفاخرة أحيانا. ولكنّ شريحاً



وهو يوصي المدرّس لم يستطع أن يخفيَ عاطفة الأب، فيسارع لهذا ويقول: إنّ ابنه، رغم ما يجرّعه إياه من الأوصاب والأزعاج، فإنه أعزّ الأنفس عنده، فعلى المدرّس ألا ينسى ذلك.

وعاطفة الأب - يا بُنَيّ - نحو أبنائه لها صفة محدّدة، تنبع من الصّلة التي جعلها الله بين الأب وابنه، ويأتي تصرّف الأب نحو ابنه مقيّدا بهذه الصّلة، ومصبوغا بصبغتها، وما ظهر من شريح نحو ابنه من غضبه منه لسوء تصرّفه، وهو بهذه السّنّ الغضّه حدّ منه حبّه له، وحنّوه عليه، لأنّه قطعة من نفسه، فهو غضب منه لحبّه له، وأدّبه حماية له لحبّه له. هذا معاوية بن أبي سفيان يمرّ بتجربة تستحقّ أن يوقف عندها، تمثّل مكنون الفؤاد من العاطفة الأبويّة للابن[1]:

أرسل معاوية إلى الأحنف بن قيس، وهو من هو في العقل والرّزانة، والتّجربة في الحياة، ومعرفة ما

(١) العقد الفريد ٢/٤٣٧.



يسكن قلب الوالد لولده، وما يعشّش فيه من رقّة وحنان، وما يغلّفه من نبضٍ طَرحُهُ جَلْب النّفع له، ودفع الضّرر.

فقال: يا أبا بحر، ما تقول في الولد؟

قال الأحنف :

ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، فإن طلبوا فاعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودهم، ويحبّوك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقيلا، فيملّوا حياتك، ويحبّوا وفاتك، فقا له معاوية:

لله أنت يا أحنف، لقد دخلت عليّ وإنّي لمملوء غضبا على يزيد، فسللتَه من قلبي» (يعني الغضب).

ولا حرج - يا بُنَيّ - في أن نستطرد قليلا هنا فيما فيه مصلحة لك، والاستطراد هنا دعا إليه أمر الاستشارة والمستشارين. والمرء - يا بُنَيّ - بمن



يستشير، وبمن يشير عليه، فعلى رزانة المستشار، وحسن قصده، وتجرّده من الهوى، وعمق تجربته، وسعة مداركه، ودقّة ملاحظته، تتوقّف أمور كثيرة على رأيه ومشورته، وتكون سببا في نوال القصد أو ضياعه:

كان أحد ملوك فارس يتّخذ له وزيرا حازما مجربا، وكان يصدر عن رأيه، ويرى اليُمن في مشورته، ثم إنّ ذلك الملك هلك، وقام بعده ولد له، معجب بنفسه، مستبدّ برأيه، فلم ينزل ذلك الوزير منزلته، ولا أهتبل رأيه ومشورته. فقيل له: إنّ أباك كان لا يقطع أمرا دونه. فقال: كان أبي يغلط فيه، وسأمتحنه بنفسي.

فأرسل إليه، فقال له: أيّهما أغلب على الرّجل، الأدب أو الطّبيعة؟

فقال له الوزير: الطبيعة أغلب، لأنّها أصل والأدب فرع، وكلّ فرع يرجع إلى أصله.



فدعاه الملك بسفرته، فلما وضعت أقبلت سنانير بأيديها الشّمع، فوقفت حول السّفرة، فقال الملك للوزير: إعتبر خطأك، وضعف مذهبك، متى كان أبو هذه السنانير شمّاعا؟

فسكت عنه الوزير، وقال: امهلني في الجواب إلى الليلة المقبلة، فقال: «ذلك لك».

فخرج الوزير، فدعا بغلام له، فقال: إلتمس لي فأرا، واربطه في خيط، وجئني به، فأتاه الغلام به، فعقده في منديل، ووضعه في كمه، ثم راح من الغد إلى الملك، فلمّا حضرت سفرته أقبلت السّنانير بالشّمع كالعادة، حتى حفّت بها، فحلّ الوزير عقدة المنديل، ثم ألقى الفأر بين السّنانير، فاستبقت إليه، ورمت الشّمع حتى كاد البيت يضطرم على القوم نارا.



فقال الوزير للملك: كيف رأيت غلبة الطبيعة على الأدب ورجوع الفرع إلى أصله.

قال الملك: صدقت. ورجع إلى ما كان أبوه عليه معه من الاستشارة، وقبول الرأي، فانّما مدار كل شيء على طبعه. والكلف مذموم من كل وجه[1].

ونعود - يا بُنَيَّ - إلى الأبناء، فنقول: إنّ العطف عليهم ورعايتهم قلّ أن يضيع سدى، فمردوده في الغالب محمود، وثمره يانع، وبرّ الأبناء بالآباء لا تحدّه حدود، وما دوّن منه لا يسهل حصره.

قيل لعمرو بن ذرّ: كيف بر ابنك بك؟

قال: ما مشيت نهارا قطّ إلا مشى خلفي، ولا ليلا إلا مشى أمامي، ولا رقى عِلّيّه (سطحاً) وأنا تحته[2].

(١) تأديب الناشئين ص ١٧٩، والعقد الفريد ص ٤ ج ٣.
(٢) العقد الفريد ٤٢٤، ٤٣١.

وهـذه الثّمـرة الناضجة تستحق كل ما صرف عليهـا، وأنفق في نمائها، من مال وجهد ووقت، وهي تأتي في وقت تكـون الحـاجـة إليهـا ماسّـة، والطلب ملحّا. وأجمل جانب فيها أن يجد الآبن لذّة في أن يقـوم بما يقـوم به منهـا، ارتفـاعـا بالخلق، واستجـابـة للأصـالة، وإرضاء للربّ، وأملا بأن يكون له من أبنائه ما كان له من أبيه:

هذا حيوة بن شريح، على علمه وفضله وعلوّ مقامه، يعقد للنّاس مجلسا للتّدريس، فتقول له أمّـه: قم ياحيـوه، إلق الشّعـير للدجاج، فيقوم[1].

ترى أي نشوة يشعر بها هذا الابن البار، وهو يستجيب لأمـر أمّـه، فيوقف عمله المهمّ، ويقوم ليعـطي الدّجاج الغذاء، ويعود إلى صحبه بنفس راضيـة. لقـد استجمـع في هذه اللحـظة حمله وفصاله، ورعاية أمه له، حتى استطاع أن يسبح في

(١) العقد الفريد ٢/٢٢٨ .



خضمّ بحر الحياة، غير خائف من غرق، أو التقام حوت من حيتان هذه الحياة متلاطمة الأمواج.

أي بُنَيّ !

أبعدنا بك قليلا عن فناء المدرسة الذي اقتربنا منه، ثم حذفنا تيّار الاستطراد بعيدا عنه، ولكن لا بأس بهذا، فنحن نتذكّر قول أردشيربن بابك: «إن للآذان مجّة، وللقلوب مللا، ففرقوا بين الحكمتين يكن ذلك استجماما»[1].

ونعود إلى المدرسة، ولعل عودتنا إليها لا تنفّرك، أو تضجرك، لأنّي أعرف أن ما يشدّك نحو المدرسة هو الحديث عن الاجازة، فلو كان الحديث عنها لارتسمت على شفتيك ابتسامة رضى، تمتدّ بعرض وجهك، وكانت سرج وجهك أضاءت شمعاتها كما لم تضئ من قبل، ولشفّت ملامحك عن أنّك سرحت بفكرك، وانتقلت من الرّياض إلى ساحل البحر في جدّه، أو في الخبر، وخضت البحر وبيدك

(١) العقد الفريد ٢/٢٥٩ .



سنّـــارتـــك، وأنت ترجـــو أن تعـــطف عليـــك السميكـات، وتـرأف بك، وأنت ضيفها، فتوقع نفسهـا، طوعـا واختيـارا وتشرّفـا، في طعمـك، ولـتركتني أتحدّث إلى نفسي، وأنا أظنّ أني أتحدّث إليك، وليس لي منك إلا عين ساهمة، وفم مزموم، وأذن منتصبة، ترى ولا تسمع، حواسّك عندي، وعملها هناك، وأنت كأنّك تمثال من شمع.

على أي حال، سأخرج، كالمعتاد، من حديث أرتضيه إلى قول ترتضيه. ما يرضيني هو نصحك وتبصيرك، وما يرضيك هو التّسلية والترويح. وما دامت أبواب إفادتك لا تفتح إلا بهذا المفتاح السّحري:

إذا لم يكن إلا الأسنّـة مركب
فما حيلة المضـطرّ إلا ركـوبهـا

ولستُ بدعـا في هذا، فشركات الأدوية فعلت هذا قبـلي، ولبّست الدواء بلباس حلو، ونجحت الحيلة، فأُخِذ الدواء برضًى، وجاء بالنفع.



الأولاد ـ يا بُنَيّ ـ في كل زمن، إذا خرجوا من المدرسة، أو اجتمعوا في أوقات القيلولة، وأهلهم نيام، يتسكّعون في الطّرقات، أو يجلسون في «القبب» أو في «المجبّبات» أو تحت شجرة أثل، أو سدرة، أو شجرة نيم، أو في ظلّ أحد البيوت، بحثا عن الظّل، والأماكن الباردة في الصّيف، وسبق أن رسمت لك صورة عن المبارزة، أو «المضاربة»، التي تكون بين تلميذين، وذكرت عن الفريق من الأولاد الذين يعضّدون هذا أو ذاك.
وسبق أن ذكرت لك الألعاب التي كان يلعبها أبناء زمن والدك، وجدّك وأسلافهم، وأريتك أنّ بعضها يحتاج إلى أدوات، وبعضها لا يستلزم ذلك، لأن أدوات هذه هي الأجسام، بمختلف أعضائها، وبعض هذه الألعاب التي لا تحتاج إلى أدوات يناسب لعبها وقت العودة من المدرسة إلى البيت، فيلعبونها وهم يسيرون، تساعدهم على قضاء وقت السّير ببهجة وحبور، بعد المدرسة، وما فيها من عناء في نظرهم. هذا السّير سير عجيب، ينحني



أحدهم، واضعا كفّيه على ركبتيه، فيأتي آخر من مسافة غير قريبة، يركض، ثم يقفز من فوق هذا المنحني، واضعا كفّيه على ظهره، حتى يساعده هذا على القفز، دون أن يتعثّر بجسم هذا المنحني، ثم يتبعه ثان وثالث ورابع حتى السّابع أحيانا، وتسمى هذه اللعبة «السبت سبّوت»، لأن القافز الأول يقول هذه الجملة أثناء القفز.

أما الثّاني الذي يأتي بعده فيقول: الأحد عنكبوت، والثّالث يقول: الاثنين «انبا انبا»، والرّابع: الثلاثاء «خط الصبيان»، والخامس: «الاربعاء «نتّافة الآذان»، والسّادس: «الخميس فرحتنا»، والسّابع: «الجمعة نكرتنا»، «إلْحَقهم يا ولد».

فإذا مرّوا كلّهم، بسلام دون أن يقع أحد، أعادوا الكرّه، ولكن هذه المرة بوضع «الطّواقي» أو «الكوافي» جمع طاقيّة وكوفيّة، فإن وقعت احداها جلس الذي أوقعها مكان الأول، وأعفى ذاك من التّعب، ومن ضرب الأكفّ على ظهره، وثقل



الاجسـام القـافزة. واختيار من ينحني الأوّل أمر ليس صعبـا، «فضرب القـرعـة» يسهـل كلّ أمـر صعب، وهم يلجؤون إليــه حكـــما في كثير من الأمـور، واجـراء القـرعـة يأتي في صور عديدة، أبســطها أن يأخذ أحدهم نواة تمرة، فيخبيء يديه خلف ظهره، ويضعها في إحدى يديه، ثم يبرزهما، ويسأل آخر عن مكانها، فإن أخفق معرفته أصبح هو المختار. (لاحظ أن النّوى متوفّر في الأرض من كـثرة أكـل النّـاس للتّمـر، واعتـمادهم عليـه في مطعمهم، فالأرض خاصة في نجد، ملآى به).

وفئـة أخـرى لعبها بالسنتها وعقولها، يقصّون قصصا، أو يلغزون ألغازا، ولكن قبل أن أدخل معك في هذا الجانب، ونجوس خلال دياره، أصف لك لعبة أخرى لا أدوات لها إلا أجسام اللاعبين، واسمها غريب لأنه لا يدل على معنى، ولا يحدّد لها منشأ، يقولون: «طبق زيزى، طبق حاس»، وان ظننّـا أننا عرفنا اتجاه معنى كلمة «طبق» لغة، فلا نفهم معنى: «زيزى» ولا «حاس».



يقف الشخصان متظاهرين، يلصق أحدهما ظهره بظهر الآخر، ويدخل أحدهما يديه تحت إبطي الآخر، ويلفّهما تجاه كتفه، وينحني هذا إلى الأمام، ويحمل الآخر على ظهره، ويقلّه عن الأرض، ثم يعود به إلى استقامة الجسمين، وتكرّر الحركة من قبل الشخص الآخر، انحناءة يقال معها «طبق زيزى» وأخرى يقال معها: «طبق حاس»، وتكرّر هذه الحركة عدّة مرات، حتى يتعب اللاّعبان أو يملاّ. وهي كما رأيت - يا بُنيّ - رياضة بدنية مفيدة، ولم يكن في تلك الأيّام سمنة إلا نادرا، ولهذا كان التكافؤ في الأجسام هو السّائد، وعلى هذا فالتّساوي في الوزن واحد.

وقد يكون اللاّعبون صغارا، وتكون ألعابهم متناسبة مع أحجامهم وعقلياتهم، وقد تكون بالقول، وقد تكون بالفعل، فالقول يقصد به «التعجيز»، يطلب أحدهم من الآخر أن ينطق جملة صعبة النطق إذا قيلت بسرعة مثل الجملة المحبّبة إلى الصّغار: «أفَسَنِسْتَنْبَكْتَ كَنِفْتَكَمُوهَا ان كنتم رجالا



فاعـرفوها» . أو تقود إلى شيء مضحك، أو مزلق مسلّ، وأحيانا يكون الهدف منها اظهار لثغة أحد الصّغار، فهذا يطلب من آخر، لثغته في نطق حرف السـين ثاء، أن يقـول: «سِتّي بَسَّتْنِي بَسَّه بَسِيْسَه بالعَسَل والسُّكّر والهَريسَه، ياخَسَارَه»، ولا تسمع من الآخـر إلا ثأثـأةَ بدلا من السـأسـأة، فينفجر السّامعون الصّغار ضحكا، وقهقهة، وتتّسع الدّنيا أمـام أعينهم فرحا، كأنهم حازوا الدّنيا وما فيها، مادامـوا نجحـوا في أن يوقعـوا زميلهم في شركهم الذي نصبوه له.

ومجمـوعـة أخـرى تطلب من أحد أفرادها أن يقــول: «الـشَّـشّــه تَنتِش التِّيس، والتِّيس يَنتِش الشّشّـه»، فتعرف أن من بين الموجودين أحد أبناء غامد أو زهران، حيث توجد الششة، وهي شجرة أقــرب إلى «الــدِّيــدُنيـا»، أو هي هي، ولعلهـا تستعمل للدّباغة أحيانا، فإذا أسرع الطّفل بنطقها تراكبت الحروف، وتحاسدت على مواقعها، وخطر أحدها أمام الآخر، فالتّاء تأتي في غير محلها، والسّين



تزاحم الشّين مكانها، والشّين تسبق السّين في النطق بها. وفي هذه الحركة وهذا التزاحم، لذّة لا تعدلها لذّة، تراها ماثلة في أعين الصّغار، وتلمحها في وجناتهم، وتسمعها في ضحكهم وقهقهتم، وصفق أيديهم، وقفز أجسامهم.

ولا تستغرب هذا - يا بُنَيّ - وليس عهدك ببعيد عندما كنت تقتنص الألغاز من الذين هم أكبر منك سنّا، وتأخذها إلى من هم في سنك، أو أقلّ قليلا، وتحاول أن تتعالى عليهم بمعرفتك لها، وعجزهم عنها، هل تذكر لغز: العنز والذئب وحزمة القت «البرسيم»؟ وكيف أنها اجتمعت في بئر، وتريد مني اخراجها على ألا أترك اثنين ممن أحدهما يصلح طعاما للآخر. فلا أترك العنز مع الذئب، ولا العنز مع البرسيم. وحاولتَ معي في أن أخرجها واحدا واحداً، وعندما بدأت بافتراض اخراج الذئب أولا، اعترضت، ونبهتني إلى أن هذا يعرض «القت» أن تأكله العنز، فأردت أن أخرج القت، فادركتُ أن الذئب سينفرد بالعنز فيأكلها، فوافقتني على أن أبدأ



باخراج العنز، ثم قلت لي ثم ماذا؟ فقلت: أعود واخرج الذئب، فقلت لي: «إذا عدت إلى البئر بعد اخـراجك الذئب أكل الذئب العنز خارج البئر، فقلت: «أعــودُ بالعنـز معي إلى البئـر» فوافقت، وعدت بالعنز، وتركتها بالبئر، ثم أخرجت القت، وطرحته أمام الذئب، فصدّ عنه، وعدت إلى العنز فأخـرجتهـا. وبقيت بين الثـلاثة أحرس هذا من هذا. وهكذا انتهيت من الأمر، وأنا الهث، وأنت تتفرّج. ولكنّي ربحت بعد إعمال الفكر.

وما دمنا بصدد ذكر بعض ما تمضون به وقتكم هذه الأيـام، فمن المـلائم أن أذكر ما تحاولون أن تظهـروا فيـه عجز بعضكم، وتعتمدون في ضوء ثقافتكم على الكتابة، والتّصرف في اخراجها، حتى تتمّ لكم الحيلة. يسأل أحدكم آخر أن يقرأ له هذه الجملة: «يـدهـر التـوت»، فيحتار الآخر، كيف يُدْهِرُ التُّوت! هل معناها أنه مرّ على التوت دهر، إن الجملة لا تعني كثيرا، ثم يتبينّ أنّ الالغاز والحيرة جاءت من تقريب كلمة «هر» عند «يد» فبدت كأنها



«يُـدْهِر»، وهي في الحقيقة «يَدُهِرٍ الْتَوتَ»، وبهذا يتجلَّى الأمـر وتتّضح الصّورة، وينتهي العجب، وتعرف الزاوية التي جاء عن طريقها الختل.

ومثلهـا جملة تلقـونها على الـورق صامتـين، وتطلبون قراءتها، وهي: «مدبر بلك»، وعندما يحتار القارئ في قرائتها قراءة تعطي معنى مفيدا، وعندما تؤتي الحيرة ثمارها، يأتي الحلّ في تشكيل حروفها، ووضع الكلمات في مواضعها، فيتبين أنها: «مُدُّ بُرٍّ، بِكَمْ ؟».

وسبق أن قلنـا: «إن القِدْر لا ينتصب إلا على ثلاث»، فلابـدّ الآن من لغـز ثالث، تطمئن به نفسـك، خاصـة وأننا نعدّد ما يدخل في زمنكم، وعصبيّتكم، مثـل عصبيـة غيركم في زمـانهم، تجعلكم لا تتنازلون عن حقّكم فيما يخصّ زمنكم، ولا بدّ من أخـذكم له وافيـا، إذاً لا بدّ من اللغز الثالث، وليس عليّ جهد في هذا، فأنت مصدري في كثـير مما أقول، ولم تقصّر في اطلاعي على هذه الطُّرف، ولم تتوان في الاعادة والتّكرار، وطالما كنتُ



سبورة لك، تعرض عليها وسائل إيضاحك قبل أن تعـرضهـا على الآخـرين، وطـالما غلبتني في عمق الايهـام. وأصبـح مكـاني من الحلّ بعيدا، وطالما كانت حيرتي مصـدر رضى وارتياح لك، ولعلّك بهذا تضع في كفتك ما يعدلها مع ما سبق أن رجحت به عليك.

واللّغز الثالث يجري على منوال آخر يختلف قليلا عن اللّغـزين السابقين، وهو: «ابعدهاب»، وكما ترى على أي صورة أتـيت بها، وعـلى أيّ منحى قلبتهـا، ما يتـأتّى معـك الحلّ، ولا يطاوعك لها معنى، وهي يسيرة إذا ما سُهّـل حزنها، وليّنة إذا ما لُيّن صعبهـا. وحلّهـا في كتَـابتها بطريقة أخرى، وهذه الطّريقة وجهها كالآتي: «أَلِفٌ بَعْدهَا بَاءٌ»، أرأيت سهولتها عندما وضّحتها لي أنت، وقبل ذلك وقعت معـك فيهـا في حيص بيص. (اِبحث عن حيص بيص في القـواميس، وفي كتب الأمثـال، وأرجو ألاّ تقع معها في حيص بيص، وإن لم تجدها في حيص فابحث عنها في بيص).

ونعود ـ يا بُنَيّ ـ إلى الالعاب البسيطة السّهلة التي تتناسب مع سنّ الصّبيان الصّغار، حتى لا تنقطع صلتنا بالألعاب. وهذه المرة ستكون اللّعبة بين اثنين، يبسط أحدهما يده الشّمال، ويضع عليها بسطا اصبعين فقط الخنصر والشّاهد، ويكون الخنصر، وهو الأطول، تجاه الشّخص الآخر، فيقول له اللاّعب: انظر فإنّ الاصبع الأطول تجاهك، وسوف ترى بعد ثانية أنّه انقلب إلى أقصر، وبحركة سريعة وخاطفة يرفع يمينه إلى أعلى، وأثناء هذا العمل يبدّل الأصبع الخنصر، فيضع مكانه الشّاهد، ويضع مكان الشّاهد البنصر، فيكون الذي جهة المتفرّج أقصر، ويتمّ بهذا العمل السّحر لمدّعي السّحر، مع دهشة المشاهد. وهذه الحركة على بساطتها تحتاج إلى دقّة وسرعة ومران، حتى تأتي بالأثر المطلوب منها.

وتجد مجموعة وقد تحلّقت حول طفل قد اخترع شيئا أشبه بالسّحر أيضاً فقد جاء بجزء من مفصل في رجل الضّأن، لا يزيد طوله عن أربعة



سنتيمترات أو خمسة، مقفل من الجانبين، يسمونه: «العِجْل» أو «العِجْلة»، لأنّ أحد طرفيه يشبه رأس البقرة، والآخر يشبه عجزها، وداخله مجوف، فيخرق اللاعب منفذين في أعلاه، وهو ما يماثل ظهر العجل، وآخرين في أسفله، وهو ما يماثل بطن العجل، ثم يدخل خيطا من أحد المنفذين الاعليين إلى ما لا يقابله من الاسفلين، ويكون لونه مغايرا لآخر يدخله من المنفذ الثّاني في الجانب الأعلى إلى ما لا يقابله من أحد المنفذين الاسفلين، فإذا جرّهما إلى أعلى أوهم أن دخولهما في العِجلة قد غيّر لونيهما، لأن الدّاخل من اليمين من أعلى وهو أحمر، يخرج من الفتحة المقابلة إلى أسفل أسودا، فإذا عكس الأمر من أسفل إلى أعلى حدث مثل ذلك. فترتسم على الوجوه الدّهشة والاستغراب، ومحاولة معرفة الحلّ دون جدوى، إلا إذا شرح صاحب اللّعبة أن السّرّ في اختلاف المدخل عن المخرج.

ولعلّك تذكر تلك اللّعبة الممتعة التّي امتدّت إلى زمنك، كنت تجلس مثل جلستك للتحيّات،



ويجلس آخـر أمامك، فتضع ركبتيك إلى ركبتيه، وتمسـك شحمـة أذنيك بيديك، ويضع يديه على ركبتيه، وتحاول أن تغافله بانزال إحدى اليدين بقوّة إلى يديـه المبسـوطتـين على الركبتين، فإذا ضربت ظاهـر الكفّـين، ولم يتمكّن من رفعهما كنت أنت الغالب، والا فأنت المغلوب، ثم تأخذ أنت الوضع الذي كان فيه، ويأخذ هو الوضع الذي كنت فيه، وهكذا دواليك، حتى تملّا، أو يقطع عليكما اللّعبة أحد، بعد أن تكون ظواهر الأكفّ قد احمرّت، أو احمرّت بدلا منها أطراف الافخاذ التي كانت تحميها الأيدي، فنزلت عليها الاكفّ خطأ.

وهي لعبـة تخص سنّا معيّنة، وتقوم بدورها في الـتّرويـح عن النّفس، وتعلم الـلاّعبـين المخاتلة والتوقّي، وسرعة التّصرف، ومحاولة سَبْرِ غَوْر ما في نفس المهـاجم، ومـا في نفس الآخـر، لا يدري المضروب أيّ اليـدين التي سوف تنـزل عليه مثل «المـرزبّـة» بسرعة البرق، فعينه تنتقل بين اليمين والشّمال، تحاول أن تلحظ أيّ بادرة أو حركة، أو



نبض عرق، وما أكثر الحركات الموهمة في الجانب الآخر.

وهناك - يا بُنَيّ - لعبة الأنن في مكّة، وهي لعبة طريفة، وتقوم أيضا على التّعمية والايهام، يتقابل مجموعة من الأطفال أو الصّبيان، ويكوّنون حلقة متوسط اتّساعها، قد لا يزيد أفرادها عن أربعة، يطأطئ أحدهم رأسه ثم يضرب أحدهم على مؤخّرة رقبته[1]. ثم يرفرفون بأيديهم بمحاذاة أكتافهم، في صورة تشبه أجنحة النّحل، وهي تحوم على الزّهرة، ويقولون بصوت يشبه صوتها «إنْ» ويمدّونها، وعلى المضروب أن يعرف الضّارب، وإلا عاد إلى طأطأة الرأس حتّى يُضرب مرة أخرى، وتعاد اللّعبة عدّة مرات، حتى يُعرف الضّارب، فيحلّ محمل المضروب، وتستمرّ اللّعبة هكذا.

وفي هذه اللعبة يقتص بعض الصّبيان من بعض، وتأتي الضّربة أحيانا قويّة، تشفي غيظ قلب

(١) خلف الرّقبة أو مؤخّرها يسمى بالفصحى «الكرد» وفي العامية العلباة وجمعها علابى.

أحدهم من الآخر، وأحيانا قوّتها أو ضعفها يكشف ضاربهـا، فإذا كان بين أحدهم وآخر عداوة دلّت قوتها عليه، وإذا كان هناك ودّ أو قرابة فالحنان في الضّربة يدل على القريب.

والحديث عن لعبة «الإِنِنْ» يجرّنا إلى الحديث عن قصيـدة فكاهية، جادت بها قريحة الاستاذ الشاعر أحمـد قنـديل ـ رحمه الله ـ ألقاها نيابة عنه صديقنا الاستـاذ عبدالله مراد ـ رحمه الله ـ في حفل مدرسة الفلاح بمكّة المكرمة، في بستان الزّاهر، بمناسبة تشريف خادم الحرمين الشّريفين الملك فهد لهذا الحفـل، عنـدمـا كان وزيـراً للمعـارف في عام ١٣٧٣هـ. ومطلع القصيدة:

«غيري على السّلوان قادر
وسـواي في العشّاق غادر»
وأنـا المعـاوس من قديم
في كتـاتـيـب الحـوائـر
أيّـام فكّ الحـرف مكـ
ـوّرا كخلع الضّرس نـادر



والبيت الأول ـ كما تعرف ـ للبهاء زهير، شاعر قديم. وما أردنا اثباته عن الالعاب في تلك الفترة ورد في البيت الرّابع والعشرين والخامس والعشرين والسّادس والعشرين، وهي:

في لعبة «الضّاع» الّتي فيها تنوّرت البصائر
أو حيلة «اليَدَس» الّتي فيها تفتّحت الخواطر
وقد برعت بلعبة «اَلانِن» كَمَانَه[1] ولم أفاخر

وهي قصيدة ضافية فيها من صور التّراث ما يبهج، ومن الالعاب والعادات ما يجمل معرفته، ولعلّك تجدها منشورة في أم القرى لذاك التّاريخ.

أمّا لماذا سميت هذه اللّعبة ـ يا بُنيّ ـ «إِنِنْ» فلعلّ الصوت الّذي يواكبها يشبه طنين النحل، خاصّة وأنهم يقولونه بصورة جماعية، له دخل في هذه التّسمية، ولكنّي لا أجزم بهذا رغم قوة مظهر انطباق ما قلت على المواقف. أمّا إن اكتشفت أنت سببا

(١) «كمانه» بالعاميّة تعني أيضاً.



أصحّ من هذا، أوفيه من الجزم ما ينفي التردّد والشّكّ سجّلت درجة عليّ في هذا. فاشحذ همّتك وابحث، وارجع إلى المعاجم، وسوف أساعدك على التعرف على بعضها، وأشرح لك اتّجاه كل واحد منها وفائدته، وأهدافه، والنّهج الذي يتبعه، وتميّز أحدها على غيره. وهذا طبعا أمر مملّ لك، ولكني سوف أسجّل عليك هذا الملل، وما يتبعه من مدافعة ومقاومة، فقد أحتاج إليه في يوم من الأيّام عند المجادلة والمحاجّة معك في أمر يلمس هذا الجانب، أو يحوم حوله.

والمعاجم العربية ـ يا بُنَيّ ـ مفخرة من مفاخر التّأليف في لغتنا، وسبب من أسباب حفظها، وسهولة الرّجوع إلى الكلمات ومعانيها فيها، وسبقنا إليه، وبززنا أمما تعتبر أنّها اليوم قطعت في هذا شأوا بعيدا، وشوطا متوغّلا. ولا يزال لدينا من المعاجم، والتّنوّع فيها والتميّز، ما لم يصل إليه كثيرون غيرنا.

هذا الحديث الذي جاء ـ يا بُنَيّ ـ عفوا على هامش ما كنّا فيه أو منه، فهو مثل منجم الذّهب،



قد تنبثّ حبيبات الذّهب بين ترابه، والتنجيم (هذه الكلمـة آتية من كلمة مَنْجَم. أسارع بتبيان ذلك لك، حتى لا تتجاوب أسلاك برق الاتّهام عندك، فتظنّني أتحدث عن تأثير النجوم) في حصول الفائدة من حديثنا لا يحتاج منك إلى عناء أو تعب أو جهد مثلما يتطلبه من ذلك مستخرج الذهب، فلا ماء ولا مناخل ولا وقوف في الشّمس، ولا مخاطرة في دخول منجم قد يتهاوى عليك سقفه، وتنهار جوانبه. لا يحتاج منك - يا بُنَيَّ - إلا إلى الصّبر والأناه، فتقرأ كل ما يمرّ بك.

لاحظ كلمة «عفوا» التي مرّت بك قبل قليل، ترى لو سمعها أحد من جيل الخليفة الراشد عمر ابن الخطاب هل يعرف معناها الذي ارتضيناه هنا، سيرا على نسق ما يعرفه جيلنا، ربّما ذهب مُعاصر ذلك الجيل إلى كلمة «العفو» المرادف للسّماح. هذه أيضاً - يا بُنَيَّ - تحتاج منك إلى رجوع للمعجم، فقد تكون الكلمة تعني ما تعنيه اليوم، وقد بحثت أنا عنها، ووصلت إلى نتيجة، فعليك أنت أن تبحث



عنهـا، لأنّي لن أخـبرك بما توصّلت إليه، ولا تغترّ بتشكيكي بأن جيل عمر قد لا يعرفها، فقد أكون رصدت لك رصدا، ونصبت لك فخّا، فتنبّه.

أرأيت كيف بدأنا بلعبة من الألعاب، وانتهينا بالحديث عن المعاجم وتحرير الكلمات، وقد عرّجنا في طريقنـا هذه «التعريجة» بارادتنا، ولم نكن مثل السّيـارة التي اختـل «العكس» أو «مـدبّر الاتّجاه» فيها، فاتّجهت اتّجاها لا يد للسّائق فيه، ولا قدرة له على تصحيح المسار له، وسأريك الآن أنّ بامكاننا السّيطرة على قيادة أداة سيرنا، بأن أعود بزاوية حادّة إلى المعـاجم، وأبـدأ بالشّرح عنهـا، وهو أمر لن يعجبك عند سماعه، ولكنّي أرجو أن يعجبك عندما تحتاج أحد هذه المعاجم فتجد أنّك تعرفها.

سأحاول أن أختصر العدد، واختصر الشّرح، وأرجـو أن أستـطيـع أن أقـاوم لذّة تداعي المعاني والأفكار عن المعاجم، فلها متعة لا يعرفها إلّا من عاشر هذه المعاجم. يفتح أحدنا المعجم اللّغوي،



ليبحث عن كلمة فلا يكتفي بالبحث عنها، ولكنّه ينساق طوعا واختيارا إلى متابعة اشتقاق الكلمات وتشعّبها، والتلذّذ بما يكتشفه من معانيها، وصلاتها، وأصولها، مما يدهش ويعجب.

من أقدم المعاجم
كتاب الاضداد
لمحمد بن القاسم الانباري

وهو كتاب ليس كبيرا، وفي مجلّد واحد، وهو على اسمه يبحث في الأضداد، ويدور حول الكلمات التي تأتي بمعنيين متضادّين، ككلمة «الجون» بمعنى الأبيض والأسود. و «الجلل» بمعنى الحقير والعظيم. وهو معجم قيّم، خاصة وأن ما ألحق به من فهارس أزال ما قد يكون اتّسم به من صعوبة قبل طبعه على الطريقة الحديثة، وهذه الطريقة في موضوع المعجم تدل على ثاقب فكر مؤلّفه، وعنايته باللّغة العربية، وغيرته عليها، ودفاعه عن التّضادّ فيها، ودحضه حجج من هاجمها



في اللّغة. والمعاجم الأجنبية التي اعتنت بالكلمة وضدّها حديثة في هذا المضمار حسب علمي. ولصاحبنا العربيّ السّبق في وقوع فكرهِ على هذا المنحى.

وإذا رجعت إلى هذا المعجم فسوف تجد فيه متعة جلّى، وفائدة كبرى، لأنّ فيه من الفكر، والتّعمّق، والطّرائف، والاحاطة ببعض جوانب اللغة، ما يبهرك، ويزيد في ثقافتك مقدارا سوف يكون فيه مفخرة لك، ولن تجد مصدرا غيره يعطيك ما أعطاه.

كتاب جمهرة اللغة
لمحمد بن الحسن الازدي (ابن دريد)

وهو معجم يقع في أربعة أجزاء. واتّخذ مؤلفه فيه نسقا فريدا، ابتدعه، وهو من المعاجم المتقدّمة في الزمن، يأخذ المؤلف مادّة واحدة، فيقلّبها مع أحرفها على جميع الوجوه، مستقصيا كل ما هو معروف فيها من صيغ ومعان، فمثلا كلمة:



«ف ل ي» يأتي منها فيل، وليف، وهكذا، حسب تسلسل الحروف الهجائية.

كتاب الاشـــتقاق
لمحمد بن الحسن الازدي (ابن دريد)

هذا مجلد يحتوي على جزأين، وهو معجم على اسمه، يدور حول الاشتقاق. وأقرب تعريف للاشتقاق هو: «أخذ كلمة من كلمة أو أكثر مع تناسب بينهما في اللفظ والمعنى»[1]. والكتاب يبين الاشتقاق اللغوي لأسماء القبائل والرّجال، مع ما يدخل في ذلك من مادّة لغوية اشتقّت منها هذه الأسماء، ويتحدث المؤلف عن الآثار الدّينيّة والأدبيّة التي تمتّ بصلة إلى تلك الموادّ. وفيه من المعلومات الطّريفة ما يجعله جذّابا، ومفيدا.

الزّاهر في معاني كلمات النّاس
لمحمد بن القاسم الانباري

(١) الاشتقاق جـ ١ ص ٢٦ (المقدمة).

وهــو معجم في مجلدين، يشرح فيــه مؤلّفــه الأقوال، والأمثال، وكان من الصّعب الاستفادة منه عنـدمـا كان مخطوطـا، على ما فيه من مادّة غزيرة مفيدة، إلا أنّ هذه الصّعوبة تدوركت بعد طبعه، إذ قام محقّقه الدكتور حاتم صالح الضّامن بوضع فهـرس منسّق يرتّب هذه الأقـوال، والامثال، في طبعة وزارة الثّقافة والاعلام في الجمهورية العراقيّة (دار الرّشيد للنّشر).

معجـم مقاييس اللغــة
لأحمد بن فارس بن زكريّـا

وهو معجم في ستّة مجلّدات، مفيد، ومنتظم في السير على الطريقة الابجدية فيما يهمّك عند البحث عن الكلمات الخـاصّـة بمـوضـوعـه. والشّرح في مقدمته يزيل ما قد يعترضك من صعوبات.

الصِّحاح (تاج اللّغة، وصحاح العربية)
لاسماعيل بن حمّاد الجوهـري



وهو في ستّة أجزاء، وهو من المعاجم التي تسير في نظامها على مراعاة آخر الكلمة. وهو من أهم المعاجم العربيّة، ومن أشهرها، ولا تتردّد في الرجوع إليه - يا بُنَيّ - رغم أنه يسير على نمط لم تتعوّد عليه، فليس هذا من الصّعوبة التي قد تتصوّرها. إنك سوف تأنس به بعد أن تتعرّف عليه.

المخصّص
لعلي بن إسماعيل بن سيده

وهذا المعجم في خمسة مجلّدات، ويسير على طريقة متميّزة، يبحث في خلق الأنسان، مارّا بجميع أعضائه، . وما يتصل بها. يسمّيها، ويتحدّث عما تعمله؛ يتحدث عن كلام الانسان وفصاحته، وعن الغرائز والاخلاق والعقل، وعن المشي، وعن النّساء، وعن اللّباس والطعام والأمراض.

كتاب خلق الانسان
لثابت بن أبي ثابت



وهو في مجلد واحد، وهذا المعجم بديع في فنّه، يتحدّث عن خلق الانسان، وما يتصل بنمّوه، وأعضاء جسده، وما ورد في كلام العرب من أسمائها وصفاتها، وما يوضح المعاني من شواهد شعريّة وغيرها. والفهرس المضاف إليه سوف يسهّل لك الرّجوع إلى ما تريد أن تعود إليه، لأنه مرتّب على حروف الهجاء، ليسدّ النّقص الذي قد يجده أمثالك.

أساس البلاغة
لمحمود بن عمر الزمخشري

هذا المعجم مجلد واحد، وهو سهل الاستعمال، لأنه قريب من طرق استعمال المعاجم الحديثة، ويمتاز بتفريقه بين الحقيقة والمجاز، فمثلا في مادّة «زمر» يشرح عن حقيقة الكلمة بأن الصّبي الزّمر أو الزّعر قليل الشّعر، وشاة زمرة. وعن المجاز: فلان زمر المروءة، وعطيّة زمرة أي قليلة ضئيلة.

ولعل هذا ما دعاه إلى أن يسمي كتابه: «أساس البلاغة» لأن المجاز صور، وصور بديعة، لأنها



تعطي صورا مركّبة. فيها من الخيال ما يجعلها متميّزة عن الحقيقة المجرّدة، وبالمجاز يتميّز فصيح عن عييّ، ومبتكر عن متّبع.

المرصّع (في الآباء والامّهات والبنين والبنات والاذواء والذّوات)
لمجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير

وهذا المعجم في مجلد واحد، واسمه يدّل عليه، فقد تناول المؤلّف فيه الاسم والشهرة والكنية، وما يدخل عند الشّرح من فوائد طريفه. واشتمل على الاسماء المترادفة لمسمّى واحد. وقد بُنى الباب الثالث منه على حروف المعجم.

وقيمة الكتاب لا تقوم على أنّه معجم من معاجم المعاني الخاصّة، بل تتجاوز ذلك فتكشف عن مادّة لغوية لا نجدها في كثير من كتب اللّغة، ثم إنّ هذه المادّة اللّغوية - يا بُنَيّ - تظهر طريقة العرب الاقدمين في إطلاق اسم العَلَم والشّهرة، كما



تكشف عن نظرتهم إلى أعيان الطّبيعة البدويّة من حيوان ونبات ومكان وزمان.

ابحث - يا بُنَيّ - عن بعض ما يهمّك مثل أمّ أربع وأربعين، وأمّ عويس، وأمّ قبيس، وأبو قردان، وأبو مقصّ، وأبو بيض، وأبو شبت، وأمّ طقّه، وأبو جلمبو، فقد تجدها أو بعضها أو رديفا لها في هذا المعجم، وقراءته من أمتع القراءات، لأنه لا يفاجؤك بأسماء طريفة عن حيوانات أو نباتات ألفت اسماءها، وانما يكشف لك عن ملمح اجتماعي وراء هذه التّسميات.

المشوف المعلم
(في ترتيب الاصلاح على حروف المعجم)
لعبد الله بن الحسين العكبري

وهو معجم اسمه ينم عّما ينطوي تحته، وقد سهّل به مؤلفه الوصول إلى ما صعب من كتاب «إصلاح المنطق» لابن السّكيّت الذي أنقص الاستفادة منه، رغم أهمية ما فيه من علم،



وغزارته، صعوبة منهجه، فمعجم «المشوف المعلم» قد حوى المعلومات الواردة بكتاب: «إصلاح المنطق»، وزاد عليها أن رتّبها في نظام سهل، أمكن من العودة إليها للمراجعة عند الاحتياج. والمنهج السّليم في أيّ مؤلّف قد يعدل أو يفوق ما قد يكون في الكتاب من معلومات.

لسان العرب المحيط
لابن منظور

وهو معجم مشهور معروف، وفي أربعة أجزاء، ويأتي على طريقة السّير على نظام آخر حرف في الكلمة، وهذا قد تجده غريبا لأنّك تعوّدت على نمط آخر، وقد يكون متعبا لمن هم في مثل سنّك، ومستوى علمك، ومن غير المداومين النّظر فيه، وتعوّدك عليه سوف يفيدك، فليس منتظرا منك أن تتبع السّهل دائماً وإنما أيضاً، وكثيرا ما طالبتك بهذا، ركوب الصّعب في سبيل الاحتياز والكسب، خاصّة في العلم.

ومع هذا فيسعدك ـ يا بُنَيّ ـ أن تعلم أنّ هناك طبعة جديدة عن دار لسان العرب، صُنّف فيها هذا المعجم ورتُبّ على أساس الحرف الأول من الكلمة، ثم سار على ترتيب حروف الهجاء، قام بهذا الاستاذان يوسف خيّاط، ونديم مرعشلي. وهو في أربعة أجزاء.

القاموس المحيط

لمجد الدين الفيروز آبادي

وهذا القاموس (لاحظ أنّي قلت هنا القاموس، ولم أقل المعجم، كما قلت في السابقات، لأنبّهك بأنّ الأخريات معاجم، وهو أيضاً معجم، ولكنّ اسمه القاموس، وليست الأخريات قواميس إلا بما تجوّز به النّاس في أيّامنا هذه)، ويسير هذا المعجم على طريقة اتّخاذ أواخر الحروف في الكلمة أساسا للسّير، وهو خلاف ما تعوّدت عليه في المعاجم الحديثة.

إلا أنه يسعدك أيضاً ـ يا بُنَيّ ـ كما أسعدك عندما تحدّثنا عن لسان العرب المحيط أن تعرف أنّ هناك



إعادة لكتابة هذا القاموس على الطريقة التي تألفها أنت وجيلك، أي السّير على أساس أوّل حرف من الكلمة. وقد قام بتصنيف هذا المعجم، وإعادة ترتيبه على هذا المنوال الاستاذ الطاهر أحمد الزاوي، وسمّاه: «ترتيب القاموس المحيط» على طريقة المصباح المنير، وأساس البلاغة، وهو في أربعة أجزاء.

المصباح المنير
في غريب الشّرح الكبير للرّافعي
تأليف: أحمد بن محمد الفيتوبي

وهذا المعجم في جزأين، ويسير على التّرتيب الذي اعتدته في المعاجم الحديثة. ولعله يصبح من أصدقائك، لصغر حجمه، وسهولة مراجعته، ويسر الحصول عليه.

وبعد ـ يا بُنَيّ ـ فأنا في هذه المعاجم، والحديث عنها، لم أتجاوز إلى ما أُلّف منها بعد القرن الثامن الهجري، وأحسب أنّ هذا كاف في إفادتك، أما ما

أُلف بعد هذا فهو في الغالب مصطفى مما سبق أن ألف، وفي بعضها من التكامل والترتيب، وغزارة المادّة ما تفخر به المكتبة العربية، ولكنّي اكتفيت - كما ترى - بما ذكرته، خوفا من الأطالة، وبُعدا عن وقوعك في الملل، فإن وجدت عندك الرّغبة، وتوفّر لك النّشاط، وتعرّفت على ما جاء منها متأخّراً، فسوف تربح ربحا عظيما، وسوف تجني فائدة جلّى، وستحوز مكسبا ثقافيا لا يستهان به، لإنضاج فكرك، وزيادة معلوماتك.

وأضمن لك - يا بُنَيّ - أنك إذا صادقت هذه المعاجم، وأقمت بينك وبينها جسور محبّة، ومددت طرق مهادنة، وحفرت قنوات صداقة، فسوف تجد فيها من المتع ما لم يخطر لك على بال، ففيها علم، وفيها ذكاء، وفيها عقل، وفيها طرافة، وفيها مفاجآت، وفيها قصص، وهو ما يهمّك الآن، استمع إلى هذه القصّة الطّريفة، وهي قد لا تكون حقيقة، وقد تكون كذلك، فقد تكون حدثت لأحد ملوك الغساسنة أو المناذرة، أو التبابعة، لأنّها



لا تحدث إلا لمتكلّم باللّغـة العـربيّة، وهي تفسير طريف للصّـــورة التي وجُـدت بها الكنيـة: «أبـو فلان»، وهذا يجعل من طرافتها ما لا يهمّ المرء ما إذا كانت حقيقة أم خيالا.

يقول ابن الأثير، صاحب «المرصّع»[1].

«لقد بلغني أنّ أصل سبب الكنى في العرب كان»:

«أن ملكا من ملوكها الأول وُلد له ولد، توسّم فيه أمارات النّجابة، فشغف به، فلما نشـــأ وتـــرعـــرع، وصلح لأن يؤدّب أدب الملوك، أحبّ أن يفرد له موضعا بعيدا من العـمارة، يكـون فيـه مقيما، يتخلّق أخلاق مؤدّبيه، ولا يعاشر من يضيع عليه بعض زمانه، فبنى له في البرّيّة منزلا، ونقله إليه، ورتّب له من يؤدّبـه بأنواع الآداب العلميّة

(١) ص ٤١.



والملكيّة، وأقام له ما يحتاج من أمر دنياه، ثمّ أضـاف إليه من هو من أقرانه وأضرابه من أولاد بني عمّـه وأمرائه، ليؤنسوه، ويتأدّبوا بآدابه، بمرافقتهم له.

وكان الملك على رأس كلّ سنة يمضي إلى ولده، ويستصحب معه من أصحاب من له عند ولده ولد، ليبصروا أولادهم، فكانوا إذا وصـلوا إليهم سأل ابن الملك عن أولئـك الـذين جاؤا مع أبيـه، ليعـرفهم بأعيانهم، فيقـال له: «هـذا أبـو فلان»، و«هذا أبو فلان»، يعنـون آبـاء الصّبيـان، الذين هم عنده، فكان يعرفهم بإِضافتهم إلى أبنائهم. فمن هنـالك ظهرت الكنى في العرب، ثم انتشرت، واتّسعت، حتى صاروا يكنّـون كلّ إنسان باسم آبنه.

والآن أظنّني بالاستطراد والابتعاد قد شوّقتك إلى الألغاز، وكنت أشرت إليها بطريقة جعلتك تظنّ



أنّي سوف أبدأ بها، ولكني ـ كما رأيت ـ حِدت عن الطّريق، والآن أعود إليها حتى لا تيأس. وهذه طريقة ناجحة للتّشويق، تغري، ولا تعطي، ولكنّها لا توئس. وسنعود بعدها إلى الألعاب إن شاء الله.

أحد الألغاز التي يتسلّى بها الأطفال في الماضي، ويقطعون بها الطّريق، ذاهبين إلى المدرسة أو عائدين منها هي:

«أنشدك (أي أسألك) عن شيء حياته على الشّرب، والأكل ذاقه عقب ما مات».

يحتار الأولاد عندما يسمعون هذا اللّغز، فهم لا يتصوّرون هذا الشّيء الذي عاش يشرب طوال حياته، ولم يذق الطعام إلا بعد أن مات. تجد الواحد منهم ينظر إلى الآخر بعيون شاخصة، يطلب منه المدد والعون، فتلتقي الحيرة مع الحيرة، والدّهشة مع الدّهشة، ويغوص كلّ واحد منهم في بحر عميق من التّفكير، وتقليب الأمر على وجوهه،



ويــزعجهم هذا لأنّهم لم يتعــوّدوا على التّفكــير العميق، ولا الصّــبر والانتظار إذا اضطروا إليه. يرى المُلغز حيرتهم، فيقول بفرح: أقول؟ أي هل تريـدون أن أكشف سرّ اللغـز؟ أو هل عجزتم؟ فيكابر هؤلاء، ويقولون: «لا»، ويستمرّ التفكير، وهـو تفكير معلّق في الهواء، فليس تحت أرجلهم أرض يقفون عليها، توصّلهم إلى الهدف، ثم يأتي دور رمي الأجــابـات غير الصــائبـة، يقـذف بها قائلوها، رغم معرفتهم ببعدها عن الحلّ، ورغم مداخل الخلل والضّعف فيها، ولكنّ الذي حداهم هو اليأس، ومحاولة قطع الصّمت، فيضحك المُلغز بانتصار، وتلذّذ، وبهجة، ويُبطل ما قالوا بإشارته إلى موقـع النّقص في الجـواب. فيعـودون للتفكير يجلله الصّمت، وتحيـطه النّـظرات المتردّدة، وفرك الأكفّ والاصــابـع، والتملْمل في الجلسة، ويدور حديث صامت بين العيـون، مؤدّاه مفـاوضة على التسليم، وينتهي الأمر باليأس، والأقرار بالعجز، والرّضى بالتّسليم بالأمر، والترجّي في سرعة تفسير



المبهم، فيتحـرّك الملغـز، ويعتـدل في جلسته (إن كانوا قد جلسوا في ظل بيت أو شجرة) وكأنّه شيخ في حلقة درس، سوف يلقي درسه على تلاميذه، أو يبتعد ويقترب إن كانوا يسيرون، ويبتعد، ثم يقول لهم: إنّ هذا الشيء الذي أعجزكم هو عصى موسى عليـه السّلام. ألم تكن غصنا في شجرة يشرب مما تسقـاه من ماء، فينمو على هذه السّقيا، فلمّا قطع هذا الغصن من الشّجـرة، وأصبـح عصـا في يد موسى، فألقاه على حيات السّحرة، أمام السّحرة، التقمها، كما يلتقم أحدكم ويزدرد طعامه.

فينـظر بعضهم إلى بعض، ونظراتهم هذه المرّة كانت استصغاراً لأنفسهم. ما أسهل الأمر! كيف لم يعرفوه؟ كيف لم يتنّبهوا له؟ كيف غفلوا عنه؟ إنّه سهل.

ويـلتـفت بعضهم إلى بعض، يبحثـون عمن يكـون بينهم قد التقط من أهله الكبـار لغـزا لم يسمعـوه، فتبـدو ابتسـامـة اعتزاز على أحدهم، ويتحرك في مكانه تحرّك المعتزّ بتميّزه، ويقول بملء



فيه: «أنا عندي لغز» أو «حجّاويه» أو «حزّيرا»، والحجّاوية جاءت من كلمة احْج، أي اعرْف، أو اكشف اللّغز، وحزّيرا من إحزر في هذا المعنى نفسه. ويقول لهم:

ياش (ماشيء) شِفْته ينقل شِفْته شِفْت الصايغ في صندوقه؟

فيسقط في أيديهم، ويبدو لهم أن هذا «أعسر» من اللغز السابق، وهم يدركون أنّ مرتكزات اللّغز، إذا قطّع، هي ثلاثة الحروف: الشّين، والفاء، والتّاء. ولكن كيف يصلون إلى غورها؟ وكيف يسبرون عمقها، ويجلون غامضها، ما أقلّها وما أكثرها، وما أقربها وما أبعدها. كيف يعرفون الصّلة بينها وبين المبهم من أمرها، الجملة الأولى واضحة: «هناك شيء رأيته»، فيهزّ الملغز رأسه بالموافقة، والتّصديق على ما أبدوا، ولكن هذا أول البحر، وهو ضحل لا يغطي القدمين، والغبّة تأتي بعد هذا مباشرة، إذ لا يوجد تدرّج. كيف ينقل



هذا الشيء «شفْته»، فيقفز أحدهم، ظانّا أنّ هناك مغالطة في النّطق، وأنّه عثر على كنز الحلّ، ويقول: «شِفْته»، أي «شِفّته»، «البرطم»، فيقال له: «لا» هي شِفْته وليست شفّته، فيعود خائبا إلى وضعه الأوّل، فيتّفقون على التّحرّك إلى الجملة الثّالثة، ويعتقدون أنّها واضحة، وأنّ الصايغ قد دخل صندوقه، فيقول المُلغز: «لا، كيف يدخل في صندوقه، والصّندوق لا يتسع لقط». فيسلمون لزميلهم بأنّهم عجزوا، وبفرحة غامرة يتأكد منهم أنّهم عجزوا، ويسألهم واحداً واحداً، ويعيد السؤال تطويلا منه لوقت الأنتظار، وتمتّعاً بابقاء سرّ بضاعته مخبّأً أطول مدة ممكنة، كما أفعل الآن معك - يا بُنَيّ - وأرجو ألّا تكون قد قفزت إلى نهاية الصّفحة، ورأيت الحلّ. إن كنت فعلت فقد ضاعت منك لذّة الترقّب، وبهجة الحيرة، ورحلة البحث في أعماق بحار الفكر، ومشغل الصّايغ. ما رأيك في أن أؤجل إعطاءك الحلّ إلى غد، هل تراك تنام اللّيلة؟ وإن نمت هل تراك تحلم به؟ بل ما



رأيـك في أن أتـرك إخبـارك بالحـلّ إلى آخر العام الـدّراسي، ويكـون الحلّ هو هديّة نجاحك؟ إنّي لست بهذه القسوة، لأنّي مررت بمثل الذي تمرّ به، فإليك الحلّ «هنيئا مريئا، غير داءٍ مخامر».

الجملة الأولى واضحة في أنّ المُلغِز رأى شيئا. أما الشِّفت الذي رآه فهو «مِلقَط» يستعمله الصايغ في صنعتـه، يلتقط به قطع الـذهب الصغيرة، أو الكبيرة إذا كانت حارّة. ولعلّها كلمة غير عربية، جاءت من كلمـة «جفت» التّركيّة. وهذا يكشف بقيّة اللّغز، فالمُلغِز ببساطة يقول: «إنه رأى الصايغ ينقل ملقطه، وأن الملقط كان في صندوقه».

وبهذا استرخت الأذهان المشدودة، والأعصاب المتـوتّـرة، وخرجت آهات الرّاحة زافرة تدوّي في الآذان، متقـاطعـة مع النّـظرات التّـائهة المحتجّة صمتا بأنّه ليس كلّ السّامعين من أبناء الصّاغة، أو من جيرانهم، حتى يعرفوا هذا. ولكن الصّمت لا يحتاج إلى ردّ.

ثم يلتفتون إلى الثّالث فيسارع، وقد توقّع ذلك منهم، فيبدأ ببسم الله الرّحمن الرّحيم، مؤمّلا أن يكون لغزه صعبا على زملائه، ومعلنا أنه لو اجتمع أهل الأرض جميعا ليحلّوه ما حلّوه، ولا فكّوا عقد طلاسمه، وهي دعوى يصدّقها الواقع أو يكذّبها، وسنرى، ثم يقول:

«أنشدك عن شيء طويلٍ ومذلوق
دُبّ الليالي في يمينك تشدّه
طار الغراب وصار بالوكر غرنوق
هذاك شيء يوصل الرجل حدّه

«أنشدك» أي «أسألك»، ومذلوق، أي محدّب، وطرفه رفيع، و «دبّ» بمعنى «طوال» اللّيالي بدون انقطاع، وحدّه: أي نهايته.

وبعد أن ألقى إليهم اللّغز، تطلّع إلى وجوههم، ليرى مدى تأثيره عليهم، فوجد أنّ ظنّه قد أصاب مرماه، وأنّ حيرتهم قد بدأت تطل برأسها، بدليل التفات بعضهم إلى بعض، يطلب الواحد عون

الآخر، ينقل نظراتِه من واحد إلى آخر، وهو ينقل نظراته بينهم بمتعة وبهجة، ويستحثّهم على معرفة الحلّ، ويبادر باتّهامهم بالعجز، قبل أن يمرّ من الوقت ما يبرّر هذا الاتّهام. ولكنّه نوع من الأرجاف، يشوّش به على أذهانهم حتى لا تجد الطّريق إلى الحلّ، ويقطع حبله إن وجد. وهم يستمهلونه بعناد وإصرار، ورغم أنّهم لم تتبينّ لهم بارقة أملٍ، ولا ضوء صبح، ولا شيء من الصُّوى على الطّريق. فليس أمامهم إلا ظلمة حالكة داكنة، ودجنّة ذات أستار، وغيوم متلبّده، وصحراء بيداء لا نبت فيها ولا معالم. وكل دقيقة تمرّ هي في صالح الملغز، وليست في جانبهم، وأخيرا يستسلمون لإلحاحه، ويطلبون منه الحلّ الآن بإلحاح، بعد أن «وقف بهم حمار الشيخ في العقبة»، كما يقول المثل.

ثم يكشف اللّغز المغمض: بأن الطّويل المذلوق هو اللّحية، وصاحبها يديم امرار يده عليها، واللّحية وهي سوداء أيّام الشّباب تشبه الغراب في



سواده، فإذا ولّى الشّبـاب، وطار غرابه، وزحف الشّيب بجيوشه، وطغى بياضه على سواد الشّباب فكأنّه الغرنوق ببياضه الزاهي، والشيب علامة بدء الختام، ووصل الإنسان إلى نهايته في هذه الدنيا.

عند هذا يضربون بأيديهم على جباههم، حنقا، وغيظاً على أنفسهم التي أبعدت بهم عن الحلّ، وهو قريب، وأسلكتهم مسالك وعرة، والطّريق السّهل أقـرب إلى متنـاول يدهم. ولكن ما بالهم يلومون أنـفسهم وليس من بينهم من خطّ شاربه، فكيف يفكّرون في اللّحية، إنّ هذا اللغز في صعوبته في مستوى الالغاز الماضية، فلا لوم عليهم، إذا لم يأت منهم قصور ينفرد به أحدهم عن الآخر.

ويبقى من الفـريق السّائر في طريقه إلى البيت تلميـذ واحـد، يلتفتون إليه. وكأنهم يقولون له: «جاء دورك»، وهو كفـء لأن يساهم في هذا العمل المُلهي، المساعد على قطع الطّريق، الذي لم يبق منه إلا ربعهُ، وهو يكفي للغز واحد، فيأخذ هذا «عصا



المارشاليه»، كما أخذه السابقون، ويلوحّ بأهميّة ما سوف يقول، سابقا القول، ومهيّئا الجوّ، و «نصف الحرب طهبله» وهو مثل عامّي، لعلّ أقرب شيء له: «نصف الحرب جعجعة». ويبدأ الترقّب ـ يا بُنَيَّ ـ من جديد، ويبدأ التوقّع، وتوثّب الفكر، وشحذ الذّهن استعدادا. فيقول وقد عيل صبرهم:

أنشدك عن شيء خلق، يلبد إيدى
متجنّس على المخاليق بخلوق
مادام به جلده فهو ما يزيدِ
وإلى فصل جلده طلع منه مخلوق

ورغم أنّ صاحبنا ألقاه بطريقة توحي بأنه متأكّد أنّهم لن يعرفوه، خاصّة وأنه جاء بعد أن أنهكهم المشي، وأضناهم حلّ الالغاز الماضية، أو على الأصحّ أجهدتهم محاولة الحلّ، وأمضّهم الاخفاق المتتالي، والخيبة المتتابعة، والحسرة التي تكررت، كلّما تبين سهولة الحلّ أو قربه، إلا أنّهم هذه المرّة عرفوه، ترى هل تدرّبوا على السّابقات، واكتسبوا



منها ملكة، أو عثروا صدفة على طريقة للتّحليل موصلة، فقد قال أحدهم: دعونا نتصوّر، فالشيء هذا خلق أي حيوان، ويلبد اليد، أي تضم عليه اليد، فاحصروا المخاليق التي بهذا الحجم. ومتخولق بخلق، أي أخذ صورة المخلوق تدريجيّا، ولا ينمو مادام في جلده، يعني أنّ جلده حبس له عن النّمو، فإذا تخلّص من جلده خرج منه مخلوق، ما هو المخلوق الذي يولد من جلد؟ فصرخ أحدهم، وقد سقط على الحلّ، أو سقط عليه الحلّ، واتّضحت الصّورة في ذهنه، وتراكبت أجزاؤها، قائلا: إنّها البيضة والفرخ، أو الفروج، أو الكتكوت. فأخذوا يقفزون من الفرح، ويتواثبون من بهجة الانتصار. وصاحب اللّغز جامد في موقفه، ينظر إليهم، ويندب حظّه. ولكن يعزّيه أنّ الأيام مقبلة، وللالغاز جولة، ولابدّ أنه سوف يتهيّأ له لغز يعجزهم حلّه، في يوم من الأيّام.

وهناك ـ يا بُنيَّ ـ شيء بين الالغاز وبين الالعاب، وهو مسلّ حقّا، ويمتدّ العمل به أيّاما، ولا يعرف

في نجـد، وإنما هي لعبة مرموقة في الحجاز، وهو «اليَدَس»، وهو من أجمل الألعاب، لأنه يعوّد على اليـقـظة والحـذر والتـنبّـه، ويحـارب الغفلة و«السّرَحان». يتّفق أثنان، أو أكثر، على الدّخول في لعبـة «اليدس»، ويبدآن، فإذا مدّ أحدهم يده بشيء إلى آخر، فعلى الآخر أن يقول: «في بالي» يعني أني متنبّه، فإذا لم يقل هذه الكلمة، قال له المُعطي: «يَدَس»، فتحسب عليه، ويعتبر أنّه وقع في المصيدة المنصوبة، والشّرك الموضوع في طريقهِ، ولك أن تنظر إلى من وقـع في الفـخ، وتسمـع صرخـات الانتصـار من المشترك والمتفرج، ولك أن تتصوّر وسـائـل الختل في محاولة شخص إيقاع آخر، هذا يتربّص، وهـذا يحاذر، وهذا يتهيّأ للختل، وهذا يوقظ جميع حواسّه لتتنبّه، وهذا يبحث عن الطّرق التّي تجعل مدّه يده بالشيء المُعطَى تبدو طبيعية، فلا تقابل عينه عين الآخر، خوفا من أن تفضح العين سرّ صاحبها. ومهما كان المُعطَى حذرا فقد يسهو، وقد يغفل، وقد يكون في حالة شاغله، كأن يقول له استاذه: «خذ الكتاب من فلان، واقرأ صفحة



منه»، فمع رهبة الموقف، ومفاجأته، ولأنه لم يذاكر، يقفز ليأخذ الكتاب من زميله فلان هذا، فينتهزها هذا فرصة، ويعطيه الكتاب، وبهمس شديد، حتى لا يسمعه الاستاذ، يقول له: «يدس»، فيقع عليه هذا وقوع الصخر، فمع ما هو فيه من همّ وكرب مما طلبه منه الاستاذ يشرب «اليدس». ويبرز المدرّس إلى فناء المدرسة مع تلاميذه، أو بعضهم وقد شمّر عن ساعديه، متهيّأً للوضوء للصّلاة، ويقول لأحدهم: خذ الأبريق، وصبّ على يديّ الماء، فيسرع أحدهم ليناول زميله الأبريق، مظهرا كأنه يريد أن يساعده، وبسرعة البرق، وبصوت خافت أجشَ، يشبه الفحيح، لما حمل به من أثقال النّصر، الذي شد بعض أوتار صوته، يقول له: «يدس». وهكذا يحاول الواحد اهتبال مثل هذه المواقف للأيقاع والتّوريط، حتى يُنقض هذا الاتفاق، أو يموت تدريجيا.

وأحيانا ـ يا بُنَيّ ـ يقضون أوقاتهم، في تذكّر ما قصّته عليهم أمهاتهم من قصص، فيها من التّربية



والعـبر ما تحرص الأمّهات على إيصاله إلى نفوس أبنـائهن، وتثبيتـه عن طريق التّكـرار، ويـردّده الصّغار إعجابا، أو لأنه أجدّ ما لديهم ممّا سمعوه عن أمّهاتهم.

ومن بين هذه القصص ما يسجّل مواقف الشّجاعة والرّزانة، مثل القصّة التي ترويها الأمّهـات عن أن «السّعلويـة»، وهي جنّيّة بشعـة، لما تكـوّم على جسدها من الصّوف الخشن، جاءت تسـير في ليلة من اللّيـالي المـظلمـة، واعترضت طريق شاب، رزين شجاع، وأرادت أن تخيفه، وظنّت أنه عندما يلمس خشـونـة شعـرهـا يدرك أنها جنّيّـة فيخاف، ويزوغ عقله عن «كرسيه»، ولكنّه خيّب أملهـا، لأنـه عنـدمـا أدرج يده على صوفهـا قال: «إنه لشعر ضاف» فادهشتها رزانتـه، وفوجئت برجاحة عقله، وأدركت أنّ سعيـهـا قد خاب، فقـالـت ردا على ملاحـظتـه: «إنّه لعقل واف». ويُروى أن



جملته : «إنه لشعر كاس»، وجملتها «إنه لعقل راس». وهي كما ترى - يا بُنَيّ - محاولة من الأمّهات لتهيئة أبنائهنّ وبناتهنّ لأحداث الزمن، وأن الفزع لا يأتي بشيء، بل يضيع أشياء كثيرة، وأنّ الثّقل والرزانة تكسب صاحبها شيئا كثيرا.

ولا أريد أن أبعد بك - يا بُنَيّ - عن مجال للّعب، وما كان يجري فيه، إلّا إذا نضب ما عندي من معينه، ولا يزال في البئر مستقى. وقد ذكرت لك أن الألعاب بعضها له أدوات، مثل «العجاوي»، «المداوين»، «الكعابة»، «الكبوش»، «وبربر» أو «الملعبة». ومنها ما ليس له أدوات مثل «طَبقَ زيزى» و «السّبت سبّوت»، ومثل «الكَبَت». ولا أريد أن أعدّد ما يدخل ضمن هذا القسم، أو ذاك، ولكنّي تذكرت مثلا مبنيّا على لعبة الكعابة، يردّده لاعبوها إذا لم يكن لدى بعضهم ما يلعب به مع الآخرين، وهو مثل رغم بساطته إلا أنّه يُعطي صورة سوف تجد أنّها مفيدة،



وستجد أنّك سوف تتمثّل بهذا المثل في أمور مهمّة في هذه الحياة. والمثل يقول: «سلّفني وألاعبك»، ومعناه يدلّ عليه، وكثيرا ما «قَشّ» المتسلّف الذي دخل اللّعبة ما مع مسلِّفه، رغم أنّه لم يكن معه شي،ء وخرج منها وليس مع الآخرين شيء. وهي صورة تتكرّر مع لاعبي الكعابة يوميا، وكلّ صغير في ذلك الزّمن يعرفها، فإذا سمعت المثل يقال من الجيل الذي سبق، جيل والدك، فاعرف أن هذا هو منشؤه.

ومرّة أخرى، أرأيت ـ يا بُنَيّ ـ كيف خرجنا من لعبة «الأِنن» إلى التعرّف على المعاجم، ثمّ إلى الألغاز، فانتقلنا من أمر له طبيعة خاصة، هي بكم أقرب، وأحرى بالقبول عندكم، إلى أمر له صفته المختلفة، وهو أقرب إلى أنفسنا، لطول العشرة بيننا وبين المعاجم. إنّ صلتنا بها مثل صلتكم بدليل التليفونات، مع الفارق في المحتوى، والهدف، والحصيلة.



نعود - يا بُنَيّ - إلى الحديث عن الألعاب، وإلى مجموعات اللاعبين من الصّغار، كما سبق أن وعدنا. إذا التفتّ يمينا وشمالا في أحد الأحياء، وملأت عينيك بما هناك من المجموعات الصّغيرة التي لا تزيد أحيانا عن اثنين اثنين، أو المجموعات الكبيرة التي تزيد عن هذا، فقف معهم وشاركهم اللّعب في الخيال، فقد فاتتك الفرصة أن تلعب معهم في الحقيقة. هذا إذا كان سنّك يناسب سنّهم، أما إذا كنت قد شببت عن الطّوق، فاحتفظ بما تتصوّر لأبنائك، وأبنائهم، ان شاء الله.

وإليك شيئا عن لعبة «الضّاع»، يجتمع عدد من الأشخاص، ويكوّنون حلقة، تتّسع دائرتها وتضيق بقدر ما تحويه من الأفراد، يجلسون القرفصاء، وجوههم متقابلة، ينظرون إلى داخل الدّائرة. وبين كل واحد والثّاني منفرَج ضيّق، يحرصون على ألّا يكون واسعا، حتى لا يجد اللاّعب مجالا لعينه أن ترى ما يجرى خلفه من اللاّعب، الذي مهمته أن يدور خلف الحلقة، وبيده «الطّرّة»، التي هي عادة



«غُترة»، أو حبل مجدول، يخفيه خلف ظهره، أو بين طيّات ثوبه، وقد جُدل أو بُرم، كما قلنا، حتى يكون نافعا ليضرب به، ويكون بمقام سوط لاذع. والشخص في دورانه يحاول، دون أن يلفت النّظر أن يضع الضّاع، أو الطّرّة، خلف أحد الجالسين، دون أن يُحسّ به، فإذا شعر هذا بأنه قد وضع خلفه أخذه بسرعة، وانطلق يجري خلف واضعه، ليضربه به. وواضعه يركض ليجلس في مكان هذا الذي قام يجري خلفه، قبل أن يمسكه، أو يضربه بالطّرّة، لأنه إن تمكّن من ذلك، قبل أن يجلس في المكان الشّاغر، خرج من اللعبة. وتستمرّ اللّعبة هكذا، حتى يخرج جميع أفرادها، فلا يبقى إلا إثنان، فيحاول كلّ منهما إخراج الآخر بالامساك به، ليصبح هو الفائز.

وتعاد اللّعبة، وتدور هكذا حتى يملّ اللاّعبون، أو يؤذّن المؤذّن لإحدى الصّلوات، أو يحين وقت وجبة الطّعام، أو وقت النّوم، أو يدخل أمر لم يكن في الحسبان. وهذه اللّعبة تحتاج إلى



اليقـظة والتنبّـه من جانب، والـذّكاء والحذق من جانب آخر، بل يدخل فيها - يا بُنَيّ - الغشّ، وهذا مجال للاحتجــاج والصّراخ، فأحـد المقـابلين لمن وضعت الطّرّة خلفه، أو من هو قريب منه، ورأى أنّها قد وضعت يحاول أن ينبّه زميله إلى ما تمّ، حتى يسرع في أخـذها، ويجرى خلف واضعها، وهذا خرق لأصول اللّعبة، وأمر غير مقبول، وقد يعتبر غشّا في أعلى المراتب، وقد يوحي بأن الغاشّ قد ملّ اللّعب، ويـريـد تبريـده، ورفعـه بهذه الـطريقة الملتـويـة. وأحيانا تجد بعض الجالسين يتبع بعينه الشّخص الذي يدور، وقد يلتفت ليرى إن كانت يد اللّاعب بالضّاع «الطّرّة» قد خليت، وهذا أيضاً يعتبر خروجا عن أصول اللّعبة.

وإذا وضع اللّاعب الضاع «الطرّه» خلف أحد الجالسين، وأكمل الدّورة، ولم يشعر به الموضوع خلفه، فإنه يأخذه، ويضرب به حتى يكمل الدّورة إلى مكانه.

ودعني أخـــبرك عن هامش مهمّ لهذه اللعبـة، فالأمّهات يكرهنها، لأنّها تنتهي بتمزيق «الغترة» أو «الإحـرام»، وهمـا غطاء الـرأس، ولو كان الأمر يتـوقف عند إحضارها وقد اتسخت، لهان الأمر، وتسومح في الضّرر المؤقت، مقابل المنفعة، وفرحة الأطفـال، ولكن تمزيق شيء من المـلابس أمـر لا يتســامح فيه، لرقّة حال النّاس حينئذ وضعفهم. ولهذا فلابد من قرص اذن الصّبي، أو صفعه على قفـاه، أو «دحجه» بين كتفيه، وهذا مهما تتابع لا يعكّر على الصّبي صفو اللّعبة ولذّتها، وسوف تبقى معه فرحتها، وبهجتها، إلى أن يأتي اليوم الثّاني، وقد يحلم بها وهو نائم، وقد يوقظ أهله من نومهم فزعين من صراخه على أحد زملائه في النّوم، فيزيد هذا من حنق والدته، وتقول ألم أقل لك إنّ هذا اللّعب لا يأتينـا بخير: أذًى للملابس، وضياع للوقت في النّهار، وازعاج باللّيل، وشغب مع أولاد الجيران. وتحمّـــل الأم هذه اللّعبـة مسـاوئ كلّ اللّعبـات الأخريات، وتجمعها في قضيّة واحدة، وترافعه بها



حتى يبحّ صوتها، وقد يعد بأنه سوف يسمع ويطيع، وهو ينوي أن يصمّ أذنه ويعصي، لأنّ صوت اللّعب و«البهذلة» أقوى صوتا من صوت أمّه وأبيه، إنّه صوت زملائه، وفيه من الجاذبية والسّحر ما ليس في كلام والدته، لأنّ كلام والدته ينهاه ويأمره، وصوت زملائه يدعوه ويرجوه.

وليس هذا هو الجانب المزعج للوالدين فقط، ولكنّ العراك الذي ينبجس بين الصّغار يقلقهما، وهذا العراك يأتي نتيجة اعتقاد حدوث الغشّ، أو المغالطة، وما يتلو ذلك من «مقاضب الشّوش»، و «المفاسلة» وهو اصطلاح في نجد، يماثله في الحجاز ما يقوله أحد الصبيين للآخر «برو» و «أنا مباريك»، وتعني المقاطعة، وتعني أن الشّخص للشّخص «زناخة»، ولو صرّفت كلمة: «زنخ يزنخ» . ورجعت إلى المعجم ربما اهتديت إلى عمق معناها! ويبقى الشّخص «مزاعلا» زميله أو «مباريا» له إلى أن يملّ أحدهما، أو يحتاج إلى الآخر، فيبدأ أحدهما «يخاذي» ويحجل حول الثّاني من بعيد،

ويتقرّب منه تدريجيا دون أن يهين نفسه، وكلٌّ منهما يعرف ما في نفس الآخر، ويجلس بجانبه، وينبش الأرض والتراب بعود يجده في الأرض، وما أكثر الأعواد، وما أكثر التراب، فالاسفلت لم يعرف في تلك الأيام في جميع أنحاء المملكة. ثم بعد فترة يجد أحدهما كلمة يمهّد بها، وقد تكون تعليقا على منظر رجل مرّ أمامهما، وغالبا ما يكون الحديث في صورة «غِيبة» فالرجل أعرج أو أحدب، ثم تنطلق الكلمات ما بين قول وجواب القول، ثم ينسجمان في الحديث دون أن يشعرا، وقد يلحظهما أحد، فيعلّق بأنّ فلانا وفلانا «اصطلحا»، وزال ما بينهما من «وقفة نفس» أو جفوة.

وليس هناك - يا بُنَيّ - في اللّعب بين هؤلاء الشّباب رهان عميق، وإنّما رهانهم دائما يدور حول الأيلام أو تفاديه، و«الطّرّة» هي الأداة، فإذا تراهنا فمن عشر ضربات بها، أو عشرين ضربة، يختلف في ضربها شخص عن شخص، والضّربة تعتمد على قوة الجسم، وعلى طريقة الجلسة التي يجلسها



الضّـــارب، وأحيـانـا مدى حنقـة، ومـدى قرب المضروب إلى قلب الضارب أو بعده، ومدى حرقته عليه. وقد تعزّ الغتر أيام الصّيف، فالصّيف ليس مثـل الشّتـاء، ففي الصّيف تختفي الغتر، ويختفي الحـذاء، حينئذ يتغيّر الجزاء أو العقاب إلى طلوع جبـل، أو الرّكض على رجل واحدة: «مَشي مَشِي على رجـل، والرجل الثانية مكسورة»[١] أو نزول قليب، ولم تكن الآن شربة الغازيّة معروفة وإلّا كانوا لجؤا إليهـا. وقـد يكـون الجـزاء، خاصّة إذا كان الصّبيان لعبوا لعبتهم وهم في الطّريق من البيت إلى المـدرسـة، أو من المدرسة إلى البيت، حمل حقيبة الغـالب، ومعهـا بعض التبكيت والهـزء، مما يجرّ أحيانا إلى العراك. ألم أقل لك - يا بُنيَّ - إن الشّيطان ينجـح مع الصّغـار مثلما ينجح والده مع الكبار، فأسبـاب العراك و «المضاربة» و «المهاوشة» أقرب إلى الأولاد من تنـاول الـوجبة، ولعلّ دم الشّباب

(١) يرفع أحدهم رجلا ويقفز بالأخرى، مسافة معينة. ويردد هذه الجملة.



الذي يجرى في عروقهم، فورانه سريع، «يطيشه» أقلّ محرّك، وأدنى عامل.

وإذا تحدّثنا عن اللّعب، وما فيه من طرق، وما يلزمه من أدوات، فإنه لابدّ من الأشارة إلى أنّ اللّعبة تتوقّف أحيانا على سِنّ اللاّعبين، واتقانها كذلك يتبع النّضج أو عدمه. وقد تكون اللّعبة بدائيّة، لتتناسب مع سنّ اللاّعبين الذين لا يستطيعون - يا بُنَيّ - الاستمتاع بغيرها، فإذا سقت لك بعض هذه الألعاب البسيطة فلي هدفان: أحدهما أنّي أسجّلها حتى لا تضيع، وقد كادت أن تختفي، بل إنّ بعضها لم يعد معروفا، ومن المؤلم أن نرى مظهرا من مظاهر الماضي يختفي، ويطويه النّسيان، ويلفّه التّطوير بغطاء سميك. والهدف الثّاني أنّك سوف تجد نفسك في يوم من الأيّام مضطرّا عندما تجلس مرغما، تلاعب آبنك، أو حفيدك، أن تبحث له عن شيء يناسب سنّه، وأن تَنزل لذلك إلى مستواه. حينئذ تدعو لي، وأنا لست في عجلة من أمري لمطالبتك من الآن بالدعاء،



فسوف أنتظر هذا الدعاء حيّا أو ميتا، لأنّ دعوتك حينئذ، إن تذكّرت، سوف تكون مخلصه، أما الآن فأخشى أنّـــك معي، ولست معي، وأنّـك قريب بعيد، ولو لّمحت لك بقصّة لدبّت فيك الحياة، ولا انتعشت، وأصبحت كلّك حواسّا، يقظة متوثّبة، ولاضـطررت أن أكون حذراً فيما أقول، حتى لا أقصّر عن مرمى المنطق، أو أقدّم ما يجب تأخيره، أو أؤخّر ما يجب تقديمه.

ولا أشكّ - يا بُنَيّ - أنّك الآن في انتظار قصّة، ورغم أن اللّعب والحديث قد يكون ممتعا، إلاّ أنّه لا يعــدل القصّــة عنــدك، والقصّــة ليست في «الخرج»[1]، أو جاهزه في «العيبة»[1]، يمدّ أحدنا يده إليها ويخرجها ويعرضها، بعد أن يختارها من عدد من مثيـلاتهـا، أو ينتقيهـا من مخزون من شبيهـاتهـا، وكـما رأيت فيـما مضى، أحيـانـا تأتي القصص تباعاً، وأضطرّ أن أوقف سيلها، وأعترض

(١) هما وعاءان من جلد أو صوف أو هما معاً، يضع فيها راكب البعير زاده وأشياءه، وقربهما منه وهو راكب يجعلهما مضرب المثل في سهولة التناول.



سبيـل زحفهـا، حتى لا تخرجنا بتتابعها بعيدا عما نحن بصـدده مما هو أسـاسي في حديثنـا، وأحيانا تستعصى كالعقاب في قنّة جبل.

على أيّ حال، لن أقصّ عليك قصّة - يا بُنَيّ - إلا بثمن، وهذا الثمن هو استماعك للنّصيحة أدخلها في حديثنا افتعالا، وهي: عليك أن تؤثر أقرباءك ممن هم في سنّك على نفسك، وأن تقدّمهم عليها، وأن تريد لهم ما تريد لنفسك، وأن تنسى نفسك لتـذكـرهم، وتضيّق عليهـا لتـوسّع لهم، وتتعبها لتريحهم، فإذا فعلت فقـد وصلت رحمك، وكنت أنت وهم مثل بطلي القصة الآتية:

وجّــه هشـــام بن عبـد الملك ابنـه على الصّائفه، ووجّه معه آبن أخيه، وأوصى كل واحـد منهما بصاحبه، فلما قدما عليه، قال لآبن أخيه: كيف رأيت آبن عمك؟ فقال: إن شئتَ أجملتُ، وإن شئت فصلتُ! قال: بل أجمل. قال: عرضت بيننا جادّة، فتركها



كل واحـد منّـا لصـاحبه، فلما ركبناها حتى رجعنا إليك[1].

والأفكار ـ يا بُنَيَّ ـ كما ترى، مثل تلّ من رمل، كلما أخـذت منـه تهاوى الـرّمـل ليمـلأ مكـان ما أخليت، فإن استعجلت في هذا أعجـل الرّمل في الانـدفاع، وإن تمهّلت تأنّى وتمهّل، وإن أخذت قليـلا حلّ محلّ القليـل قليل، والكثير كثير. وقد عقـدت العـزم (لاحظ الاستعارة في هذا التعبير، والاستعارات صور، وتذكّر المجاز الذي حدثتك عن اهتمام أحد المعاجم به، فالعزم كما ترى عقد كما تعقـد «الغـترة» أو الحبل، أو كما تعقد «الصّمادة» عندما تنوي أن تضرب بها أحدا) أن استوعب كل ما يخطر ببالي عن هذه الالعاب، وكلّ ما هو قريب إلى ذهني من هذه المسلّيات المثقّفات الملحّات على التّسجيـل والحفظ. وكـما قلت من قبل، إذا كان بعض هذه الالعاب بعيدا عن سنّك، ويقع خلفه،

(١) العقد الفريد ٢/٤٣١ .



وأنك تعدّيته وتركته، ولم يعد لائقا بك، في نظرك ونظر الآخرين، فهي بضاعة مزجاة، تهدى إليك، لتوصلها في يوم من الأيام إلى آبنك أو آبن آبنك، وسوف إن شاء الله تدعو لي، لأني وضعت في يدك، ويد أمثالك، سببا من أسباب السّعادة تتيحه لأبنائك وأبنائهم. وهي بضاعة كما ترى - يا بُنَيّ - لا تكلفك ثمنا للخزن، ولا أرضيّة جمرك.

من هذه الأمور التي كان الصّغار في الماضي، يزجون بها الوقت ويقتلون الفراغ، ويبهجون بها نفوسهم، ما كانوا يلجؤون إليه لبساطته: يجلس أثنان متقابلين، ومعهما شيء يمكن أن تضمّ عليه أصابع اليد الواحدة، كأن يكون قطعة عملة صغيرة، أو نواة ثمرة مثلا، ويعمد أحدهما إلى إخفاء يديه خلف ظهره، مخفيا النّواة في إحداهما، ثم يمدّها أمام من يلعب معه، ويطلب منه معرفة مكان النّواة منهما، وقد أحكم قبضة يديه، محاولا بكلّ ما يملك من أيهام أن يحيّر اللاّعب، ويحاول أن يوحي إليه بطريقة أو أخرى، بأنّها في اليد التي



ليست فيهــا، كأن يشــدّ شدّا واضحـا على اليــد الفـارغـة، ويحـاول أن يكــون امتـدادها أقلّ من الأخــرى، ويجعلهـا تتردّد بين الامتداد والقبض، ويصل به الأمر، أحياناً، أن يمدّ التي فيها النّواة، ويقــول هل قلت إنّها هنا، أو كأنّي سمعتك قلت هذا. وهذا الأمر قد ينفع إذا كان لعبهما لأوّل مرّة، أمّا، إذا كان كل منهما قد عرف طريقة الآخر، فهذا لا يجدي، وما على المختار إلّا أن يجتهد.

وللّذي يبحث عن النّواة، في إحدى القبضــتين، طرق يعتقد أنه بها يمكن أن يستدلّ على مطلوبه، بعضها حسّي، وبعضها نفسي، أما الحسيّ فبعضه قد يفيــد، وبعضه ما هو إلا تهيئة للأمر النّفسي، وأوّل خطوة هي جسّ القبضتــين، وعنــده أنّه إذا كانت القبضة قويّة في إحداهما فهذا دليل على أنّ داخلهــا شيء ، لأنّ الآرتكــاز، ونـظريّــة الثّقل، توجب هذا، ولكن لا يغيب عنه، خاصّة إذا كان قد عرف طرق صديقــه في التّضليــل، أنّ تشديد القبضة قد يكون مصطنعا، ويضيع الأمر بين قبض

وشدّ وتحايل، وحلّ التّحايل، وفكّ رموزه، ولا يبقى إلا النّواحي النّفسية، فإن نفعت، وإلا الحدس، والتخمين، والحظ.

ولتهيئة الجوّ النّفسي يعمد الباحث عن النّواة إلى جسّ شحمتي أذن صاحبه، كما فعل في لعبة سابقة، موهما أنّه إذا وجد أحداهما أقسى من الأخرى فهذه علامة مرجّحة، أو قاطعة أحيانا، في أن النّواة في اليد التي تلي شحمة هذه الأذن، والحقيقة أنه، وهو يقوم بهذه الحركة، يصرف انتباه زميله عن يديه، ويهتمّ بأذنيه، وزميله ليس مثل الحصان (اخترت الحصان رغم قصر أذنيه!) يستطيع أن يحرّكهما أو يشدّهما. وبهذه الخطوة يتيح فرصة لليدين أن تكونا بوضع طبيعي، وتبتعدان عن التشنّج الذي أراده لهما صاحبهما إمعانا في التّضليل، وقد يصدق حدس المخمّن نتيجة هذه الخطوة، فإن نجح فإنّ النّواة تنتقل إليه، وتستمرّ اللّعبة إلى أن يقطعها قاطع.

وتكملة الصّورة لهذه اللّعبة، أنّ الباحث عن



النّواة، في سبيل العثور عليها، وتهيئة المجال النّفسي لايجاد العلامات التي يحتاجها للاستدلال، ينقل يده، في مرحلة من المراحل، بين اليدين، قائلاً كلمة مع كل نقلة من الجملة الآتية: «حادي بادي سِيدي محمد البغدادي، شاله وحطّه كلّه بهادي»، وهذه الجملة، وهذه الحركة، تؤكّد أنّ الأمر لا يعدو التّخمين والحدس، وإلا فالسيّد محمد البغدادي، لم يتدخّل في وضع النّواة، ولا يدري عنها، هذا إذا سبق أن له وجودا البتّة، إن لم تكن أوجدته السّجعة، التي أعطته هذا الدّور. والسّجعة - يا بُنَيّ - قد تكون مسؤولة عما هو أكثر من هذا وأهمّ. لقد عزلت السّجعة يوما من الأيّام قاضي قم. فإن لم تكن قد سمعت بها، فملخّصها: أنّ أحد الخلفاء، أراد أن يسجع، وابتدأ الجملة بقوله: «يا قاضي قم، قد عزلناك فقم»، فقال القاضي: «والله لم تعزلني، يا أمير المؤمنين، وإنما عزلتني السّجعة».

على أيّ حال، عند الفحص والتمحيص في هذه القصّـة، وعند التمعّن والتدبّر في عقليّة الخلفاء، ومنـزلتهم، ومنـزلة القضاة، يطلّ الشكّ واضحا بجبينه عملاقا، في أن القصّة مختلقة، وقصد منها طرافتها، وليس فيها من الحقيقة إلا مجرد عناصرها: الخليفة والقاضي وقم. أما الحبكة فيحوطها الشّك.

ولا نريد - يا بُنَيّ - أن نقترب من بحر السّجع، فبحـره عميق، وليس له شواطئ قريبـة، ويحتاج الغوص فيه إلى أداة متقنة، وعدّة متكاملة، لأنّه فنّ له تاريخ، وله صور، وللأدباء في العصور المختلفة فيه آراء، لعلك في يوم من الأيام تمرّ بها. ولا أجرؤ الآن أن أفتح لك نافذة على السّجع خوفا من أن تهرب منّي، قبل أن تعرف عن طرافة هذا الفنّ، ولو انتظرت قليلا فقد يعجبك السّجع، خاصّة ما كان منه في مرحلة قوّة اللّغة، وبُعدها عن التكلّف. أو لعلّك تعجب بسجع الكهّان، واعجابك به ليس لأنّـه بعيـد عن زمنـك، ويدخل في نطاق الآثار،



ولكن للهدف الذي استوجبه، وهو التّأثير على النّاس في وقت تكون أنفسهم مهيّأة لذلك.

نعود - يا بُنَيّ - إلى الألعاب، ونبتعد عن سجع الكهّان إلى سحر يقوم به الأطفال، لا تعجل عندما تسمع كلمة سحر، فكلّ يأتي بحركات يوهم أنّها سحر، حتى الأطفال، وقد حذّرتك عدّة مرات في ألّا تستهين بهم، فلهم من الذّكاء المفرط، إذا أنصفناهم، واستمعنا لهم، ما يدهش. ما رأيك في اثنين يجلس أحدهما أمام الآخر وفي يده نواة، وقد وضعها في يده ليراها الآخر رؤية واضحة. تزيل أي شك في أنها في يده اليمنى، ثم يقبض عليها يده، ويُرِى صديقه، وهو يمرّر يده اليمنى من عضد يده اليسرى إلى ذراعها إلى قبضتها، وهو ينفخ في هذه اليد موهما زميله أنّ هذا النّفخ إنما هو لمساعدة النّواة، لتسير داخل الذّراع والعضد، وبعد عدّة رحلات لليد، يفتح قبضة يده اليسرى، فيجد الآخر أن النّواة فعلا قد انتقلت إلى يده اليسرى، فيفتح فمه دهشة لهذا العمل السّحري العجيب،



وما درى أن صديقه الذي كان غالبا يكبره بسنة أو سنتين أو أكثر، قد انتهز فرصة النّفخ، «فشفط» النّواة إلى فمه، ثم مرّرها بطريقة سريعة، وهو ينفخ اليد الأخرى إليها، وهكذا تم السّحر للسّاحر.

وننتقل - يا بُنَيّ - إلى لعبة أخرى: تجد ولدين أو بنتين قد جلستا متقابلتين أو متقابلين، وقد وضع كل واحد يده اليسرى على الأرض، وفرّج بين الأصبع الشّاهد والخنصر، ثم لامس بهما أصبعي الذي أمامه، فأوجد بين الأربعة الأصابع طريقا مقفلا، وشكلا يشبه شكل «المعين» في الهندسة، ثم يدرج أحدهما شاهد يده اليمنى في هذا المعين، جيئة وذهابا قائلا: «حدارجا بدارجا، من كل عين دارجا، والحبّة حبّة اللّولو وتلالي مضرب الدّيك، ياديك حسن الأدياك، طار الشّفَّح مع اللفَّح، لقيت عريبين، ياكلون ردّتين، أكلت معهم لقمتين، وقلت يا عمّي يا أبا حسين، كم على عيد رمضان؟ سبعة أيّام تمام، وحاديها وباديها وضرب



القوس يعدّيها، حْدَيّ بْدَيّ، يا ناصر دَيّ، أحذف قبّون إبن قبّون، غزيت للشّام، وْجِبت ظْبَيّ، وأكلته نيّ، وجان الذِّيب، حمر منقوش، يشد الكور على الباگور».

وينتهي الأصبع الشّاهد، الذي أخذ يروح ويجيء، والجملة تتلى، عند طرفي «المعين» باتجاه الشخصين، جيئة وذهابا بحركة مكوكيّة. ثم يبدأ دور الذي انتهت عنده آخر كلمة، ويستمرّ اللعب فترة طويلة، حتى يتقرر إنهاؤه باتّفاق الاثنين. ولاحظ - يا بُنَيّ - أني تصرّفت قليلا في كلمة «مضرب الدّيك» بتغيير حرف واحد دون أن أخلّ بوزن الكلمة، والسبب هو إخراج الكلمة من حيّز البذاءة، التي يحلو للصغار، أحيانا، أن يحوّروا الكلمات إليها، اقتسارا و«عفرتة» لأنّ الكلمات البذيئةَ تُدخل البهجة إلى نفوسهم، وتستدرجهم إلى مزيد منها، كلّ منهم يدلي بدلوه فيها، ولعلّ سبب ذلك هو الانطلاق، الذي تتسم به طبيعة الطفولة، وهم يحرّفون الكلمات، ويغيّرون

صورها، فتتبدّل معانيها، وتنقلب إلى شتمٍ وسبّ، بعد أن كانت مدحا وتقريظا، وتصبح نابيةً بعد أن كانت مؤدّبة ولائقة، لأنّهم يريدونها أن تتناسب مع جوّ المرح والضّحك الذي يطربهم، ويدغدغ عواطفهم وقلوبهم، أو جوّ التهكّم والاستهزاء، وهو يؤدّي إلى النّتيجة نفسها، وأحيانا اتّجاهم هذا يجعلهم يخطفون الكلمات ممن يلقيها من الكبار خطفا، لأنهم يريدون الكلمة التي توهّموا أنّها ما قاله القائل، أو لأن معنى الكلمة الأصليّة عزّ عليهم وتمنّع، فلم يفهموه، أو لأنّ الكلمة صعبت عليهم في نطقها فنحتوا منها غيرها مما سهّل عليهم لفظها، ووضح لهم معنى يعجبهم ويطربهم، ويأتي بالنتيجة التي يريدونها:

أسمع - يا بُنَيّ - هذه القصة :

مرّ شبّان في إحدى مدن نجد يركضون، في طريقهم إلى خارجها، أو إلى إحدى «الحارات»، وكانوا ينشدون الجملة الآتية:



«الحـربلّه درج درج، لابـده من صفعة فرج» (وكلمـة صفعة كلمة مؤدّبة نحتّها لك من الكلمة الأصليـة البذيئة التي كانوا ينطقونها، وتمّ لي هذا بتقديم حرف وتأخير آخر).

وكـان هنـاك عالم من أكبر علماء تلك المدينة، جالسا عند صاحب دكان هناك، فعندما سمع هذه الجملة ابتسم، والتفت إلى صاحب الدكان، وقال له:

لقد صرف هؤلاء «المُصْلَحون» الجملة الأصليّة الجميلة، بما تحمله من عظة وحكمة، وشوّهوها، ونقلوهـا من مظهـرهـا الجميـل إلى هذا المـظهـر البذيء، فأصل الجملة:

«الحرب إلى (إذا) «مِنُّه» دُرّج درج، لابدّه من ساعة فرج».

وآخرون صغار سمعوا أكبر منهم ينشدون:

«هيّا بنا هيّا بنا . . . نحمي البلاد بروحنا . . . ونعزّها بنفوسنا».

فعـزّت عليهم كلمـة «نعـزّهـا» نطقا ومعنى، فجـاؤا ببـديـل لها يتنـاسق مع مستوى عقولهم، ومنطق تفكيرهم، فقالوا: «ونعوصها». وهذه كلمة ليس لها معنى، إلا أنّ نطقها يوحي لهم بأنها كلمة نابيـة، وتلفت النّظر، وتوائم ما يحبّونه من كلمات تجلب سخط الكبـار، وكـأنهم يريـدون إثارتهم، ليروهم في طور الخـارج عن صوابـه واتّـزانـه ورزانتـه، وفي صورة المنفعـل المتشنّـج، ولعلّهم يعجبـون بهذا المنـظر، ويتلذّذون بهذه الصّـورة، لإدراكهم أنّهم السّبب في رسمها، وأنّ ضعفهم لم يعجزهم أن يؤثروا هذا التأثير.

وفي مكّـة تسمع من يقول لآخر: «لا يا تَنْق» وهي تحريف لكلمة «لا يا شيخ»، تقال لا عجزا عن نطقها الصّحيح، ولكنّها تقال في موقف أقرب إلى التبكيت أو الاستهزاء بين الصّغار، وأصبح الكبار يستحسنونها فيقولونها.

هذه ـ يا بُنَيّ ـ طبيعة الصّغار في ذلك الزّمن،



وأؤكّـد أنّها لم تتغـيّر في حقيقتهـا، وإن تغيّرت في مظهرها، ولو فكّرت في جيلك لوجدته قد سار في طريق مماثلة، فتتبّـع ما كنتم تقـولـونـه تحت هذا الظرف، تجد أنّه على النّسق نفسه، فطبيعة الصّغار أبعد عن التكلّف، وأقرب للصّلف، تجدها كذلك في كلّ زمن، وهي، كما قلت، إن لبست ثوبا مختلفا فالحقيقة تحته متّفقة.

نعود - يا بُنَيّ - إلى الحديث عن الألعاب، وما دمنـا، رغـما عنـك، نحاول أن نستقصي ما تخزنه الذاكرة، فسنسجّل ما نستطيع اقتناصه منها:

يمـرّ أحد الصّغار خلف أحد الجالسين منهم، وبهدوء وخفّة يضع ريشة أو ندفة قطن، على رأس الآخر، في غفلة من ذاك، فيقول واضع الرّيشة، أو من رآهـا توضـع: «وِش على راسـك يارورو؟» و «وش» أي: «ماذا» إشارة إلى ما تمّ فعله، دون أن ينظر إلى رأس من وضعت على رأسه الرّيشة، حتى لا يعـرف ذاك أنها على رأسـه ويبقى الأمـر محيّرا للجالسين، فكلّ واحد يظن أنّها على رأسه، ويبقى



الأمر مجالا للضّحك ممن عرف من هي على رأسه، حتى تكتشف.

وما أصعب أن تكتشف، لأن كلّ واحد يحاول أن لا يظهر أنه يظنّ أنها على رأسه، لأنها إذا لم تكن على رأسه، وحاول أن يمدّ يده على رأسه، ولم يجدها، ضجّ الباقون بالضحك، لأنّهم نجحوا في إيهامه له. وإذا لم يمدّ يده فقد تكون على رأسه. والمَخرج من هذا هو أن يحاول بعضهم أن يطأطئ رأسه موهما أنه ينظر إلى شيء في الأرض، مؤمّلا أن تقع الرّيشة أمامه، أو يرفع رأسه لينظر إلى السّقف، مؤملا أن تقع خلفه. أما من هو «رورو»، أو ما معنى الكلمة، فالله أعلم، فهي مما التقطه الأطفال، جيلا بعد جيل، ولا تتوقّع - يا بُنَيّ - أنّ أحدا منهم يهتمّ بالسؤال عن أصلها، أو يبحث عن مصدرها.

لعلّك تنبهت إلى ما قلته لك من أنّ الجالسين، المراقبين لوضع الرّيشة على رأس أحدهم، يحاولون



ألاّ ينـظروا في اتّجاه من هي على رأسه، إمعانا في التّضليــل، وهـو أمـر نفسي مهمّ، ويلعب دورا بارزاً، أحياناً، في أمور المجتمع، ويتبينّ أثره، في المجـالس التي تضم عددا من الأشخاص، يدخل داخلٌ هذا المجلس، فيجلس، وقد لا يعرفه بعض الحاضرين، فيميل شخص إلى من بجانبه، ويسأل عنـه، وبمجرد أن يطرح السّؤال يلتفت المسؤول جهـة المسؤول عنـه، فيجيب السّـائـل، فيعـرف المسؤول عنه ما تمّ بين الاثنين، وأنّ الحديث كان عنه، نتيجة لهذه الالتفاتة. وأحيانا يتكلم اثنان في مجلس، فيسرقـون النّظر إلى شخص، يتنبّه لهم، فيعرف أنّهم يتكلّمون عنه. فانْتَبِه لهذه، ففيها ـ يا بُنَيّ ـ احراج ما بعده احراج.

هذه الألعـاب، وهـذه المـظاهـر اختفت اليوم واختفى معها غيرها، ولم يبق منها إلا قليل في أذهان النّـاس، ولعلّها أصبحت بحديثنا جزء من تاريخ بلادنا في هذا المجال.



وليست وحدها ما اختفى من السّاحة، فهناك مظاهر أخرى، فهناك مظهر طريف اختفى - يا بُنَيّ - في نجد، وكان يخصّ الصغار، اختفى هو وما يعتمد عليه في وجوده، أو تلاشى هو ومحيطه، كان وقته عندما يبنى بيت طين جديد، أو حينما يجد الطّفل طينة على أثر مطر، أو طينة مهيأة لعمل ما، كأن تكون خلطة طين «لتشبيع جدار» أي «تلبيصه» أو «تنعيل» أرض، وهذه «ترويبة» من الطّين توضع على سطوح المنازل بعد أن يكون المطر انهكها وكشط منها طبقة، والتنعيلة تعويض لها. يأتي الصغير بأنامله الرقيقة، وكأنّه لم تعجبه صفحة الجدار المنعّمة، ويلتفت يمينا ويسارا، ليتأكد أن لا أحد يراه، خاصّة أصحاب الشّأن، ولا يدري أنّ أهله، إن كان عمله هذا تمّ داخل البيت، يعرفون مغرس أصابعه. يغرز الصّبي أصبعيه الشّاهد والأوسط من يده اليمنى في الجدار، تاليا العبارات الآتية، وهو ينقل أصبعيه من مغرس إلى مغرس:



«أرنـــب نطّت، من بين ثنـــتـين
تحســـب تلقـى، عشـر وثـــنـــتـين

ثم يعـدّ الحفر التي أحدثتها أصابعه، فيجدها زادت عن الاثنتي عشرة، أو نقصت حسب سرعته في العـد أو بطئـه، وهـو يحفرها. فيعيد الكرّة في غرس أصبعيه، أملا أن يصيب العدد الذي يتناسب مع ما تقوله الكلمات. وقد يؤدّي به هذا، دون قصد لذلك، أن ينقش صفحة الجدار السّفلى، ويزخرفها بفنّـه الـطفـولي هذا، ولـولا قصر قامته لأتى على الجدار بأكمله، خاصّة إذا كان معه فريق مثله من المخرّبين.

وبعض الـرّجـال الكبـار، إذا مرّوا من جانب جدار قديم به مثل هذا الوشم أو الكلف، لا يسعهم إلّا أن يبتسمـوا إمّـا لأنّهم يتذكّرون الزّمان الذي كانـوا يقـومـون فيـه بمثل هذا العمل أو لأنّ ما ينظرون إليه الآن كان بفعلهم هم أنفسهم عندما كانـوا صغارا، وما الجدار اليوم إلا متحف حافظ لهذا الأثر.

وأرجو - يا بُنَيّ - ألّا يحاول أحد أطفال اليوم أن يقلّد أطفال الأمس في هذا العمل، فمثل هذا لا يناسب جدار البيوت اليوم، لأنّ المنظر المقبول حينئذ في جدار الطّين نشاز في جدار الاسمنت، ولو فعل أحد هذا اليوم فانّه لا بدّ من إعادة تنعيمه، ولا ينال الآباء من ذلك إلا الخسارة، وضياع الوقت، واحتراق الأعصاب، «وتعكنن» المزاج، لا لأنّ الآباء اليوم غير الآباء بالأمس، في سعة الصدر، وتحمل تصرّفات الصّغار، ولكن لأنّ مجالات لعب الأطفال اختلفت، وتنوّعت، وتوفّر لهم ما يجعل مثل هذا العمل بدائيّا وعبثا، لا لهوا وتسلية، وصبيّ اليوم في نظر آباء اليوم مثل نظر بعض آباء الأمس! يجب ألا يعثر عليه ساذجا أو بدائيا، وهو يرفل في وسائل الحضارة، وتحيط به أسبابها، وتعيش معه، ويعيش معها. يريدونه - خلافا للقوانين التي وضعها الله لهذه السنّ - أن يكون رجلا بمجرد أن يبدأ المشي على قدميه.



وختام مسك الألعاب ـ يا بُنَيّ ـ سيكون لعبة من مكّة المكرمة وهل هناك مسك أطيب من ذكر مكّة ـ شرفها الله، يعطّر فم المتكلّم، وآذان السّامع. لعبة عاصر أبوك غروب شمسها، وأفول نجمها، وكانت لعبة للشبّان الكبار نوعا مّا، ويلعب الحظ فيها دورا رئيسا. لأنه يدخل في بعض مراحلها، وقد يأتي من الصّدفة ما يكون في صالح اللاّعب، أو غريمه. ولكن أهمّ من هذا الجزء الجزء الآخر الذي يعتمد اللاّعب فيه على إعمال فكره، وكدّ ذهنه، والتّخطيط الذّكيّ في تحريك أحجار اللّعبة. وهذه اللّعبة، لهذا تعتمد في مجملها على توفّر صفاء الذّهن وحدّة الذّكاء، ومخزون التجارب، مما يساعد اللاّعب على الرّبح، وتجنّب الخسارة.

اسم هذه العّبة: «الطِّيْبَان» جمع «طابَه»، وأدوات اللّعب الرئيسيّة فيها أربع قطع من الخشب المخروط، عرض القطعة ثلاثة سنتيمترات، وطولها عشرة تقريبا، وهي بشكل الموزة، ولكلّ قطعة من هذه القطع وجه وقاعدة، أو أسفل

وأعلى، أو وجه وظهر «قَفَى»، يلوّن الظّهر باللّون الأحمر أو الأبيض، أما الأسفل فيبقى بلون الخشب الأصلي.

ويحفـر في الأرض أربع حفر صغيرة بالعرض، ويحفـر ست أو عشر حفر بالطّول، وتكون الحفر الـطّوليّـة، عادة، بعدد اللاّعبين، ويوضع في كل حفـرة من الحفـر العـرضيّـة فقط حجر، ويسمى «الكلب»، والحفر الوسطى هي مجال اللعب، وهي التي تتحرّك فيها الاحجار، ترى هل سمّي الحجر كلبـا لأنـه يقضى على ما لدى الآخـرين، ويأكل نصـيـبهم. إنْ لَعِبتهـا ـ يا بُنَيّ ـ ورأيت من نهم الاحجار ما يجعلك توافق على هذا التعليل فيها، وإلّا فابحث عن السّبب في التّسمية. ويفيدك في التّرجيح أن تذكر ما قلناه، منذ قليل، عن مهارشة الكـلاب بعضهـا لبعـض. يبـدو ـ يا بُنَيّ ـ أنّ الكلاب والصّغار لها دور مشترك ومتّصل في هذه الحيـاة، فإنّـه إن لم يكن للكلاب وجود معهم في الحقيقة وضعُوه لها في الخيال.



تجرى اللّعبة بين فريقين، وتجرى بالتّساوي بينهما، وكل فريق له رئيس، يقوم بتحريك «الكلاب» في الحفر الوسطى. وتبدأ اللعبة بأن يقوم أحد اللاّعبين برمي «الطّيبان» إلى أعلى، ويتركها تقع على الأرض، فإن وقعت «الطيبان» على ظهرها قيل عنها «ستّة»، ويحرّك الفريق اللاّعب أحجاره بهذا العدد. وإذا وقع طاب منها على وجهه بدلا من ظهره وبقية الطيبان على ظهرها قيل عنه «طاب». ولهذا قيمة كبيرة في العدد، فيه يستطيع اللاّعب أن يجتاز خمس حفر. أمّا إذا وقع اثنان على وجههما، واثنان على ظهرهما فيعبّر عنه بـ (دو) أي اثنين.

وينجح اللاّعب الذي يستطيع أن يُخرج (يقتل) جميع حجارة الفريق الآخر، ويتم ذلك عن طريق تحريك الحجار «الكلاب»، كلابه هو، على أثر خطّة محكمة، مع استفادة ذكيّة ممّا تأتي به صدف الرّميات للطِّيبان.

وبهذا نختم - يا بُنَيّ - ما أردنا أن نثبته في ذهنك من ألعاب كان يلهو بها جيل آبائك، وأرجو أن تكون قد ألممت إلماما كاملا بما كان عليه شباب تلك الأيام، وما كانوا يقضون وقتهم فيه، ويعطيك ما قلناه فكرة، سريعة، ولمحة خاطفة، عمّا بنى أبدانهم وعقولهم، وساعد على تكييف تفكيرهم، ووجّه سيرهم، فأوصل إنجازهم إلى ما وصل إليه. ولعلّك لاحظت التّلاحم بين جيل آباء ذلك الزّمن وأبنائهم، وما كان يكنّه كل واحد منهم للآخر، ولاحظت ما قد يكون طرأ على حياة النّاس بعد ذلك من تغيّر واختلاف.

وإطلاعك على ما كانوا عليه محاولة لوصل فرعك بتلك الجذور، فلا حياة لفرع لا يغذّيه جذر، ولا يقيم أوده، ويسند وقفته، أصل. وهو محاولة أيضاً بتبصيرك بالامتداد الحضاريّ والتاريخي لأمّتك، ودفعك أنت وجيلك إلى أن تحاولوا أن تنافسوهم في الآنتاج، فتنتجوا خيرا مما أنتجوه، وتُقدّموا لمجتمعكم أفضل ممّا قدموه، فإمكاناتكم



أفضل من إمكاناتهم، والفرص متاحة لكم أكثر مما كانت متاحة لهم، أنتم أفضل في الجانب المادّيّ على الأقل، ولا أظن توفّر هذا الجانب إلا مؤثّراً على الجانب المعنوي. فثقافتكم أوسع من ثقافتهم على الأقلّ في أمور الدّنيا التي إن أحسنتم استغلالها جاءت لكم بخير الآخرة أيضا. لقد أتيح لكم أن تطلّوا من نوافذ واسعة على العالم، وأتيح لكم أن تجعلوا العالم يطلّ عليكم من آفاق تتحكّمون فيها كما تشاؤون، كمّا وكيفا، بطأ وسرعة، هدوءً وصخبا.

وكلما أردت أن أختم هذا الباب رأيت في عينيك الطّمع في ألّا أفعل، أملا منك في أن آتي لك بشيء يرفّه عنك، ولو «بحّرت» في عينيّ، وسبرت غورهما، لوجدت فيهما من الطّمع مثلما في عينيك أو أكثر، ولكنّي أطمع في أن أعطيك من المغذّيات الفكريّة، والمقّويات الذّهنيّة خلاف ما تطمع فيه من أمل في أن أقصّ عليك قصّة. والحديث عن الطّمع يذكّرني بقصّة لا أشك في أنك الآن قد



غامـرتـك البهجة عند معرفتك بأنّي سوف أقصّها عليـك، وأرجـو وأنت في غمـرة المفـاجأة المغشّاة بالفـرحة ألاّ تصرخ مثل صراخك وأمثالك عندما يدخل اللاّعب الكرة في الملعب، فالوقت من اللّيل الآن لا يسمح بالصّراخ.

والقصّـة التي سوف أرويهـا لك فيهـا عنصران تحبّهما حبّا جمّا الأول «جحا» والثاني «الطّمع» ولكنّها لسنّ أصغر من سنّك: وهذا قد «يقمع» الفرحة، و«يفثلها» قليلا كما «يفثل» المثاء شرابا مركّزا، وهي من قصص الجدّات:

يقال إن جحا طمع في أن يكون له جمل، ولم يمكن له من المال ما يساعده على شرائه، فتـوصّل بعقله الجحوي إلى أن يحصل على دجاجة، (لاحظ أنّي لم أقل يشتري دجاجة، لأنّي لم أسمع أنه أشترى شيئا من السيدة التي قصّت عليّ القصّـة). ثم أدخـل الـدّجاجة خلسـة في فنـاء دار جاره، واختفت، بين



الأغنـــام، فوطئتهـــا الأغنـــام، وداستهـــا بأقـدامهـا، فأخـذ يعـول، ويدعو بالويل والثّبـور، ولم يسكتـه إلاّ عطف جاره عليه باعطائه عنزا بدلا من الدّجاجة، وتعزية له.

أخـذ جحـا العنـز، وأدخلهـا خلسـة، أيضـاً، بين أبقـار جاره، وهي أبقار فارهة وقـويّـة، فداستهـا الأبقـار، وكسرت أضـلاعهـا، وأعـولت العنز قبل أن يُعول جحا، وملأت اللّيل صراخا وثغاء، وتلاحم صوتهـا مع صوت جحا وندبه، فتكوّن من صخبهـا موسيقى نشـازا، سهل معها على صاحب الأبقـار أن يرخص بقرة،ويستبدل الرّاحة والهدوء بالبقرة الحلوب.

أخذ جحا البقرة، وقد قطع ثلثي الطريق إلى هدفه، ولم يبق إلا الثلث. فأدخل جحا البقرة على فناء دار جاره الثّالث، ووضعها بين الجمال، والمكان يضيق عن أن يتّسع لها

وللجمال، والجمال رؤوسها عالية، فلا ترحم من تحتها، وأوذيت البقرة، وأخذت تثغي، وقضت على سكون اللّيل، وأجفلت الجمال باضطرابها وصوتها، فأخذت الجمال ترغى، فحدث ما أمّل جحا أن يحدث، لقد تنازل صاحب الجمال عن جمل لجحا. وأجره عند الله.

قلت لك، عندما أردت أن أقصّ عليك قصة جحا هذه، أنّك سوف تبتهج بها، وسوف تسرّ وتفرح، لأنها عن جحا وعن الطمع. وكلمة الفرح هذه تجعلني أطلب منك أن تذكّرني لأسألك، فيما بعد، عن أقصى درجات الفرح والبهجة التي يمكن أن تتصوّرها، وسوف لا أطيل عليك في اعطائك الجواب الآن، لأني لا أتصوّر، وأنت حديث عهد بالاختبار، أنّ في ذهنك بقيّة قوة تسعفك على التّفكير والاجابة الصّحيحة. أما إجابتي ففيها بركة لأنها تأتي ضمن حديث للرسول ﷺ:



روى مسلم في صحيحه أنّ النّبي ﷺ قال: «لله أشدّ فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعـــامـــه وشرابـــه، فأيس منهـا، فأتى شجـرة، فاضطجع في ظلّها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك، إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدّة الفـرح: «اللّهم أنت عبـدي، وأنـا ربّك. أخطأ من شدّة الفرح».

هذا الحديث ـ يا بُنَيّ ـ تجده في باب التّوبة من صحيح البخاري، وله صيغ مختلفة، هذه احداها، ومسك الختام به خير من قصّة جحا وأبقى.



وإذا مرضت فهو يشفين(١)

أيْ بُنَيّ !

أسمع عطسك وأنت بعيد قبل أن تصل إليّ، وعندما وصلت رأيت عينيك وقد بدا فيهما الاجهاد، ووجنتيك وقد أثّر فيهما السّهر، وأنفك يرشح، ونَفَسك يفحّ، وأنت منهك، ما أن وصلت حتى رميت بجسمك على الكرسي الوثير، ورميت ساعديك بارتخاء إلى جنبي الكرسي، وتنهّدت، وشعرت براحة وأنت تقول: آه. وكأنّ في هذه «الآه» حفنة من «الأوكسجين» أدخلتها إلى صدرك لتساعد الرئتين على عمق التّنفس الذي أصبح سطحيا لما تعانيه من «زكام» أو «نشلة» كما تسمّى أحيانا، أو «علّة الرّخوم» كما يطلق عليها أحيانا أخرى.

والزّكام، يا بُنَيّ، يمكن بدون «تجوّز» أو تجاوز

(١) القرآن الكريم، سورة الشعراء، الآية ٨٠ .



أن نسمّيه مرضا، ودع عنك الحياء الذي يسيطر على بعض النّاس، مما يبرّر تسميته «بعلّة الرّخوم» فهو جثّام على الصّدور، ملهب للأنوف، رافع لدرجة الحـرارة، مضخّم لشعب الـرّئـة والصّدر، منهك للجهد، «هادّ للحيل» مقلّص للقدرة على العمل، يتدخّل في إجادته، ويعترض سبيل إتقانه.

كان الجيـل المـاضي يخجـل أن يسـتريـح إذا استضاف الزّكام، ويقاوم في صمت، ومهما عانى فانّه يتظاهر بأنّ الأمر «بسيط» وعارض، وأنه مدبر حتى إذا كان مقبـلا. ولكنّ عينيه وأنفه وحركته، وصوت تنفسّه تفضح ما يخفيه. ثم يبدأ نشر هذه العلّة بين النّـاس، يسـاعـد على هذا قلّة الوعي، وضيق الأماكن، وضعف المناعة.

والـزّكـام صورة مخفّفـة مما أصبح معـروفـا «بالأنفلونزا» أو كما يقال إِنّه في الأصل «أنف العنزة» مسـتـقـىً من أنـف الـعـنـز، وهـو دائم البلل. والانفلونزا أصبح لها أهمية بعد أن عاثت في النّاس



منذ سنوات، وقتلت من قتلت باسم «الآسيوية» وزارت بلدانا عديدة وتركت خلفها مآسي وآلاما. ومن لطف الله أنّها وهي تدرج تضعف حتى لا تعد تؤثر على طفل.

وقد عاشت في نجد في عام ١٣٣٧هـ ومات بالاصابة بها خلق كثير، وسمّيت سنتها بسنة «الصخنة»، أو سنة «الرّحمة»، وقيل إنّ الزيجات بعدها قلّت، لكثرة من مات من الشبّان والشابّات، ويقال أيضا إن التّلاحم بين العوائل في المدن والعوائل في القرى، والتداخل بين الأسر، المشاهد حاليا، يعود بعضه إلى هذه الفترة، فقد وسّع أهل المدن البحث عن زوجة في القرى بعد أن شحّ الأمر في المدن، وكذلك فعل أهل القرى عندما واجهوا الصعوبة نفسها.

ومظهرها، حسب رواية من عاصروها، أنها تبدأ بحرارة، تؤدّي إلى آلام في المفاصل والظّهر، وانحطاط في الجهد، فإذا مرّ ثلاثة أيام على المصاب



نجـا باذن الله. ولعـل ارتفاع الحرارة المتناهي هو الذي كان يقضي على النّاس. وقليل من النّاس نجا منها، وأقلّ من القليل من لم يصب بها.

تحدّث أحد من عاصروها، فقال إننا كنّا نصلّي في كلّ فرض على ميت واحد، ثم ازداد العدد حتى لم نعد نصلّي عليهم في المساجد، بل نصفّهم صفّا في المقـبرة، ونصلّي عليهم هناك وندفنهم، وقد وصل الأمر إلى الحدّ الذي يكون المصلّى عليهم أكثر من المصلّين. وحفـرت قبـور جماعيـة، ليسهـل على الـدّافنـين الـدفن، وليتـوفّر الوقت، وإلّا فالجهد مبـذول، إلّا أنـه لا يكفي، لقلّة عدد الأصحاء، وتمكّنهم من أداء الـواجب، وكـان يدخـل وقت الصّلاة التالية وهم لم ينتهوا من دفن الموتى المصلّى عليهم بعد الفرض السابق.

وقد وصل الأمر ببعض النّاس أن ذهب وحده ليصلّي على «فرط» له، ويدفنه وحده، ولم يكن معه أحد وهو أمير المدينة. وخليت بيوت من النّساء،

وخليت بيوت من الرجال، وكانت العلامة للبيت الخالي من الرجال إذا مات فيه أحد أن تضع ساكناته «غدفة» «خماراً» أو غطاء وجهها معلّقا على حلقة الباب، فيدخل المارّون ويجدون الميت خلف الباب، فيحملونه للصّلاة عليه ودفنه.

وبقي في المدن والقرى عدد قليل ممن نجوا، أو حماهم الله من المرض، يعملون ليل نهار، احتسابا، ولو كانوا في زماننا هذا لأعطوا «نياشين» مميّزة، ولكن سلامتهم، وما يرجونه من ثواب عند الله، كان خيرا وأبقى.

لا يسع المرء - يا بُنَيّ - أمام ما يسمع عن هذا المرض وأمثاله ويرى كيف بتوفيق الله، ثم بوجود العلاج الحديث، أصبح هذا الوباء مقلّم الأظافر، مقلع الأنياب، مثلّم القوى، لا يسعه إلّا أن يحمد الله من قلبه على هذه النّعمة. فالحرارة المرتفعة لها ما ينزلها، وما يمنع ارتفاعها، وآلام الظهر لها ما يزيلها، والوعي في الوقاية، وبناء المناعة، أصبح من المسلّمات عند النّاس.



هذا الـوبـاء ـ يا بُنَيّ ـ لم يكن الـوبـاء الوحيد المخيف في المـاضـي، بل أشـدّ منه إرعابا، وأكثر حصـدا وبـاء «الكوليرا»، وهو ما يسمى في ذلك الـزّمن باسم «الشّوطة» وكان ضحاياها بالآلاف، خاصـة تلك التي انفجـر مرجلها في وقت الحجّ، حيث الازدحـام في المشـاعـر، وتـدنّي المنـاعة من الاجهاد والشّيخوخة بين الحجّاج. وقد عانى أهل مكّة والمدينة من انفجارات الأوبئة كثيرا، فلا تمرّ سنة في الماضي دون أن ترجف قلوبهم. ولكنّ الله كان يتـداركهم بلطفـه، فجعـل عنـدهم منـاعـة اكتسبوها مع الوقت، جعلها الله وجاء ووقاية أمام ما يرد مع الحجّـاج من أدواء، خزنتها أجسام أنهكها الفقر، وهصرت أعضاءها الشّيخوخة، وجاءت من بلادهـا وفي مقدّمة آمالها أن تلقى الله في الأراضي المقدّسة. وأن تدفن أجسادها في أراضيها الطّاهرة، وكنتَ ترى في الماضي أكفانا غطّست بماء زمزم، وأشبعت منـه، ونشرت في باحـة المسجـد الحـرام وسـاحـاته، يعود بها الحجّاج معهم إن لم يكن قد

كتب لهم أن يموتوا في مكّة المكرمة أو المدينة المنورة.

و «الشّوطة» ـ يا بُنَيّ ـ على اسمها، «تفوع» على النّاس وتشتعل نارها، ويشتدّ أوارها فلا تبقي ولا تذر، إلا من كتب الله له النّجاة، وكان حصدها سريعا، وجزلا، ومخلبها حادا ومستأصلا، وذراعها طويلا ومستقيما. ولا يبقى من الحجّاج إلا من كتب الله له أن يعود إلى أهله سالما، غانما حياته وأداء فرضه. وكانت مثل كل وباء فتّاك يدفن ضحاياها في قبور جماعيّة، وكانوا في مراحل، من شدّة المرض لا يغسلون، لأنّ غسلهم كان فوق طاقة النّاس، ولعلّهم كانوا يعتبرونهم مثل الشّهداء.

رحم الله من لقي منهم وجه ربه، فقد جاؤا استجابة لندائه، صافية نيّاتهم، متجرّدين من كل شيء إلا ما يلزمهم لحجّهم.

والحمد لله مرة أخرى أن تغيّر وجه الأمر الكالح، فلا الوباء إذا جاء، عنيف، ولا الوعي



معدوم، ولا الدّواء قاصر، لقد ضعف ميكروبه من كثرة ما توطّن في بعض البلدان التي ينشط منها، فإذا جاء فضحاياه من الضّعاف الأجسام، قليلي التغذية، فاقدي الوعي الصحي. وإذا كان يأتي بجنوده فإنّه يلاقي جيوشا أكثر عددا، وأوفى عُددا، وأمضى سلاحا، وأسرع للمواجهة، وأبطأ في الانسحاب. فالدّواء الذي يُقاوَم به من أحدث ما وصل إليه العلم المتعمق، والمحاليل تتلقىّ المريض بالكميات المطلوبة، والعناية والرّعاية الحدبة تحفّ بالمريض. ولسان التّوعية عال، ومتغلغل في المجتمع، يضع الألغام في طريق الوباء، ينسفه قبل أن يتوغّل في الدّيار، ويوقفه قبل أن يتعمّق، متابعا، ما قد يكون منه قد تسلّل.

اسمع ـ يا بُنَيّ ـ وصفا لمعركة بين الوباء وبين مقاوميه في إحدى السّنوات القريبة. لقد تسلّل مع فئة من الحجاج بخِفية، وتستّرت هذه الفئة على المرضى، ظنّا منها أنه لن ينتشر، ولكنّه لم يكن مع ظنّها، وقد أمنته فخانها، إذ سرعان ما أفلتت منه

منطلقات لم تغب عن رقابة هذا البلد، الواعي، السّاهر على راحة الحجّاج، المستعدّ لهم منذ أشهر قبل الحجّ، بكل ما يستعدّ به المحتاط المجّرب. ولم تبخل الدّولة على الجهات الصّحيّة، في سنة من السّنوات، بالاستعداد المريح للذّهن، المتعب للأبدان، فجيوش من العاملين الصّحيّين: أطّباء وفنيين، وأجهزةٍ ومعدّات، وأدوية ومحاليل، تهيّأ حذرا واستعداداً، بما يماثل ما يصرف سنويّا على منطقة متكاملة أو تزيد.

ظهرت حالة في مكّة هنا، وحالة هناك، وتلفّتت الرؤوس المتنبّهة، رؤوس صقور منّ الله عليها بقوّة البصر، وسلامة البصيرة، وبدأت عيادات الاسهال تدقّق، وأخذت الأجهزة تفتّش، ولم يبق على الصّعود إلى منى في يوم التّروية إلا أربعة أيام، والميكروب قد زرع مخبريّا، والمناطق داخل مكّة قد وزّعت لتراقب مراقبة دقيقة. وسرعان ما اتّضح الأمر، إِنّ وباء المرض موجود وإِنّ هناك من الضّحايا ما يقرب من الخمسين، وهم في فئة



بعينها، وأفلتت حالات إلى غيرهم. وكعادة المملكة في صراحتها أعلن الأمر بكلّ وضوح، وبدأ التّحرّك سريعا لتطويق الوباء، بعد أن عرف مكانه، واكتشف مصدره، وخطّ سيره.

كانت الخطوات متواكبة، والجهود متساندة، كان من بين أوائل الخطوات توعية النّاس للوقاية منه، واتخاذ الوسائل لحصره، وبذل ما في الوسع لمعالجة المصابين. كان من نعم الله على النّاس أنّ الوباء كان مكروبه ضعيف الفتك. إذا وجد مقاومة مستعدّة وكفاءة. ومن نعم الله أنّ المحاليل والأدوية كانت كافية ومعدّة في مواقع الحاجة، فلم تكن بعيدة مما قد يفقد القائمين قدرتهم على المبادرة.

كان الخوف من اعلان تفشّي المرض أن يرتعب النّاس ويرتبكوا، وقد يترك بعضهم الحجّ، ولكنّ الصراحة المعتادة غلبت، وكانت النّتيجة حسنة مثل نيّة المسؤولين. لم يرتبك النّاس ولم يرتعبوا، ولم يصابوا بالذّعر، واستمرّوا في السّير في خطوات أداء

الحج، كأنّ شيئا لم يكن، يتابعون أنباء المرض أولاّ بأوّل. ويطبّقون التّعليمات بدقّة. وخصّص لفئة الحجّاج القادمين الذين ظهرت بينهم الاصابة مكان في منى، ومكان في عرفات، بعد أن أعطوا من الأدوية ما يطهّرهم مما قد يكون ألمّ بهم منه، وهُيّئت المستشفيات، وسورع بنقل من يصاب، وبدأت الأعداد تزداد في أول يوم من أيام منى، والمكافحة مستمرّة ونشطة ويقظة. وجنّد القطاع الصحي بأكمله، وحفظت الطّرقات الخارجه من مكّة إلى غيرها، ولا يخرج إلا من اطمُئنّ إلى نظافة جسمه من المرض بما يعطاه من الأدوية المطّهّرة. ورُكّز في هذا الأمر على الحجّاج الذاهبين إلى المدينة، وكان العمل متقنا فلم ينتقل من المرض شيء إلى المدينة المنوّرة مع الحجّاج الزائرين.

وسرعان ما بدأ المرض ينزل سلّم طلوعه، وينحدر من مرتقاه، ويتضاءل بعد تطاوله، حتى قُضي عليه قضاء مبرما في أقلّ من شهر. ولم يزد المصابون عن الألف والموتى في حدود أربعمئة،



وأغلبهم من كبار السّنّ، أو ممن أصيبوا قبل العلم بوجود المرض، أو أناس توالت عليهم أمراض أخرى.

والاصابة بهذا المرض الشّوطة (الكوليرا) - يا بُنَيّ - يستحقّ أن يسجّل منها قطاع هنا، يريك جانبا منها، ويكشف عن طبيعتها. يبدأ المرض بقيء وإسهال، والاسهال شكله عجيب، كأنّه دقيق شعير في ماء، يجفّ بسببه الجسم من السوائل، ويحرمه من القوّة، ثم يدخل المرء في غيبوبة. فإذا وصل إلى المستشفى رأيت في الغالب جلدا على عظم. يسرع المسعفون بالبحث عن الوريد، وغالبا ما يختارونه في موطئ القدم، فتركّب المحاليل المرطّبة والمغذّية والمداوية، ثم يبدأ مفعوله بعد لحظات. وتنظر إلى وجه المصاب فترى العينين خافقتين، ولا يرى فيهما إلا تجويف بداخله كرة ثابتة، والجسم كأنّه «شنّه» وأظنّك تتذكر - يا بُنَيّ - معنى الشنّه، وهي القربة القديمة. ثم باذن الواهب القادر تبدأ العين تتحرّك تحت الجفن الذي

يغـطيها، فترتسم البسمات على وجوه المراقبين من المعالجين، ويعرفون أنّ المريض قد نجا، ثم يبدأ الجسد «يترطّب» و «يبشّ» فيه الماء والانتعاش. ثم تتركـز النّـظرات على العـين، فتبدأ الحدقة داخل مستكنّهـا «تجول» يمينا ويسارا، ثم بعد فترة يبدأ الجفن ينفرج، سامحا للعين أن تستقبل بشير الحياة: النّـور، ويرى النّاس شيئا من بياض الحدقة، ثم تتسـع الفـرجـه قليـلا قليـلا. وحتى عندما يَفتَح المريض عينيه، تشعر وأنت تراقبه أنّه لا يدري ماذا يجري، ولا أين هو، ولا ماذا جرى. ولا يتم معرفة هذا إلا بعد فترة.

ثم تدخل معالجته مرحلة ثانية، وينتقل من حوله إلى مريض آخـــر، ويبـــدأ العـــلاج، والانتـظار والتّحديق والتّوجس، ومسك الأنفاس، ثم الفرحة والاطمئنـان: دولاب عمل لا يفتر، يقبل واحد، ويـدبر آخر، يأتي مريض ويذهب مريض، حتى أذن الله لهذا الـوافد الثّقيل بالرّحيل مشيّعا بالحمد لله. والشّكر له على أن قدّر فلطف، وابتلى فرحم،



وسهّل أسباب القضاء على هذا الوافد بجدارة وبراعة. في وقت قصير، وفي مكان صعب.

لعلك ـ يا بُنَيّ ـ قد ضجرت من الاستماع للحديث عن المرض، ولكن لابد من الاستماع للحديث عن المرض، لتتبيّن نعمة الصحّة ومقدارها، فهل يُعرف الحار إلا بالبارد، والمضيء إلا بالمظلم، والطيّب إلّا بالرّديء، والمستقيم إلا بالأعوج، المتضادّات يبيّن بعضها بعضا. ولو قست على ما قلت عن هذه المتضادّات لكتبت صفحات. أمر مريح وضدّه مزعج، وأمر مقبول وضدّه مرفوض، أمر يفرح وضدّه يحزن، أمر يشدّ العزم، وأمر يثبّط العزم[1]، أمر يحسن أن يقال، وأمر يجب ألا يقال: أرأيت ـ يا بُنَيّ ـ الذي دخل على مريض ليعوده، فأخذ يعدّد الأشخاص الذين ماتوا بمثل مرضه، واسترسل، وحاول أحد الحاضرين أن ينبّهه، ولعلّه بعقله القاصر، وتفكيره السّقيم، لم

(١) هناك كتاب المحاسن والمساوىء للبيهقي، واسمه يدل عليه، فيه من الأضداد مفردات وجمل، أقوال وأفعال ما سيفيدك ان رجعت إليه.

يتنبّـه إلاّ إلى جزء من الاشـارة، فكـان استدراكه ضغثـا على إبّـالـه، لانّـه قال للمريض: لا تخف فليسـوا كلهم تألّموا عند الموت، ما تألّم إلا فلان، وهـذا ربما كان في صالحه، لأنّ الله أراد أن يطهّر ذنوبه في الدّنْيا».

ألم نقل يوما - يا بُنَيّ - إنّ الصّحّة تاج على رؤوس الأصّحـاء لا يعـرفها إلا المرضى، ما أصدق هذا القول، يا بُنَيّ، ومـا أكثـر ما يرد على أذهـان المرضى. لعله يرد بعدد مرّات المرض عند كلّ النّاس.

هي كلمة سرعان ما تبتذل عند كلّ جيل جديد، يطرأ على هذا العـالم، فالمـرض، يا بُنَيّ، يتكرّر، وعيادة المريض واجبة، والعزاء له لازم، ولا كلمة أوفى، ولا أصـدق، ولا أسرع نجـدة للزّائر، في زيـارتـه للمـريض، من هذه الكلمـة الصّادقة في معنـاهـا، المختصرة في مبناها، المنتقاه في كلماتها، المـوفّقـة في تركيبهـا. يقـولهـا قائلهـا، في أغلب الأحيان، ليس فقط مجاملة، ولكن إقرارا بما تحويه

من صدق، وما تمثّله من واقع، فهو مثل الذي «يعلوج» حلوى في فمه، مع كلّ تحويل لها من جانب من فمه إلى جانب يجد حلاوة الطّعم.

والمريض يشعر بمعناها عند مرض يلمّ به عابرا، أو مرض مقعد، أو مضنٍ. و «يتلمّظ» الصّدق فيما يقول، ويوافقه الموجودون عنده، الزّائرون له، أو المعتنون به، وفي ذهنهم، في تلك اللّحظة صورة أبهت من الصّورة التي يراها بها، يتصوّرونها من حالة كانوا بها ومرّت، ولم يبق لهم من عمق الشّعور بها إلا شعور زائر لمقبرة، جاء يشارك في دفن ميت، يشعر بالموت وفداحته عليه، وعلى من معه، ولكنّه بمجرد أن يخرج من سور المقبرة يبدأ بالبيع والشّراء، ولا يخطر الموت على ذهنه، وكأنه لم يمرّ به شيء عنه منذ قليل. هذه سنّة الله ليعمر الكون بمن فيه.

فإذا ما تقدّمت السنّ بالمرء، وفقد العافية أو بعضها، في يومه وليلته، وانتظمت معزفة الأمراض عليه، يسمعها (هذه الجملة) كلّ لحظة، ويراها كلّ



دقيقـة، ويلمسها كلّ ساعة، ويحسّها كلّما تحرّك، تأكل معه إذا أكل، وتشرب معه إذا شرب، تستيقظ معه إذا استيقظ، وتقلق نومه إذا نام؛ فالرّأس فيه ثقـل مزمن، وصداع مديم، والجسم مرضوض، والعضلات منهكه، والرّكبة لم تعد تحمل الجسم، وفيهـا من الألم ما يجعلهـا لا تنثني، فألم ممضّ عند الصعـود، وعنـد النـزّول، وعنـد القيـام، وعند القعود، السّير بمقدار، والوقوف بمقدار، وحتّى الجلوس بمقدار.

وهـذه أسنـان تقـافـزت من الفم، كما يتقـافز المتسابقون في حوض سباحة، أو يتقافز الرّصاص من بندقيّة صيد، ففقد صاحبها لذّة المضغ، وشهيّة الأكـل، وطلّق بعض الأطعمة بصيغتها السّابقة، وأصبحت تطحن له بأسنـان طاحـونـة المـانيّـة أو أمـريكيـة أو فرنسيّـة أو يابانيّة، ولم تعد له تلك الأسنـان التي ركّـز جذورها رب الجلال والعزة، راسخة راسية، ورَصفَها مثل عقد اللؤلؤ، بتنظيم محكم، وطلاء «لاَصِف» لامع، وزوّدها بما يحميها أو يساعدها على الحماية.



وهذه عين، لم تعد بحيويتها السّابقة، فصفاؤها تعكر، وقوّتها ضعفت، وبريقها خَبَا، ورمشها تساقط، وجفنها ارتخى، وجولانها في محجرها تباطأ، وسوادها فارقه حَوَره، وبياضها عزفت عنه نقاوته، وأصبحت العين بحاجة إلى نظّارة صناعيّة، تتوكّأ عليها لتصل إلى الحرف، ولتعبر الطّريق، ولتنظر للأفق، ولتميّز النّاس والأشياء، ولتفرّق بين هذا وذاك، وتمتّع روح صاحبها بأحفاده و «أشباههم» وشياتهم.

وتلك أذن أصبحت تجذب الرّأس والجسم معها لتسمع ما يقال، بعد أن كانت تسمع خرير الماء تحت الأرض، وحديث المهج في النّفوس، وبعد أن كانت تسمع دبيب النّمل في جحورها، وتتابع النّفس في الرّئة، وخفق القلوب في الصّدور. لم تعد اليوم تسمع الصّراخ ولا الهدير، الضّوضاء عندها هدوء، والحديث صمت، والصّراخ أفواه تفتح على مصراعيها وكأنّها فيلم انقطعت حبال صوته، وتوقّفت موجات الكلام فيه. لم تعد الأذن على صلة

بالرّأس في تناسقهما في الالتفات والاستماع، هذا في جهة، وتلك في جهة، ما لم يعضّد المتكلم قوله بوكزة أو اشارة، وما لم يضع الأصمّ سمّاعة هي للبئر مثل الدّلو لا ماء إلا به، خلافا لماء العيون المتدفّق، والشلاّل النّازل، والنّهر الجاري.

ويأتي دور الرئتين فقد أصبحتا لا تتحمّلان طموح الجسم، فصاحبهما يلهث من صعود «زلفتين» من زلفات الدّرج، وخطوتين من خطوات السير، وكلمتين من كلمات التّعبير، ولقمتين من وجبات الطّعام. وصاحبهما كالصّاعد للجبل، وقاطع المسافات ركضا، والمتكلّم ساعات بصوت عال. يدخل الدفعة على الدفعة من النّفس، تتصادم الدفعتان، لا تتكامل الأولى في الدّخول حتى تقابلها الأخرى بالخروج.

والسّكّري داء أصبح له شأن في هذا العصر، وصاحبه في جهاد، إن أكل فقد يخالف التّعليمات الطّبيّة، وإن لم يأكل وقع فيما خاف منه، فهو في كلا



الحـالين قلبه في وجيف، وباله في شغل، وزيارته للطّبيب منتظمة، ومفاجئة، وللمعامل متتالية. وله دور طبّي يقوم به يوميا، لا «يفخته»، ولا يهمله إلا بثمن باهظ.

والقلب الذي لم يعرفه النّاس من قبل إلا مربطا للحبّ، ومنطلقا للعشق، ومربعا للودّ، ومستودعا للعواطف، ومأمنا للدّعه. مع ما يغزوه من سحائب الحقد، وما يمرّ به من دفقات البغض، وما يعتريه من صادفـات الكـره، ومـا يسـوّده من غاشيـات الحسد. أصبح اليوم ضعيفا لا أمام العاطفة، ولا أمام التـوسّـل، ولا أمـام الاستجـداء أو التقـرّب والتـزلّف، وإنّـما أمـام تخاذل العضلة، التي هي كيانه، وانسداد الشرايين التي هي مسارب حياته، تهاجمـه الجلطة فيستكـين، ويتجـاوب معـه سائـر الجسد، ولا غرو فهو المضغة التي يصافح انتاجها كل بقعة في الجسم، حقّها منه بقدر دفعه الدّم لها، فمنه لها القوّة والنّشاط، ودوام الحياة.

أُبَيَّ

يا بُنَيَّ، نقلتك من المرض، وثقل الحديث فيه إلى جانب منه ليس أخفّ، ولكن لي هدف، يا بُنَيَّ، أريد أن أعوّدك على تحمّل قبول ما لا يعجبك، لأنّ الحياة فيها الكثير من هذا، وإن لم تتعوّد من الآن، وغصنك غضّ، وإهابك فضفاض يقبل مثل هذا، فإنّك تنهار في المستقبل إذا جوبهت بما تكره، أما إذا كانت لك تجربة بتجرّع دفعات قليلة من الصّبر والتحمّل، فإنّها تعطيك مناعة، والمناعة هنا هي المبرّرات التي تنبع من نفسك، وتقنعك بقبول ما يبتليك به الله عن طريق النّاس والزّمن، فصوت في داخلك يقول تحمّل، فهذا ليس أسوأ مما مرّ بك في المناسبة الفلانيّة، وقد أصبحت ذكرى، لم تترك خدوشا تُرى، أو أنّ زمن هذا الثّقل قصير، وتحملّه يعفيك من مستلزمات عدم الصّبر فيما لو لم تصبر. هذا وأمثاله ممّا يستقرّ في نفسك، وتعتاد عليه، ويكون صخرة تتكّسر عليها هجمات الزّمن مما لا ترغبه منه.



فإذا كنت اقتنعت بما قلت فالحمد لله أن فتح ذهنك لما فيه فائدة لك تستقرّ فيه ولا تبرحه، وإذا لم تكن اقتنعت، ولكن وجدت أنه لابدّ لك من التّسليم، فهذا أيضاً، يا بُنَيّ، مظهر من مظاهر الفائدة لما سوف يقابلك في مستقبلك مما لا بدّ لك من التسليم به، حتى لو لم تقتنع، والفائدة في التّسليم أو الضّرر يتوقّف على المسلّم به والمسلّم له، وظرف التّسليم.

نعود إلى ما كنّا فيه من تقصيّ بعض مساقط الأمراض في الجسم، ولعلّ الكبد صاحبة حقّ في أن نعطيها ما تستحقّه، فالكبد، يا بُنَيّ، وما أدراك ما الكبد، أخذت حقّها من الوصف في الماضي، فقيل عنها إنّها حرّى، وما أكثر ما قالت النّائحات: «واكبدى»، وما أكثر ما كانت الكبد مصبّ الغضب في الحروب، ومرمى السّهام لنبال الحقد والبغضاء، فيها، أو وسائل الدفاع وتلقّي التّشفّي، فقد قُضمت أكباد بالأسنان، ولِيكت بالأفواه، ولم تكن

حينئذ أسناناً تقضم كبدا، أو أفواهاً تلوكها، ولكنّها كبد تقضم كبدا، احداهما جنودها الأسنان، والأخرى عسكرها لهب التّشفّي.

أمّا اليوم فالكبد آفتها التّشمّع، ومصيبتها التّليّف، أمّا عن طريق الآثم، أو عن طريق تعاطي الأدوية، أو نتيجة أمراض في الغالب في الصّغر، أو عن طريق عامل سلمي، مثل شرب القهوة. هذا في الماضي، أمّا اليوم فقد أصبحت الكبد السّقيمة تقام ويحلّ محلّها جديدة، تعطي المريض الميؤوس منه أملا جديدا في الحياة، وتفتح له أفقا واسعا، كاد أن يقفله اليأس برتاج أبديّ.

والمعدة، يا بُنَيّ، بيت الداء من قديم، قرحتها لم يسلم منها أحد، إما لمسا خفيفا، وزيارة ملمّة، أو سكنا واقامة دائمة، تصحبها معاناة ممضّة، تتلوها عمليّة، تأتي على جزء من المعدة، أو تفصل الحالب، وتوقف المحلوب، ويصبح غذاء الرّجل مثل غذاء الرّضيع.



والأمعاء لها قرحة، يا بُنَيّ، مثل المعدة، لها مثل آلامها، وإشقاء وتسهيد مثل إشقائها وتسهيدها، تحرم المصاب بها من لذيذ الطّعام، ومتنوّع الغذاء، وتحميه إلّا مما يقيته في حدود صفات معيّنه. ومن نجا من قرحة المعدة فقد لا ينجو من قرحة الاثنى عشر، والحمد لله أنه ليس الثلاثة عشر، وإلا دخل الأمر عند بعض النّاس في حدود التّشاؤم.

والكُلى، وليست إلا من أكثر الأعضاء شأنا، لطف الله فأوجد لعلّتها دواء، وبقدر عظم مصيبة عطبها فقد يسّر الله علاجها، وجعل نسبة نجاحه مرتفعة. فقد تقدّم الطّب في تفتيت ما يتجمّع فيها من حصى، وطرد ما يترسب فيها من رمل. وبهذا فقد نظر الله إلى من يعاني منها نظرة لطف وعطف.

وغير هذه وتلك أعضاء توجَع، وأدواء تحِلّ، وآلام تُعانَى، وأوجاع وأوصاب، وأمراض أو أعراض أمراض. وفقد حواسّ، ونقص مناعة، وسمنة متناهية، وضعف شديد. لا يأمن المرء في

حياته من هزال بعد قوّة، وصفرة بعد تورّد، وعشًى بعد قوّة إبصار،وصمم بعد حدّة سمع، وعرج بعد استقامة مشي.

ويقول الشّيخ بعد هذا، وهو يرى هذا: «الصّحة تاج على رؤوس الأصحّاء لا يراها إلاّ المرضى». ويؤمّن النّاس، والصحيح منهم يرى مؤدّى هذه الجملة باهتا، ولا «تتحبّر» الصّورة، ولا تتّضح إلا عندما يمرض، حينئذ تتسلّط عدسة مكبّرة على هذه الجملة فتبيّنها، وتجلى دقائقها، فلا يفوت المريض منها زاوية، أو منحنى.

لا بدّ، يا بُنيَّ، أنّك في منتهى السّأم مما ذكرت لك، لا لأنّه غير مفيد لك، ولكنّك في شوق إلى قصّة طريفة ترفّه بها عن نفسك، وحتّى الآن لم أجد ما يتناسب مع المقام. ولكن هل تذكر كيف بدأ حديثنا الذي جرّنا دون أن ندري إلى الأدواء والأدوية، والحديث فيها ليس مما يبهج النّفس؟ لعلّك تجد في السّؤال مدخلا للّوم أو العتب،



فتقـول: «كيف أتـذكّـر، وقـد ملأت رأسي بهذا الحـديث الذي لم يتخلّله ما يردّ الرّوح». على أي حال أنـا أذكّـرك به، وأذكّرك أنّ ما برأسك ليس منّي. لقد كنّا نتكلمّ في بدء الأمر عن الزّكام الذي أطلّت بوادره عليـك، وأخـذت تعـطس بطريقـة متوالية. وهذا هو الذي ملأ رأسك.

ولعلّك، يا بُنَيّ، لم تأخذ حذرك من البرد، فأخذ منـك مأخذا جلب لك العطاس، وأرجو ألا تكون «علّة الرخوم» قويّة. فتوصلك للفراش. وعليك بما قاله أحد الفلاسفة عندما سئل في أمر البرد والوقاية منه قال:

«ينبغي للعـاقـل أن يتّقي الـبرد في أول الشّتاء، وفي آخره، فقيل له: وفي وسطه؟ قال: ذاك يتّقيه العاقل والأحمق»(١).

على أيّ حال لقـــد قلنـا كثـيرا عن الأمـراض البدنيّة، وفي هذا فوق الكفاية. ولكن أدواء الروح

---

(١) المحاسن: ص ٢٩٤.



لم نتكلّم عنها، ولن أطيل فيها، ولكنّي أقتطف ما قاله بختيشوع الطّبيب للمأمون، قال له :

«لا تجالس الثّقلاء، فإنّا نجد في كتب الطّبّ أنّ مجالسة الثّقيل حمّى الرّوح»(٢).

إنّه مصيب حقّا فيما قال، فلا يُمرِض الرّوح مثل الثّقيل، وفي الأدب العربي عن الثّقلاء شيء كثير، ولعلّ ما تحمّله الأدباء منهم هو ما جعلهم ينفّسون منه بالتّدوين :

«أتى رجل ابن المقفّع في حاجة، فلم يصل إليه وكان مستثقلا له، فكتب بيتا في رقعة، وأرسل به إليه(١) :

هل لذي حاجة إليك سبيل
وقليل تلبّثي لا كثير

فوقّع إليه :

أنت يا صاحب الكتاب ثقيل
وقليل من الثّقيل كثير

(٢) المحاسن : ص ٥٨٩ .

(١) المحاسن : ص ٥٨٩ .



فأجابه الرجل :

قد بدأت الجـواب منك بفحش
أنت بالفحش والبـذاء جدير

فضحك وقضى حاجته.

وقيـل لأحد الحكماء الأقدمين: «ما بال الرجل يحمل الحمل الثّقيل، فلا يعيبه، ولا يحمـل مجالسـة الثّقيل؟ فقال: «لأنّ الحمل تشترك فيه الأعضاء، والثّقيل تنفرد به الروح»[٢].

وقيـل أنّ أبا هريرة إذا رأى ثقيلا قال: «اللّهم اغفر له، وأرحنا منه»[٣].

وقيـل إنّ ثقيـلا قال لأعمى: «إنّ الله لم يأخذ من عبد كريمتيه إلا عوّضه عنهما شيئا، فما الذي عوّضك؟».

قال: «أن لا أرى أمثالك»[١].

(٢) محاضرات الأدباء : ص ٢٢٧ ، والزمرّد الفائق : ص ٤٤ .
(٣) محاضرات الأدباء : ص ٢٥٧ .
(١) قارن هذا بما ورد في الزمرّد الفائق بين أبي حنيفة والأعمش ص ١٦ .

والحـديث عن الثّقـلاء، يا بُنيَّ، يطول، لأنّ عددهم عبر الأجيال كثير، حتى لو لم يكن عددهم كثيرا فالثّقل حمل، وليس ثقلا على الأجسام، لأنّها تتحمّـل، وتسـتريح، وينسى صاحبها ما مرّ بها، ولكنّ ثقلهم على النّفس والـرّوح، ومـا يخدش النّفس يترك فيهـا ندوبا، وثقل الدّم وخفّته طبيعة يضعها الله في الانسان، تجد هذا منذ كان طفلا وهو خفيف ظلّ، وتجـد آخـر خلافـه، ظلّه أثقـل من الجبال الرّواسي، وألسنا، يا بُنيَّ، الآن في الحديث عن الأدواء، وثقل الطّينة يبدو أنّه داء ليس له دواء محدّد، ويحتـاج المـرء أن يتصرّف تجاهـه حسب الظّروف واللّحظة، وحسب الثّقيل ومدى ثقله.

استمع، يا بُنيَّ، إلى هذه القصّة، واحكم أنت وجيلك فيها، أليست تجلب مرض القلب، وتسبب السّكتة:

قال أبو العبّاس المبرد: ضاف رجل قوما فكرهوه، فقال الرجل لآمرأته: كيف لنا أن



نعلم مقدار مقامه؟ فقالت: إلق بيننا شرّا، حتّى نتحاكم إليه. ففعلا. فقالت للضّيف: بالذي يبارك لك في غدوّك غدا، أيّنا أظلم؟ فقال الضّيف: والذي يبارك لي في مقامي عندكم شهرا، ما أعلم[1].

لهذا، يا بُنَيّ، قيل إن رؤية الثّقيل هي العمى الأصغر، وقيل للأعمش: لم عمشت عينك؟ فقال: من النّظر إلى الثّقلاء[2].

هل تصّدّق، يا بُنَيّ، أنّ بعض الثقلاء أحيانا يستجيبون لطلب خفّة الدّم، أو على الأصح خفّة المقام، ولعلّ هذا النوع من الثّقلاء يكون غافلا عن ثقله، فيتنبّه إذا نبّه، فبعضهم لا بدّ أنه لا يخلو من نقطة دم حرّ في جسمه تفيده، لأنّ الحرّ تكفيه الاشارة، قبل أن تتطوّر إلى صفعة اليد على صفحة الخد:

---

(١) الأذكياء: ص ١٣١.

(٢) الزمرد الفائق: ص ١٦.



طوّل ثقيل المقام عند رجل، فلما أمسى اللّيل، وأظلم البيت، لم يأته بسراج، فقال الثّقيل: أين السّراج؟ فقال صاحب البيت: إنّ الله تعالى يقول: ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾. فقام. وخرج[1].

ماذا، يا بُنَيّ، لو اختلط ثقل الدّم مع السّياسة؟ ما هي الحصيلة التي تخرج منهما؟ اسمع هذه القصّة، وستعرف الجواب:

أكبّ رجل من بني مرّة على مالك بن أسماء، يحدّثه في يوم صيف، ويغمّه، ويثقل عليه، (أضف إلى هذه الخلطة رائحة العرق، وسوء النّفَس، وسماجة المفاخرة، لأنّ الراوي قال: «أكبّ عليه»).

ثم قال له: أتدري من قتلنا منكم في الجاهلية؟ قال: لا، ولكنّي أعرف من قتلتم

(١) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٢، الزمرد الفائق: ص ١٠٣.



منّا في الإسلام. قال: ومن هم؟ قال: أنا، قتلتني اليوم بطول حديثك، وكثرة فضولك[1].

أيّا كان تصـوّرك، يا بُنَيّ، للأمر فالخلطة التي ذكرتها لا يمكن تحمّلها أو على الأصحّ بلعها مادامت خلطة!

وكما قلنا قبل ذلك، إنّ ثقل الظّلّ داء، ترى هل يجوز لنا أن نقول: إنّ خفة الدّم دواء، إذا صحّ هذا فلن يرضيك بعد أن أمطرناك بسيل من أخبار الثّقلاء، ووابل من ثقلهم، ووداء من مخزونهم، إلا أن نداوي ذهنك وسمعك بأخبار خفيفي الظلّ، وهذا باب واسع، وطريق طويل، يمرّ سالكه بأشجار ذات أفنان، لا يُمَلّ السّير فيه ولا السّرى، ولا النّوم في أفيائها إذا هجم الكرا. وعليّ أن أختار من بين ما علق بذهني من أخبارهم، وملحهم، ما يناسب المقام.

---

(١) عين الأدب: ص ١٩٢.

وخفّة الرّوح تأتي أحيانا من الاقدام على «المقالب» اللّطيفة (اللّطيفة في الأصل يقصد بها القليلة أو الصّغيرة أو الخفيفة)، أو من الرّدود الحاذقة، والتعليقات الباسمة (أقصد التي تجلب الابتسامة، بل تقتسرها أحيانا .

هناك شريح القاضي، وهو خفيف الظّلّ، لمّاح ذكي، له قصص مدوّنة في هذا، وأصبح مثل جحا، أو أحد الطفيليين، تُعلّق عليه قصص لم تحدث منه، ولكنّها تجانس ما اشتهر به، وما عرف عنه. ويبدو أنّ النّاس في كل زمان يفرحون بالمشجب من البشر، يكتشفونه ليعلّقوا عليه شرائح أفكارهم لتُقبل، لأنّهم بغير ذلك يعرفون أنها سوف ترفض، أو توضع تحت المحكّ وتكون عرضة للرّفض والتّجريح .

والنّاس في ترويج القصّة لهم شعور نفسي، يطلق أحدهم الأشاعة، أو يؤلف القصّة، فإذا لم يكن واثقا من نفسه، وقبول النّاس لما يقول علّقها



على مجهـول أو معروف، والمجهول أحيانا أفضل له، لأنّه يأمن من متابعة من نسبت إليه، والنّاس يخدمونه في محاولة إلصاقها بمن تتناسب مع طبيعته، وقـد يكتفـون بابقـاء ذلـك في ذهنهم، ثم لا يفتأ شخص أن يُلبسها آخر بعد أن أبعدت عن مخترعها الأصلي، فيخدم بذلك قائلها أو قاصّها المخترع. ومثـل القصص مثل كرة الثّلج المتدحرجة، يكبر حجمها مع تدحرجها، وقد يسمعها صاحبها بعد مدّة فينكرها بعد أن تغيرت ملامحها، إلا إذا دوّنت، فقد يبطئ زمن تغيّرها، سواء بالتّحسين أو التّشويه:

قيل إن شريحا خرج من عند زياد، وهو مريض، فأرسل إليه مسروق الأجدع رسولا يسـألـه: كيف وجدت الأمير؟ قال: تركته يأمر وينهَى، يقصد يأمر بالوصيّة وينهى عن النّياحة(١).

وقيل إن عديّ بن أرطأة أتى شريحا، وهو

(١) الأذكياء: ص ٦٤.

في مجلس القضاء، فقال له: أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: إسمع منّي! قال: لهذا جلست مجلسي. قال: إني رجل من أهل الشّام. قال: الحبيب القريب. قال: وتزّوجت أمرأة من قومي. قال: بارك الله لك بالرفاء والبنين. قال: وشرطت لأهلها ألا أخرجها. قال: الشّرط أملك. قال: وأريد الخروج قال: في حفظ الله. قال: إقض بيننا. قال: قد فعلت[1].

ألا يذكرك هذا، يا بُنَيَّ، بما زعَمته العرب على ألسن البهائم. قالوا: إنّ الأرنب التقطت تمرة، فاختلسها الثّعلب، فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضّبّ، فقالت الأرنب: يا أبا الحسل، فقال: سميعا دعوت، قالت: أتيناك لنختصم إليك، قال: عادلا حكّمتما، قالت: فاخرج إلينا،

(١) الأذكياء: ص ٦٤.



قال: في بيتـــه يُؤتـى الحـكم، قالت: إني وجـدت تمرة، قال: حلوة فكليها، قالت: فاختلسها الثّعلب، قال: لنفسه بغى الخير، قالت: فلطمتـه، قال: بحقـك أخـذت، قالت: فلطمني، قال: حرّ انتصر، قالت: فاقض بيننا، قال: قد قضيت[1].

نعـود إلى ما كنّـا فيه من الحديث المسلّي: دواء الرّوح المكدودة.

لعلّك تذكر، يا بُنَيّ، نعيمان الصّحابي، وخّفة ظلّه، وإتقانه «للمقالب»، ولكن كيف تنسى مثل هذا الأمر! والجملة الأصوب هي أن أقول: لعلّك تشتاق إلى أخباره، ولا تحتاج إلى سؤال، فأنت لا تملّهـــا. وإدخـــال السّرور إلى نفســك هدف من أهـدافنـا، خاصّـة بعـد أن سمعت عن الأدواء، واحتجت كما قلنا إلى دواء للرّوح المجهدة:

---

(١) مجمع الأمثال للميداني، ٢/٧٢. شرح المثل «في بيته يؤتي الحكم» ٣٧٤٢.

يقال إن أبا بكر خرج في تجارة إلى بصرى، قبل وفاة الرّسول، ﷺ، بعام، ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة، وكانا قد شهدا بدراً، وكان سويبط على الزّاد، وكان نعيمان مزّاحا، كما تعرف، فقال لسويبط: أطعمني. قال: حتى يجيء أبو بكر. قال: أما لأغيظنّك. قال الراوي: فمرّوا بقوم، فقال لهم نعيمان: أتشترون منّي عبدا لي؟ قالوا: نعم. قال: إنّه عبد له كلام، وهو قائل لكم: إنّي حرّ، فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه فلا تفسدواعليّ عبدي. قالوا نشتريه منك.

فاشتروه بعشر قلائص. ثم أتوه فوضعوا في عنقه عمامة أو حبلا. فقال سويبط: إنّ هذا يستهزئ بكم، إنّي حرّ، ولست بعبد. قالوا: أخبرنا بخبرك. فانطلقوا به، فجاء أبو بكر، فأخبره نعيمان بما تمّ، فأتبع القوم، فردّ عليهم القلائص، وأخذ سويبطاً.

فلمّا قدموا على النّبي ﷺ، وأخبروه، ضحك وأصحابه حولا على ما جرى[1].

وبعد هذا كلّه، يا بُنَيّ، نشكر أنت وأنا الله سبحانه وتعالى على نعمة الصّحة والعافية، وعلى ارتفاع الأوبئة والأمراض، التي كانت تنزل بالنّاس، ولا تكاد تختفي حتى تعود، ولا يقال تقلّصت حتى يقال عادت فانتشرت، ولا يُظنّ أنّها زالت حتى يتبينّ أنّها عادت، ولا يرجى أنّ نارها انطفأت حتى يفاجأ النّاس بأنّها اشتعلت، ولا يعتقد أنها مدبرة حتى يعلن أنها مقبلة. إذا حلّت أقامت، وإذا أَبرزت منجلها حصدت، وإذا نزلت توغّلت، وإذا أصبحت بطشت، وإذا أمست اكتسحت. لا ترحم والدا في ولده، ولا زوجا في زوجه، ولا أخا في أخيه، ترمّل الكبير، وتؤتم الصغير، وتأتي على القويّ مثلما تأتي على الضّعيف.

(١) راجع الأذكياء : ص ٢٨ فهناك ابن الجوزي يقلب الأمر ويجعل سويبطاً الضّاحك، ونعيمان المضحوك عليه .



أحمد الله على أن جعل هناك تطعيما وتلقيحا يردّ الـوبـاء بترسه، ويوقفه عند حدّه، وأوجد علاجا يقطع المرض بسيفه، ونظافة بيئة تقفل دون الآلام الأبـواب، وتـوصـد المنـافـذ، وتَغذية تهيء للمرء سلاحـا، وتشرع للعـافيـة أبـوابا، وتقيم للصّحة صروحا، وهَدى إلى اكتشاف تركيب محاليل تقضي على الذّباب، وأخرى تأتي على الصّراصير، وتهلك البعـوض، وتقطع دابر القمل، وساعد على إيجاد معاجين لتنظيف الأسنان، وانعاش الفم، وتقوية اللّثة، والوقاية من السوس.

نحن اليـوم، يا بُنَيّ، في نور العلم، وسـطوع ضياء الحضارة، فعلم ما ينفعنا، دنياً وديناً، متاح مبـذول، إحمد الله واشكره على هذا، واطلب منه المزيد لما تحبّ أن يزيدك منه، فإنّه جواد كريم، ما عنده لا ينفد.

روي عن رســول الله ﷺ، أنّــه قال: «تشكّروا لمن أثنى عليكم» والثناء قول، فما



بالـك، يا بُنَيّ، بمن أعـطاك فعلا وأكثر. أليس أولى بالشكر[1]؟.

واسمع، يا بُنَيّ، الرّجل العظيم شريح، وما قال في مجال الشكّر:

إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها، لأربعـة وجـوه: أحمده إذ لم تكن أعظم ممّا هيه، وأحمده إذا رزقني الصّبر عليها، وأحمده إذ وفّقني لاســترجــاع على ما أرجـو فيـه الثّواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني[2].

ولبعضهم، يا بُنَيّ، تعبيرات جميلة عن الشّكر، تدل على تفكير، وتلذّذ في نطق عباراته، وتفنّن في صياغتها، دليل الاهتمام، وانشغال الذّهن به. قال أحدهم يصف الشّكر ومفعوله:

الشّكـر تعرّض للمزيد السّائغ، والنّعم

---

(١) عين السّياسة : ص ١٨٧ .

(٢) عين السّياسة : ص ١٩٠ .



السوابغ. وقالوا في شكر شخص لآخر:

شكره شكر الأسير لمن أطلقه، والمملوك لمن أعتقه.

أو: أثنى عليه ثناء الرّوض الممحل، على الغيث المسبل.

أو: أثنى عليه ثناء لسان الزّهر على راحة المطر.

أو: أثنى عليه ثناء العطشان الوارد، على الزلال البارد.

أو: شَكَره شكر الأرض للدّيم، وزهير لهرم[1].

والإنسان لا تتم له السعادة - يا بُنَيّ - إلا بالصّحة، والصّحة لها مقومات أحدها مراعاة ما يحتاجه الجسم من غذاء، وتجنّب ما يضرّه من

(١) زهر الآداب: ٢/٥١.



أسباب ومعوّقات، وإذا اختل أحد هذين الأمرين احتاج المرء إلى ما يشبه التّرميم في البناء، وهو المداواة والمعالجة. والصّحة التامة يحتاجها المرء لدينه وعمله، وبدونها أو بدون كمالها، تنقص القدرة على تكلمة الدّين أو العمل، ونقصها نقص في حياة المرء الطّبيعية، فالدّين وهو غذاء الرّوح، والوقود الذي يسند العمل المادي يضعف أداؤه، ويضعف التّصور اللازم للتدبرّ في الكون وخالقه، لانشغال الذّهن بمعاناة المرض.

والأمراض مع الانسان في حياته منذ أن عُرف وجود الانسان، ولابد أن يسعى للتّخلص منها وما واكب وجودها، ومعرفة الأدوية والعلاج جاء صدفة أحيانا، وأحيانا جاء عن تدبّر وتفكير، وأحيانا هذا التدبّر كان نتيجة مراقبة لحيوان هداه الله بفطرته إلى علاج نفسه، ومع الزّمن تجمّع للانسان حصيلة يلجأ إليها، حسب ما يدلّه اجتهاده، عند المرض، فيحاول التّخلّص من المرض بما توافر له منها. وكتب الطّبّ القديم والحديث تتحدّث عن

كيفيّة بدء إدراك الانسان للصّحة وعلاج الإنسان نفسه، والطّبّ الأول المتقدّم، تاريخه لا يعدو الحدس والتخمين، إلى أن وصل الإنسان إلى ما دوّن في هذا عن الاغريق والهنود، وغيرهم من الأمم. وأمم الصّحارى والغابات لهم نظرتهم إلى هذا الجانب، وهي تختلف عن أصحاب المدن المتحضّرين، وإذا كان هؤلاء تخلّصوا في وقت مبكر من الخرافات والأوهام التي تحوط المرض والعلاج فأولئك من أهل الصّحارى والغابات استمروا في غَزو كثير مما يعتري أبدانهم وعقولهم إلى الخرافات والأوهام، وتركّب على هذا علاج يبدو للشّخص اليوم مضحكا أو مبكيا.

وقد يبهر ما وصل إليه الطّبّ الحديث النّاسَ اليوم، فيظنّون أنّ كل هذا الانجاز حديث، وهو ليس حديثا كلّه، وإنّما سبقَنا إليه أجيال مرت، كان لها تشخيص متقدّم، وكانت لها آلات تدهش وتذهل، وكان لهم عقاقير استنبطوها نباتيّا وكيماويا تجعل ما وصلوا إليه أساسا لما نحن عليه. وفخر



العلم الحديث هو في الآلات والوسائل الحديثة التي أدخلت نتيجة التّقدّم الكيمائي، والكهرباء والالكترون، والاتقان في الميكانيكا، وما أضافته الاتّصالات الحديثة من سرعة انتشار التّجربة، و سهولة التّعرف على تفاصيلها، واستحداث أساليب وطرق فتحت آفاقا كانت مسدودة، ساعد على فتحها الاكتشافات والاختراعات في المجالات المختلفة، وهو أمر يأتي ملائما مع التّوسّع في الرّقعة المعمورة نتيجة ازدياد السّكان واحتياجاتهم في نواحي حياتهم المختلفة.

وهناك كتاب - يا بُنَيَّ - يفيد، عن الطّبّ وتاريخه، وعن الأطباء في بلاد الاغريق، وفي فارس، وفي البلدان الإسلاميّة، اسمه: «عيون الانباء في طبقات الاطبّاء» لمؤلفه: ابن أبي أصيبعه، وسوف تستفيد منه لو رجعت إليه، فهو يزيد معلوماتك عن الطّبّ القديم، وتطوّره، وعن وعي النّاس وعلماء الطّبّ في العصور المختلفة، وما فيه يعكس درجات الحضارة، وتقبّل ازدياد انتشار

الوعي الصّحيّ، في ضوء ما علبيه الدّول من عمق حضاري وثقافي.

وكتب الطّبّ القديم متوافرة بأعداد تكفي لدراسة تاريخ الطّبّ، وما مرّ به من مراحل، وما أثّر فيه من عوامل قوّة وضعفا. وفيه من الطّرافة ما يجعل قراءته ممتعة، وفيه من العجائب والغرائب ما يحير غير المتخصّص، فلا يعلم أحد منّا صحتّها من عدم ذلك، وتحتاج إلى طبيب نطاسيّ يسبر غورها، ويفتي بصحّة وقوع ما وقع، أو استحالته، هل تذكر - يا بُنيَّ - قصّة الرّجل الذي مات، وشيّعه أهله، وفي طريقه إلى المقبرة رآه أحد العارفين بالطّبّ، وقال لأهله أِنّه لم يمت، وقد صحّ قوله، ولما سألوه كيف عرف أنّه لم يمت، قال إنّ الميت لا تبقى قدماه منصوبتين[1]. واحتجت أنا وأنت ونحن نتدارس هذه القصّة إلى أن نحيلها إلى الأطبّاء ليقولوا رأيهم في مدى صحّتها. وإذا قرأت في

(١) راجع أيْ بُنَيّ، ٢/٣٣٠ وعيون الانباء ٣/١٨٧، ٣/٢٣٨ وفي عيون الأنباء قصص مماثلة منها قصّة ابراهيم بن صالح إبن عم الرّشيد ٣/٥٣.



كتاب: «عيون الانباء» فستجد كثيرا من هذه القصص، تحتاج إلى رأي طبيب متخصّص، ليرجّح الرأي فيها، نفيا أو اثباتا. وغالب ما يثير العجب ما يقال عن السكتة التي أورد المؤلف عدد حالات منها سوف اقتصر منها على حالة أو حالتين، وسنرى طرافتها، وستكشف لك أيضاً طريقتهم في العلاج، وهي تريك جانبا من الحضارة التي عاشها هؤلاء الأجداد.

أبو الحسن ثابت بن قرّة الحرّاني، من أطباء العصر العباسي المشهود لهم بالمعرفة بالطّبّ واتقانه، ألّف عدة كتب في الطّبّ. ويروي عنه ابن أبي أصيبعه في كتابه: «عيون الانباء» هذه القصّة عن السّكتة، أو الاغماء[1]:

«اجتاز يوما ماضيا إلى دار الخليفة، فسمع صياحا وعويلا، (في طريقه)، فقال: (هل) مات القصّاب الذي كان في هذا

---

(١) عيون الانباء ٢/١٩٥، انظر أيضاً ص ٢/٢١٣ ففيها سكتة قوامها الكبد.

الدّكان؟ فقالوا: أي والله ياسيدنا، البارحة فجـأة. وعجبوا من ذلك، فقال ما مات، خذوا بنا إليه، فعدل النّاس معه إلى الدّار، فتقـدّم إلى النّسـاء بالامسـاك عن اللّطم و الصّياح[1]، وأمرهنّ بأن يعملن (طعام) مزورة.

وأومـأ إلى بعض غلمانــه بأن يضرب القصّاب على كعبه بالعصا، وجَعَل يده في مجسّـه (أي يأخـذ نبضـه)، ومـا زال ذلك يضرب كعبــه، إلى أن قال: حسبــك. واستـدعى قدحـاً، وأخـرج من كمّـه دواء فداحـــهُ في القـدح بقليـل ماء، وفتـح فم القصّاب، وسقاه إيّاه، فأساغه (وابتلعه)، ووقعت الصّيحــة والــزعقــة في الــدّار، والشّارع، بأن الطّبيب قد أحيا الميّت، فتقدم ثابت بغلق البـاب، والاستيثاق منه، وفتح

(١) اللّطم والصّياح في الإسلام محرّم على المسلمين والمسلمات، وفيه أحاديث شتّى تبينّ عقاب النائحات واللاّطمات.



القصّاب عينه، وأطعمه من المزورة، وأجلسه، وقعد عنده ساعة، وإذا بأصحاب الخليفة قد جاؤا يدعونه. فخرج معهم، والدّنيا قد انقلبت، والعامّة حوله يتعادون، إلى أن دخل دار الخلافة، ولما مثل بين يدى الخليفة، قال له: ياثابت، ما هذه المسيحيّة التي بلغتنا عنك؟

قال: يامولاي، كنت أجتاز على هذا القصّاب، وألحظه يشرّح الكبد، ويطرح عليها الملح، ويأكلها، فكنت استقذر فعله أوّلا، ثم أعلم أنّ سكتة ستلحقه، فصرت أراعيه، وإذا علمت عاقبته انصرفت، وركّبت للسّكتة دواء، استصحبته معي في كلّ يوم، فلما اجتزت اليوم، وسمعت الصّياح، قلت: مات القصاب؟ قالوا: نعم! مات فجأة البارحة. فعلمت أن السّكتة قد لحقته، فدخلت إليه، ولم أجد له نبضا، فضربت كعبه إلى أن عادت حركة

نبضه، وسقيته الدواء، ففتح عينيه، وأطعمته مزورة، والليلة يأكل رغيفا بدرّاج، وفي غد يخرج من بيته»[1].

هذه قصة عن السّكتة - يا بُنَيّ - فيها طرافة، ولكن الكلمة الفاصلة فيها، وفي مدى صحتها، تعود للاطبّاء، يستطيعون أن يثبتوها، أو يعدوها دعوى أو خرافة، أو صدفة. ولعلك تلحظ فيها - يا بُنَيّ - بعض ما يبيّن طبيعة البشر في بعض المجتمعات، وهو سرعة اعتقاد النّاس أن الطّبيب أحيا الميّت، وهم يعلمون أنّه لا يحيي الموتى إلاّ الله سبحانه وتعالى، ورأيت سهولة تفسير الطبيب لما أدهش النّاس، وكيف أصبح الأمر مقبولا بعد أن شرح الطبيب خافيه، وأوضح غامضه، وأبان مكنونه، وجلا مبهمهُ. ثم لاحظ - إذا صحّ ما قاله ثابت - حرص الطّبيب واستعداده بالدّواء المسعف، النّافع للحالة التي كان يراقبها. ولعلّه أدرك أن أكل

(١) لليبرودي الحكيم موقف مماثل مع آكل لحم فرس مسلوق، أغمي عليه، عيون الأنباء ٣/٢٦٣.



القصّـاب للكبـد، وهي مخزن أدواء وهي نيّئـة لم يطهّرها الغلي ولا القلي، لابد وأن تأتيه بفاجعة.

وأبـو الحسن ثابت بن إبـراهيم الحرّاني، أحد الأطبّاء المشهود لهم بعلم الطّبّ، له قصّة أيضاً مع الاغماء، أو السّكتة تُروى على الصّفة الآتية:

«قـال: (ابن بطلان)، كان الـوزير أبو طاهر بن بقيّة قد أسكت في داره الشّاطئة على الجسر، ببغداد، وقد حضر الأمير معزّ الدّولة بختيار، والاطبّاء مجمعون على أنه قد مات، فتقدّم أبـو الحسن الحـرّاني، وكنت (ابن بطلان) أصحبـه يومئـذ، فقـال أيّهـا الأمير: إذا كان قد مات فلن يضرّه الفصاد، فهـل تأذن في فصـده: قال: افعـل، يا أبا الحسن! ففصده، فرشح منه دم يسير، ثم لم يزل يقوى الرّشح، إلى أن صار الدّم يجري، فأفـاق الـوزيـر، فلما خلوت به سألته عن الحـال، وكـان ضنينا بما يقول. فقال: من عادة الـوزيـر أن يستفرغ في كل ربيع دما

كثيرا من عروق المعدة، وفي هذا الفصل انقطع عنه، فلما فصدته ثابت الطّبيعة من خناقها».

ترى - يا بُنَيّ - هل يعرف أطبّاء اليوم ما قصده بالطّبيعة، وما هو خناقها، وهل لهم رأي في الفصد، الذي بقي النّاس يجرونه إلى يومنا هذا في بعض المجتمعات، التي لم يتغلغل فيها الطّبّ الحديث. وكنت ترى الفصد في نجد والحجاز يقوم به الحلّاق أو «المحسّن»، وله معدّاته، ولو طرقه، ولابدّ أنّ له مقاديره وكميّاته.

ولطرافة أخبار هذه السّكتات، أو الغيبوبات أو الاغماءات سأزيدك منها، وإن كان يبدو عليها التّماثل في مجرى القصّة، ومجرى العلاج، مما قد يكون سببه نحل القصّة لأكثر من طبيب، أو أنّ تتلمُذ بعض الاطبّاء على بعض يجعلهم يكرّرون العلاج نفسَه كلما تكرّر المرض، وهي تُروى عن الطّبيب صاعد بن بشر ابن عبدوس[1]:

(١) عيون الأنباء ٢٢٢/٢ .



«كان الوزير علي بن بلبل ببغداد، وكان له ابن أخت، فلحقته سكتة، دمويّة، وخفي حاله على جميع الاطبّاء ببغداد، وكان بينهم صاعد بن بشر حاضرا، فسكت حتى أقرّ جميع الاطبّاء بموته، ووقع اليأس من حياته، وتقدّم الوزير في تجهيزه، واجتمع الخلق في العزاء، والنّساء في اللّطم والنّياح[1]، ولم يبرح صاعد بن بشر من مجلس الوزير، فعند ذلك قال الوزير لصاعد بن بشر الطّبيب: هل لك حاجة؟ فقال له: نعم يامولانا، إن رسمتَ، وأمرتَ لي ذكرت ذلك، فقال له: تقدّم، وقل ما يلج في صدرك. فقال صاعد: هذه سكتة دمويّة، ولا مضرّة في ارسال مبضع واحد، وننظر، فإن نجح كان المراد، وإن تكن الاخرى فلا مضرّة فيه، ففرح الوزير، وتقدّم بابعاد النّساء، واحضر ما وجب من التّمريخ والنّطول[2] والبخور والنّشوق، واستعمل ما يجب».

(١) اللّطم والنواح (أو النياح) محرم وللاطمة والنائحة ان لم تتب عذاب شديد يوم القيامة.

(٢) النّطول: جعل الماء المطبوخ بالأدوية في كوز ثم صبّه على رأس العليل قليلا قليلا. القاموس المحيط.

ثم شدّ عضد المريض، وأقعده في حضن بعض الحاضرين، وأرسل المبضع، بعد التعليق الواجب من حاله، فخرج الدّم، ووقعت البشائر في الدّار، ولم يزل الدّم يخرج حتى تمّ ثلاثمئة درهم من الدم، فانفتحت العين، ولم ينطق بعد، فشدّ اليد الأخرى، ونشّقه ما وجب تنشيقه، ثم فصده ثانيا، وأخرج مثلها من الدّم وأكثر، فتكلّم، ثم أُسقي، وأطعم ما وجب، فبرئ من ذلك، وصحّ جسمه، وركب في الرّابع إلى الجامع».

هذه بعض الطّرائف التي ذكرت لك أنّي سأقصّها عليك، ولم أذكر لك شيئا ليس طريفاً خوفا من مللك وإلا فهناك الكثير عن الأمراض، وأعراضها، وتشخيصها، وأدويتها، مما قد يحير الاطبّاء ويعنتهم، فكيف لا، وهم الصّادون الغافلون رغم كثرتهم في هذا الزّمن، عن أن يدرسوا الطّبّ القديم، ويعلقوا عليه، بما يوضح ما صحّ منه وثبت، وما لم يصحّ أو ثبت بطلانه. إنّ هناك ذخائر



من كتب الطّبّ تزخر بتاريخه، وتطوّر العلاج والادوية. وتتحدّث عن رجاله، وهم رجال لهم وزنهم العقلي في المجتمع، فلا يتوقع منهم الدّجل، وهم الذين اقترن اسمهم بالحكمة، فلا تجد طبيبا إلا ويوصف بها، وله كلمات صائبة فيها، لا تقتصر على الطّبّ وإنّما تدخل في الفلسفة والمجتمع، والثّقافة وجميع جوانب الحياة، وما لم يصحّ طبّيا فقد يكون منحولا عليهم.

«اسمع ما يقوله الحارث بن كلدة، وهو من عاش في جزيرة العرب في العصر الجاهلي. وهو عصارة تجاربه في حقل الطّبّ، عندما احتضر وقال له الناس: مرنا بأمر ننتهي إليه بعدك: فقال: لا تتزّوجوا من النّساء إلا شابّة، ولا تأكلوا الفاكهة إلا في أوان نضجها، ولا يعالجنّ أحد منكم ما احتمل بدنه الداء[1]».

(١) عيون الأنباء ١٨/٢.

ويقـــول: «إدفـــع بالـدواء ما وجـدت مدفعا، ولا تشربه إلا من ضرورة، فإنه لا يصلح شيئا إلا أفسد مثله».

ويتفق معه فيما قال الطبيب تياذوق فيقول للحجّاج[1]: «لا تنكح إلا شابّة، ولا تشرب الدّواء إلا من علّة، ولا تأكل الفاكهة إلّا في أوان نضجهـا، وأجِـدْ مضغ الطعام، وإذا أكلت نهارا فلا بأس أن تنام، وإذا أكلت ليلا فلا تنم حتى تمشي ولو خمسين خطوة»[2].

وعنـدمـا اعترضه متفيهق بسؤال فقال: «إذا كان الامـر كما تقول فلِمَ هلك بقراط (الـطبـيـب الحكيم) ولِمَ هلك جالينـوس وغيرهما ولم يبق أحد منهم؟ قال له: ـ يا بُنيّ ـ قد احتججت فاسمـع! إنّ القـوم دبّـروا أنـفـسـهـم بما يملكـون، وغلبهم مالا يملكون، يعني الموت».

---

(١) عيون الأنباء ٢/٣٣ .

(٢) وقد أوصى الحجّاج ابنه بالمحافظة على هذه النّصيحة عيون الانباء ٢/٣٤ .



ألم أقل لك أنهم مع طبهم حكماء. إسمع رده أيضاً على خادم خصيّ عند الحجّاج.

«شكَى الحجّاج في رأسه صداعا، فبعث إلى تياذوق، وأحضره، فقال: إغسل رجليك بماء حار، وادهنهما، وكان الخصيّ واقفا على رأس الحجّاج، فقال: والله ما رأيت طبيبا أقلّ معرفة بالطّبّ منك. شكى الامير الصّداع في رأسه، فتصف له دواء في رجليه، فقال له: أما إنّ علامة ما قلت فيك بيّنه! قال الخصيّ: وما هي؟ قال نزعت خصيتاك فذهب شعر لحيتك! فضحك الحجّاج ومن حضر».

ولهم دراية قصوى بالطّبّ النّفسي، وهو طبّ لا تجلس إجادته إلا على كراسي العقول الرّزينة الثابتة، لأنه يحتاج إلى ملاحظة دقيقة، ووعي تامّ، وخبرة متراكمة، وليس كل ما يلاحظ فيه مادّيّا، فأحيانا الأمر يعتمد على أمور معنويّة في التّعرف على



النّازلة أو على العلاج منها. اسمع هذه القصّة عن جيرائيل بن بختيشوع بن جورجوس[1]:

«تمـطّت حظيّة الرّشيد، ورفعت يدها، فبقيت منبسـطة لا يمكنهـا ردّها، والأطباء يعالجونها بالتّمريخ والادهان ولا ينفع ذلك شيئا.

فأمر باحضار جبرائيل، بعد أن ذُكِر له، ولما حضر قال له الرشيد: ما اسمك؟ قال: جبرائيـــل. قال له: أيّ شيء تعــرف من الـطّبّ؟ قال: أبـرّد الحارّ وأسخّن البارد. وأرطّب اليابس، وأيبّس الرطب الخارج عن الـطّبـع (هـذه أسس الأمـراض ومـداواتها عندهم) فضحك الخليفة وقال: هذا غاية ما يُحتاج إليه في صناعة الطّبّ.

(١) عيون الأنباء ٤٣/٢ ولمزيد من المعالجة النّفسية عندهم أنظر ما ورد من قصص وأمثلة في عيون الأنباء ٢١٢، ٢١٣/٣ في ترجمة رشيد الدّين أبو حُليقة.



ثم شرح له حال الصبيّة، فقال له جبرائيل: إن لم يسخط عليّ أمير المؤمنين فلها عندي حيلة. فقال له: وما هي؟ قال: تخرج الجارية إلى ههنا بحضرة الجمع، حتى أعمل ما أريده (وهذا أمر من الصّعب قبوله على الرّشيد)، وتمهّلْ عليّ، ولا تعجلْ بالسخط، فأمر الرّشيد باحضار الجارية، فخرجت وحين رآها جبرائيل عدا إليها، ونكس رأسه، ومسك ذيلها، كأنه يريد أن يكشفها، فانزعجت الجارية، ومن شدّة الحياء والانزعاج استرسلت أعضاؤها، وبسطت يديها إلى أسفل، ومسكت ذيلها، فقال جبرائيل للرّشيد: قد برئت، يا أمير المؤمنين.

فقال الرشيد للجارية: إبسطي يديك يمنة ويسرة، ففعلت ذلك، وعجب الرّشيد، وكل من كان بين يديه».

وهذه الحادثة تذكّرني - يا بُنَيّ - بحادثة حصلت في الحرم المكّي أثناء الحرب العالميّة الثّانية، وكنّا نذهب ونحن في المرحلة الثّانويّة، نذاكر في الحرم، لأنّه المكان الوحيد الذي فيه كهرباء نستطيع أن نستفيد منها للمذاكرة. وكان يجلس بجوارنا رجال وقفوا أنفسهم على خدمة الحرم، والقيام بكنسه وتنظيفه، وكان أحدهم كرديّا ضخما قويّا في مظهره، ولكنه كان كثير المداعبة، ويحسن قصّ القصص، فكنّا نأنس به، ونلحظ في أقواله وتصرفاته العقل والرّزانة، وذات يوم ونحن جلوس تثاءب أحد المتَسَنّنِين أمام الكعبة بعد العشاء، ثم لم يستطع أن يطبق فكّه مرّة أخرى، وبقي فمه مفتوحا، واحتار النّاس فيه، فنادينا صاحبنا الكرديّ لما نعرفه عنه من حسن التّصرف، وكان عند حسن ظنّنا، إذ أخذ «غترة» أحدنا وطواها جيّدا وحشرها في فمه، وأخذ يحرّك يده بهدوء على جانبي وجهه، ويمرّر بهدوء يده تحت لحييه، وفجأة وبقوّة أطبق الحنك الاسفل إلى أعلى، وعاد الحنك إلى مكانه



الطبعيّ، وعرفنا فيما بعد أنّ الغترة كان الهدف منها أن تحمي اللّسان من الاسنان فيما لو دخل بينها، ولو فعل لانقطع اللّسان.

أرأيت كيف أن إعمال العقل مفيد، وهذا ليس طبيباً ولكنّ الله أعطاه الحكمة، وهي طبّ في ذاتها.

وما دمنا قبل قليل بدأنا الحديث عن المعالجة النّفسية، ولكنّها جرتنا إلى المعالجة الماديّة في ذكر الفكّ وما حدث له، فنعود إلى ما كنّا فيه خاصّا بهذا الجانب، والقصّة التي سوف أقصّها عليك هي عن أوحد الزّمان أبو البركات هبة الله بن علي ملكا البلدي، وهو طبيب مشهور، والقصّة نفسها تبين أهميّته[1]:

«كانت قد عرضت علّة الماليخوليا[2] لمريض، وكان يعتقد أنّ على رأسه دنّا، وإنه لا يفارقه أبدا، وكلما مشى يتحايد،

(١) عيون الأنباء ٢٩٦/٢.

(٢) لاهتمامهم بالماليخوليا ألفّ الطّبيب اسحق بن عمران كتابا متكاملا عنها ٥٦/٣.

ويتحاشى المواضع التي سقوفها قصيرة، ويمشي برفق، ولا يترك أحدا يدنو منه، حتى لا يميل الدنّ، أو يقع عن رأسه، وبقي هذا المرض مدة، وهو في شدة منه، وعالجه جماعة من الأطبّاء، ولم يحصل بمعالجتهم تأثير ينتفع به، وانتهى أمره إلى أوحد الزّمان، ففكّر أنه لم يبق شيء يمكن أن يبرأ به إلا بالأمور الوهميّة، فقال لأهله: إذا كنتُ في الدّار فأتوني به، ثم إنّ أوحد الزّمان أمر أحد غلمانه بأنّ ذلك المريض إذا دخل إليه، وشرع في الكلام معه وأشار إلى الغلام بعلامة بينهما أنّه يسارع بخشبة كبيرة، فيضرب بها رأس المريض على بعد منه، كأنه يريد كسر الدنّ الذي يزعم أنه على رأسه، وأوصى غلاما آخر، وكان قد أعدّ معه دنّا في أعلى السّطح، وأنّه متى رأى ذلك الغلام قد ضرب فوق رأس صاحب الماليخوليا أن يرمىَ الدّنّ الذي عنده بسرعة إلى الأرض.



ولما كان أوحد الزّمان في داره، وأتاه المريض، شرع في الكلام معه، وحادثه، وأنكر عليه حمله للدّنّ، وأشار إلى الغلام الذي عنده، من غير علم المريض، فأقبل إليه، وقال: والله لابدّ لي أن أكسر هذا الدنّ، وأريحك منه. ثم أدار تلك الخشبة التي معه، وضرب بها فوق رأسه بنحو ذراع، وعند ذلك رمى الغلام الآخر الدّنّ من أعلى السطح، فكانت له جلبة عظيمة، وتكسرّ قطعا كثيرة، فلما عاين المريض ما فعل به، ورأى الدنّ المنكسر. تأوّه لكسرهم إيّاه، ولم يشكّ أنه الذي كان على رأسه بزعمه، وأثّر فيه الوهم أثرا برئ من علته تلك».

ولعلّ هذا ـ يا بُنَيَّ ـ يذكرك بقصّة الرّجل الذي كان متوهّما بأنه قد دخل في اذنه «صارور» (صرصار)، في حين أنّه لم يدخل في أذنه إلا وهمٌ بذلك، وعجز الاطبّاء عن نزع هذا الوهم من

ذهنـه، أو ابعـاد سيـطرة هذه الفكـرة من عقله، وعالجه طبيب بالوهم أيضا، إذْ أكّد له عندما كشف عليـه أنّ باذنـه صرصارا، وأنّه ميت، وأنه سوف يخرجه غدا، واستعدّ في اليوم التّالي بصرصار ميت، وأخفاه عندما بدأ يعالج الرّجل، ثم سلّه من مخبئه، وأخذ يقطّعه أجزاء، موهما المريض بأنه يخرجه من اذنه، حينئذ فقط استراح المريض، ونام نوما هانئًا، بعد شقاء أيام طويلة.

والوهم[1] - يا بُنَيَّ - من أعدى أعداء المريض، لأنّه مرض خياليّ، وانتزاعه يحتاج إلى حِيَل، وأحيانا لا يقضي عليه إلا وهم أكبر منه، نسأل الله السّلامة، وحتى نكمّل الصّورة في ذهنك عن أمور الطّبّ في عهـد ازدهـاره أيـام العبّاسيين ومن أخذ أطباؤهم منهم، أذكـر لك بعض ما قد يدهشـك أن تعرفه لأنّك تظن أنه أمر لم يكن معروفا، وأنه لم يكتشف إلا حديثا، في حين أن ما هو موجود اليوم ما هو إلّا

(١) وعن الـوهم ونـظرتهم إليه ومعالجتهم له انظر ما ذكر عن ذلك في ترجمة الطبيب التميمي ٣/١٤٥.



تطوير لما كان عليه القوم في تلك الفترة. وسوف لا أتعمّق في الأمـر حتى لا تحتاط بعدم الاستماع، أو تلجأ إلى «السَّرَحان» وهو مخدّة مريحة لك عندما لا يعجبك شيء، وتظن أنني لا أعرف أنك سرحت في حين أن وجهـك بكل ملامحه يفضح ذلك فعيناك تتركّـز على شيء بعيـد، وجلستك تستقر، وفمك تذهب عنه «بَزْمَته»، ويكون أقرب إلى الارتخاء، ويداك تستقران عن العبث بما كانتا تعبثان به من قبل، وقدماك تستقرّان عن الاهتزاز أو مداعبة ما أمامهما. هذا تشخيص لحالتك أوحاه الحديث عن الطّبّ، «ومن خالط القوم أربعين يوما صار منهم» هكـذا يقول المثل العامّي، ونحن خالطنا الاطبّاء أكثر من ذلك، لم نخالطهم زملاء ولكن مرضى.

كانـوا ـ يا بُنَيّ ـ يعـرفـون القرقرينا ويعالجونها بعـلاجهـا الصّحيح، وهو قطع العضو المصاب. وهذه قصة من كتاب «عيون الانباء»[2]، تريك ما

(٢) عيون الأنباء ٢٩٨/٢ .



فعله أوحد الزمان في هذا المجال، وعجب من حوله من فعله، حدّث يوما عنه تلميذه أبو الفضل فقال:

«كنّا في خدمة أوحد الزّمان، في معسكر السّلطان، ففي يوم جاء رجل به داحس (داحوس)، إلاّ أن الورم كان ناقصا، وكان يسيل منه صديد. قال: فحين رأى ذلك أوحد الزّمان بادر إلى سلاميّة أصبعه فقطعها، قال: فقلنا له: ياسيّدنا لقد اجحفت في المداواة، وكان يغنيك أن تداويه بما يداوي به غيرك، وتبقي عليه اصبعه، ولُمناه، وهو لا ينطق بحرف، قال: ومضى ذلك اليوم، وجاء في اليوم الثّاني رجل آخر مثل ذلك سواء، فأومأ إلينا بمداواته، وقال افعلوا في هذا ما ترونه صوابا. قال فداويناه بما يداوَى به الدّاحس، فاتّسع المكان، وذهب الظّفر، وتعدّى الأمر إلى ذهاب السّلاميّة الاولى من سلاميّات الاصبع. وما تركنا دواء إلاّ وداويناه به، ولا علاجا إلاّ



وعالجناه به، ولا لطوخا إلاّ ولطخناه به، ولا مسهلا إلاّ وسقيناه، ومع ذلك يزيد، ويأكل الاصبع أسرع أكل، وآل أمره إلى القطع. فعلمنا أنّ فوق كل ذي علم عليم. قال وفشا هذا المرض في تلك السّنة، وغفل جماعة منهم عن القطع، فتأدى بعضهم إلى اليد، وبعضهم إلى هلاك أنفسهم».

وكانوا - يا بُنَيّ - يجرون عمليّات في أدقّ المواضع، وأهمّها، وسوف أقصّ عليك قصّة كادت أن تنتهي بعملية في المثانة لاخراج حصاة منها، لولا أن الله سهّل خروجها على يد طبيب نطاسي[1]:

«مرض الخليفة النّاصر لدين الله سنة ثمان وتسعين وخمسمئة، مرضا شديدا، وكان المرض بالرّمل، وعرض له في المثانة حصاة كبيرة، مفرطة في الكبر، واشتدّ به الألم،

(١) عيون الأنباء ٢/٣٢٩، وعن التّشريح راجع القصّة الواردة في ١/١٢٢ من المرجع نفسه وراجع في ترجمة اليبرودي، وتشريحه لسبع ليعرف عمل المعدة، ٣/٢٣٧.

وطـال المـرض، وكـان طبيبـه أبـو الخـير المسيحيّ، وكـان شيخـا حسنـا مسنا، وقد خدمـه مدّة طويلة، وكـان خبـيرا متقنـا للصّنـاعة، فامتدّ بالخليفة المرض، وضجر من المعـالجـات، فأشـير بأن تشقّ المثانـة لاخـراج الحـصـاة، فسـأل عن حذّاق الجرائحيين، فأخبر برجل منهم، يقال له ابن عكـاشة، من ساكني الكرخ بجانب بغداد الغـربي، فأحضر وشـاهد العضو العليل، وأمره ببطّه.

فقال احتاج أن أشاور مشايخ الاطبّاء في هذا، (تـذكّـر هنا ـ يا بُنَيّ ـ الكونسلتو!)، فقـال: من تعـرف ببغداد من صالحي هذه الصّنـاعة؟ فقال: يامولانا استاذي وشيخي أبـو نصر سعيـد المسيحيّ، ليس في البلاد بأسرها من يماثله، فقال له الخليفة: إذهب إليـه، وأمـره بالحضـور. فلما حضر خدم، وقبّـل الأرض، فأمـره بالجلوس، فجلس



ساعـة، ولم يكلّمـه، ولم يأمـره بشيء حتّى سكن روعه، فلما أمن منه ذلك، قال له: يا أبـا نصر مثِّـل نفسـك أنّك قد دخلت إلى بمارستان (مستشفى)، وأنت تباشر به مريضا قد ورد من بعض الضّياع، وأريد أن تباشر مداواتي، وتعالجني في هذا المرض كما تفعل بمن هذه صفته. فقال: السّمع والطّاعة، ولكنّي احتـاج أن أعـرف من هذا الـطّبيب المتقـدّم مبادىء المرض، وأحواله وتغيّراته، وما عالج به منذ أول المرض وإلى الآن.

فأحضر الشّيخ أبو الخير، وأخذ يذكر له ابتـداءات المـرض، وتغـيرات أحواله. وما عالج به في أوّل الأمر، وإلى آخـر وقت. فقـال: التّـدبير صالح، والعلاج مستقيم، فقال الخليفة: هذا الشّيخ أخطأ، ولا بدّ لي من صلبه، فقام أبو النصر، وقبّل الأرض، وقال: يامولانا بالله لا تسنّ على الاطبّاء هذه السنة. وأما الرّجل فلم يخطئ في التدّبير،

ولكن لسوء حظّه لم ينته المرض، فقال الخليفة قد عفوت عنه، ولكن لا يعود يدخل عليّ. فانصرف.

ثم أخذ أبو نصر في مداواته، فسقاه، ودهن العضو بالادهان الملّينات، وقال له: إن أمكن أنّا نلاطف الامر بحيث تخرج هذه الحصاة من غير بطّ (جراحة) فهو المراد، وإن لم تخرج فذلك لا يفوتنا. فلم يزل كذلك يومين، وفي اليوم الثّالث رمى الحصاة، فقيل إنه كان وزنها سبعة مثاقيل، وقيل خمسة، وقيل إنّها كانت على مقدار أكبر نواة تكون من نوى الزّيتون»[1].

وكانوا يعرفون - يا بُنَيّ - رفض الاجسام للأعضاء التي تنفصل من الجسم ثم تعاد إليه، ولهم في ذلك كتابات، ونقل الاعضاء أمر لم نسمع عنه

(١) والبزل يقومون به لمعالجة الاستسقاء، ويعتبر عملية مهمة، انظر ما قام به موفّق الدين بن مطران - عيون الأنباء ٢٩٤/٣.



أنا وأنت إلا منذ عهد قريب، عندما تقدم الطّبّ، وأصبحت الاعضاء تنقل من شخص إلى شخص، فنُقل القلب، واعتبر حدثا في تاريخ الطّبّ في هذا القرن وانجازاته، ثم بعد فترة نقلت الكبد فكان حدثا آخر، وقبل ذلك نقلت الكلى، فاستمع إلى ما قاله صاحب كتاب عيون الأنباء[1]، عن الاعضاء التي تنقطع من جسم الانسان، ويحاول الاطبّاء إلصاقها، وقد يرفضها الجسم، أو على الاصحّ يتبرأ منها، وهو يتحدث عن أبي بكر محمّد بن زكريّا الرّازي، وهو يعدّد كتبه ورسائله، (لاحظ أنّه يتحدث عن «كناش» ويعني به الكتاب أو المؤلّف، ولعله أقرب إلى الملازم أو الرسائل المتخصصّة) وهو يتحدّث عما انقطع من جسم الانسان وأريد إعادته إليه، من أصبع ولسان وأذن مثلا:

«وله كناش عجيب في تجاريبه، ولكنّه قليل الوجود إلا في بغداد المحروسة، كتاب

(١) عيون الأنباء ٢/٣٥٦ .

في العلة الّتي لها (كذا) صار متى انقطع من البدن شيء حتى (كذا) يتبرأ منه أنه لا يلتصق به، وإن كان صغيرا، ويلصق به من الجراحات العظيمة القدر، غير المتبرّئة، ما هو أعظم من ذلك كثيرا».

والجراحة في العيون متقدّمة، وسوف اقتصر على ما يتحدثون عنه في هذا الكتاب بين آن وآخر عن «القدح»، ويبدو أنّه يشبه إزالة الماء الأبيض من العين ومما ورد عرضا في ذلك[1] عن الرّازي:

«وكان الرّازي معاصرا لاسحق بن حنين ومن كان معه في ذلك الوقت، وعمي في آخر عمره بماء نزل في عينيه، فقيل له: لو قدحت! فقال: لا، قد نظرت من الدّنيا حتى مللت، فلم يسمح لعينيه بالقدح».

وهل تذكر - يا بُنَيّ - دواء «الشّهاق» أو الفواق، أو «الفهّيقة»، أو «الزغطّة»، وكيف أنّها

(١) عيون الأنباء ٢/٣٥٠ .



عندما تقع توقع الشّخص في ورطة، ودواؤها أن يبهت المبتلى بها بما يجعله ينسى نفسه، وينشغل بما بهت به، وتذكّر صديقك الذي أصابه الفواق، فاتّهمه والده بسرقة محفظة نقوده، وأخذ يتابع الادلّة التي على أساسها تأكّد من سرقته لها، والصبيّ يحلف الايمان المغلظة أنه لم يأخذها، ووالده يصرّ على ما يقول، ولم تنفع الصبيّ دموعه، ولا براهينه، فلما تأكّد الوالد أنّ الفواق قد ارتفع وانقطع طمأنه بأنّه إنّما داواه بالتّهمة عن الفواق، وقد نجح.

إنّ أطبّاء ذلك الزّمان كانوا يعرفون هذا الدّاء ودواءه، ولعلّه تسلسل إلينا منهم، فصرنا نداوي بداوئهم. هذا الطّبيب بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع يصف موقفا مرّ به، عالج به مريضته بما بهرها وأنساها الفواق[1]:

(١) عيون الأنباء ٢/٧٠.

«اشرفت زبيدة على التّلف من فواق شديد يسمع من خارج الحجرة، فأمر الخدم باصعاد خوابٍ إلى سطح الصّحن، وتصفيفها حوله على الشّفير، وملأها ماء، وجلس الخدم خلف كل حبّ، حتى إذا صفق بيده على الأخرى، دفعوها دفعة (واحدة) إلى وسط الدّار، ففعلوا، وارتفع لذلك صوت شديد أرعبها، فوثبت، وزايلها الفواق».

في هذه القصّة شبه «مقلب» لعلّه أعجبك، ولعلّك اشتقت إلى بعض ما يدخل في هذا الباب، والاطّباء لا يخلون من روح المرح أحيانا، تسليهم عن بعض ما يمرّ بهم في عملهم من أمراض ترهق الرّوح، وقد اشتهر من بينهم بحبّ المداعبة الطّبيب سهل الكوسج، ومعنى الكوسج الذي لا ينبت له لحية، وقيل أنه كان ألحى وإنّما لقب بالكوسج على سبيل التّضاد، وإليك ما فعله على سبيل مقلب[1]:

(١) عيون الأنباء ٩٩/٢.



«خرج سهل في يوم الشّعانين، يريد دير الجاثليق، والمواضع التي تخرج إليها النّصارى في يوم الشّعانين، فرأى يوحنّا بن ماسويه في هيئة أحسن من هيئته، وعلى دابّة أفره من دابته، ومعه غلمان له (في أحسن زيّ)، فحسده على الظّاهر من نعمته، فصار إلى صاحب مسلحة النّاحية، فقال له: إن ابني يعقّني، وقد أعجبته نفسه، وربما أخرجه العجب بنفسه، وبنعمته، إلى جحود أبوّتي، وإن أنت بطحته، وضربته عشرين درّة موجعة، أعطيتك عشرين دينارا، ثم أخرج الدّنانير، فدفعها إلى رجل وثق به صاحب المسلحة، ثم اعتزل ناحية إلى أن بلغ يوحنّا الموضع الذي هو فيه فقدّمه إلى صاحب المسلحة، وقال: هذا ابني يعقّني، ويستخفّ بي، فجحد أن يكون ابنه، فلم يكلّمه صاحب المسلحة، حتى

بطح يوحنّـا، وضربـه عشرين درّة، ضربا وجيعا مبرحا».

وهـل تذكر ـ يا بُنَيّ ـ أننّي حدّثتك عن الرّجل الذي جاء يشكو إلى الطّبيب بعض أعراض مرضٍ يعاني منه، فلما وصفها، دعا الطّبيب الله أن يجعل هذا الدّاء به لأنّه لم يكن داء، وإنّما كانت الشّهيّة الصّحيّـة للطّعـام. إنَّ الطّبيب هو «ماسرجويه»، متطبّب البصرة المشهور، واسمع القصّة كما وردت في عيون الانباء، ويأتيك بالاخبار من لم تزود[1]:

«كان (ماسرجويه) جالساً ينظر في قوارير الماء إذ أتاه رجل من الخزر، فقال له: إنّي بليت بداء لم يبـل أحـد بمثله، فسأله عن دائـه، فقالِ: أصبح وبصري عليّ مظلم، وأنا أجد مثل لحس الكلاب في معدتي، فلا تزال هذه حالي حتـى أطـعـم شيئـا، فإذا طعمت سكن عني ما أجد إلى وقت انتصاف

(١) عيون الأنباء ١٠٤/٢ .



النّهار، ثم يعاودني ما كنت فيه، فإذا عاودت الأكل سكن ما بي إلى وقت صلاة العتمة، ثم يعاودني فلا أجد له دواء إلا معاودة الأكل. فقال (ماسرجويه): على هذا الداء غضب الله، فإنّه أساء لنفسه الاختيار حين قرنها بسفلة مثلك، ولوددت أن هذا الدّاء يحوّل إليّ، وإلى صبياني، وكنت أعوّضك مما نزل بك منه مثل نصف ما أملك، فقال الرجل: ما أفهم عنك! فقال له (ماسرجويه): هذه صحّة لا تستحقها، أسأل الله نقلها عنك إلى من هو أحقّ بها منك».

وهؤلاء الاطبّاء إضافة إلى طبّهم وحكمتهم فيهم شعراء فطاحل، فهذا أبو سليمان السّجستاني، وهذا أبو الفرج بن هندو، ولعلكّ تقرأ الأبيات التي وردت في ترجمته، ففيها شيء عجيب، هل سمعت بأحد يسرّ بالحَرب ،



خاصّة وهو طبيب، إسمع لماذا رضي أن يصاب به[1]:

يهيج مسرّتي جرب بكفّي
إذا ما عدّ في الكرب العظام
تجنّبني اللّئام لذاك حتى
كفيت به مصافحة اللّئام

وكثير مما يدور على ألسنة النّاس اليوم من قصص، قد يداخلنا الشك في مسايرتها لما يراه الطّبّ الحديث، ونظنّ أنّها أمور نبتت في أذهان بدائيّة، وقد نرفضها بسهولة، أو نقبلها تسلية، وإن أفسحنا لها مجالا في تفكيرنا فإنّما لأننا نريد من علماء الطّبّ الحديث أن يقولوا رأيهم فيها:

هل تذكر قصّة القراد (أو لعلها حلمة)، وهو الحشرة التي تلتصق بثدي الدّابة، فتمصّ من دمه، وتعيش على ذلك. ويقال

(١) عيون الأنباء ٢/٣٦٩ .



إنّ هنـــاك من ابـتلعهــا ، ووقفت داخـــل جرانه[1] ، وسببت له آلاما مبرّحة ، وأتت على صحّتـه وعـافيته ، مما جعل علّته واضحة ، ومـرضـه ظاهـرا ، وأنّ شخصا عارفا أدرك سبب العلّة ، فسلخ جلد ثدي بعير أو بقرة ، وأدلاه في حلق المـريض ، فأفلت القـراد ما كان ممسكـــا به ، عنـــد شمّ رائحـــة بيئتـه الطّبيعّية ، وأمسك بالجلد المدلّى إليه ، فجذبه مدلّيه ، وأخرجه ، فوجده قد نمى إلى ضعف ما كان عليه عندما دخل في حلقه .

والعلق ـ يا بُنَيّ ـ كان معروفا في المياه في نجد وغيرها ، وكان النّاس عندما يريدون أن يشربوا ، يضعون على طرف الوعاء الذي يشربون منه قطعة قماش ، تحول دون دخول العلق إلى أجسامهم مع الماء .

ويقال أِن أحدهم ابتلع علقة . فمكثت عالقـة بمجـرى الماء في صدره ، ومع طول

(١) لاحظ أنّها لم تنزل إلى المعدة وإلا قتلتها العصارة!

المـدّة سببّت له آلامـا، واعتلّت صحّتـه بسببهـا، وعـالجه أحد العارفين بأن أحضر «خوبان» أو «شبا» وهو الطحلب الذي ينمو في البرك والسّواقي، وقرّبه من فمه، فشمّت العلقة رائحته، وخرجت تريده.

إنّ ما كنّا نسمعه لم يكن وحي بيئتنا في نجد، أو قد يكون، ولكنْ هناك قصصا تُروى عن مثل ذلك في العصر العبّاسي، في بلد الطّبّ المتقدّم حينئذ، في العـراق، إسمع هذه القصّة وهي أيضا من كتاب عيون الانباء[1].

«قـدم غلام من بغـداد إلى الرَّي، وهو ينفث الـدّم، وكـان لحقه ذلك في طريقه، فاستدعى أبا بكر الرّازي، الطّبيب المشهور بالحذق، صاحب الكتب المصنفة، فأراه ما ينفث، ووصف ما يجد، فأخـذ الـرّازي مجسّتـه، ورأى قارورته، واستوصف حاله

(١) عيون الأنباء ٣٤٦/٢ .



منذ بدأ ذلك به، فلم يقم له دليل على سلّ ولا قرحة، ولم يعرف العلّة، فاستنظر الرّجل ليتفكّـــر في الأمـور، فقـامت على العليـل القيامةّ، وقال: «هذا يأس لي من الحياة»، لحذق المتطبّب، وجهله بالعلّة، فازداد ما به.

(وجـــاء في ذهــن الـــرّازي أن يعيـــد استجـوابه)، فسأله عن المياه التي شربها في طريقه، فأخبره أنّه قد شرب من مستنقعات وصهاريج، فقام، في نفس أبي بكر الرّازي، الـرأي، بحدّة الخاطر، وجودة الذكاء، أنّ علقة كانت في الماء، فحصلت في معدته[1]، وأنّ ذلك النّفث للدّم من فعلها، فقال له: إذا كان في غدٍ جئتـــك، وعـــالجتـك، ولم أنصرف أو تبرأ، ولـكن بشرط (أن) تأمـــر غلمانـك أن يطيعـوني فيـك بما آمرهم به.

(١) ان كانت وصلت حقّا إلى المعدة فعلى الاطبّاء المحدثين أن يفيدونا عمّا إذا كانت تنجو من حدّة عصارة المعدة.

فقال: نعم.

وانصرف الرّازي، فتقدّم، فجمع له ملء مركنين كبيرين من طحلب أخضر، فأحضرهما من غد، وأراه إيّاهما، وقال له: إبلع جميع ما في هذين المركنين. فبلع الرّجل شيئا يسيرا، ثم وقف، فقال: إبلع، فقال: لا أستطيع، فقال للغلمان: خذوه فأنيموه على قفاه، ففعلوا به ذلك، وطرحوه على قفاه، وفتحوا فاه، وأقبل الرّازي يدسّ الطّحلب في حلقه، ويكبسه كبسا شديداً، ويطالبه ببلعه شاء أو أبى، ويتهدّده بالضّرب، إلى أن بلع، كارها، أحد المركنين بأسره، والرّجل يستغيث فلا ينفعه مع الرّازي شيء، إلى أن قال السّاعة أَقذِف، فزاد الرّازي فيما يكبسه في حلقه، فذرعه القيء فقذف.

وتأمل الرّازي قذفه، فإذا فيه علقة، وإذا هي لمّا وصل إليها الطّحلب[1] قرمت إليه

(١) ترى ما مدى نظافة الطّحلب، وخلوّه من العلق أو بيضه!!



بالطّبع، وتــركت موضعهــا، والتفّت على الـطّحلب، فلما قذف الـرّجل خرجت من الطّحلب، ونهض الرّجل معافى».

وتذكّر ـ يا بُنَيّ ـ القصّة[1] التي أخبرتك أنّها كانــت تتــداول إلى زمــن قريب، بأنّ شخصــا رأى بيض حيّة، (النّاس إلى اليوم فريقــان، فريق يقــول: إن الحيّــة، خلافا للمعتاد، تلد، وفريق يقول إنها تبيض، تبعا للقاعدة التي تعرفها: وهي أنّ ما ليس له آذان بارزة يبيض)، فأراد الــرّجــل أن يداعب الحيّة، ويعرف ما ستفعل إذا أخذ بيضها، فخنقت الحيّة عندما جاءت فلم تجد بيضها في مكانه، فدخلت إلى المكان الذي فيه لبن في بيت الرّجل، وشربت منه، ثم مجّته مرّة أخــرى في الوعاء، وفيه طبعا ما يتوقع من السمّ، فلما عادت إلى بيتها وجدت البيض،

(١) يطغى الخيال في هذه القصص، فتتصرّف الحيوانات والدّوابّ تصرّفا هو أقرب إلى تصرّف الانسان ذي العقل والادراك.

فعادت لتصلح ما أفسدته، ولتنقذ الرّجل من أن يموت بسمّها، (الذي وضع القصّة - يا بُنيّ - لابد أنّ في فكره في هذه المرحلة من القصّة أن الحيّة عرفت أنه مزاح، وهي لا مانع عندها من المداعبة، أو أنها ظنّت أنّها كانت واهمة في المرّة الأولى عندما ظنّت أنّ البيض لم يكن في مكانه - تفكير إنسان لا حيّة!!)، فغمست نفسها في اللّبن (يعني أخذت حمّام لبن!)، ثم ذهبت إلى مشبّ النّار، «وتدغملت»، وقلبت جسمها في الرّماد، ثم عادت إلى وعاء اللّبن، فعكرت صفاءه، ليعرف أهله أنّ فيه ما يجعله غير سائغ للشّرب. كلّ هذا والرّجل ينظر إليها فيما فعلته، وتمّت له التّجربة بهذا!!

هناك قصّة ليست بعيدة عن هذه، وربما أنّها الأصل في هذه مع بعض الزّيادة التي أوجبها اختلاف بيئة القاصّ. وهي مرويّة في كتاب عيون الانباء[1]، عن الرّازي، قال:

(١) عيون الأنباء ٢/٣٤٧ .



اجتـزت في طريقي بنيسـابـور، بيقام، وهي النّصف من طريق نيسابور إلى الرّيّ، فاستقبلني رئيسهـا، وأنزلني داره، وخدمني أتمّ خدمة، وسألني أن أقف على ابن له به استسقـاء. فأدخلني إلى دار قد أفردها له، فشـاهـدت العليـل، فلم أطمـع في برئه، فعلّلت القـول بمشهـد من العليـل، فلمّا انفــردت أنـــا بأبيـــه سألني أن أصـدقـه، فصدقته، وآيسته من حياة ابنه، وقلت له: مكّنـه من شهواته فإنه لا يعيش، وخرجت من خراسـان، وعـدت منها بعد اثنى عشر شهرا، فاجتزت به، فاستقبلني الرّجل بعد عودتي. فلمّا لقيته استحييت منه غاية الحياء، ولم أشكّـك في وفـاة ابنه، وأنّي كنت نعيته إليه، وخشيت من تثقّله بي، فأنزلني داره، فلم أجد عنده ما يدلّ على ذلك، وكرهت مسألته عن ابنه، لئلا أجدّد عليه حزنا، فقال لي يوما: تعرف هذا الفتى؟ وأومأ إلى شابّ،



حسن الـوجه والصّحّة، كثير الدّم والقوّة، قائم مع الغلمان يخدمنا، فقلت: لا! فقال هذا ولدي، الذي آيستني منه عند مضيّك إلى خراسان، فتحيّرت، وقلت: عرّفني سبب برئه.

فقال لي: بعد قيامك من عنده فطن أنّك آيستني منه. فقال لي: لست أشك أنّ هذا الرّجل، وهو أوحد في الطّبّ في عصره هذا، قد آيسك منّي، والذي أسألك أن تمنع هؤلاء الغلمان، يعني غلماني الـذين كنت أخـدمـه إيّاهم، فإنهم اترابي، وإذا رأيتهم معافين، وقد علمت أنّي ميت، تجدّد على قلبي حمّى تعجّـل لي المـوت، فأرحني من هذا بأن لا أراهم، وأفْرد لخدمتي فلانة، دايتي، ففعلت ما سأل، وكَان يُحمل إلى الدّاية كل يوم ما تأكله.

فلما كان بعد أيام حُمل إلى الدّاية مضيرة لتـأكـل، فتركتهـا بحيث يقـع عليهـا نظر

ولدي، ومضت في شغل لها، فذكرت أنها لمّا عادت وجدت ابني قد أكل أكثر ما كان في الغضارة، وبقي في الغضارة شيء يسير، مغيّر اللون، قالت العجوز: فقلت: ما هذا؟ فقال: لا تقربي الغضارة، وجذبها إليه، وقال: رأيت أفعى عظيما[1]، وقد خرج من موضع ودبّ إليها، فأكل منها، ثم قذف، فصار لونها كما ترين. فقلت أنا ميّت، ولا أودّ أن يلحقني ألم شديد، ومتى أظفر بمثل هذا! وأكلتُ من الغضارة ما استطعت، لأموت عاجلا وأستريح[2]، فلما لم استطع زيادة أكل رجعت إلى موضعي، وجئتِ أنت.

قالت: ورأيت المضيرة على يده وفمه، فصحت، فقال: لا تعملي شيئا، أو تدفني

(١) تلعب الأفعى، والمداواة منها، والمداواة بها، أو بسببها، دوراً كبيراً، انظر في ترجمة ابن الاصمّ الطبيب الحيّة التي دخلت في فم نائم، واعترضت ووقفت.

(٢) قاتل نفسه في النار، ولا أدلّ من هذه الحادثة في أنّ الصّبر مفتاح الفرج.

الغضارة بما فيها، لئّلا يأكلها انسان فيموت، أو حيـوان فيلسع انسانا فيقتله. ففعلتْ ما يقال. وخرجتْ إليّ، فلما عرّفتني ذلك ذهب عليّ أمري، ودخلتُ إلى ابني، فوجدته نائما، فقلت: لا توقـظوه حتى ننظر ما يكون من أمـره، فانتبـه آخـر النّهار، وقد عرق عرقا شديدا، وهو يطلب المستحمّ، فأُنهض إليه، فاندفع بطنه، وقام من ليلته، ومن غد، أكثر من مئة مجلس، فازداد يأسنا منه، وقلّ القيام بعد أن استمر أياما، وطلب فراريج فأكل، ولم تزل قوتـه تثـوب إليه،. وقد كان بطنه التصق بظهـره، وقوي طمعنـا في عافيتـه، فمنعناه من التخليط، فتزايدت قوّته، إلى أن صار كما ترى[1].

فعجبت من ذلـك، وذكرت أنّ الأوائل قالت: إن المستسقِي إذا أكل من لحم حيّة

(١) تلعب الحيات دوراً في المعالجة الشعبية، انظر نشوار المحاضرة ٣/١٦٤ ففيها شيء عن ذلك. والعامة في نجد يعتقدون أن الحية إذا قتلت، وسورع في كحل العين بذيلها، فان العين تستفيد.



عتيقة مزمنة، لها مئون سنين برأ، ولو قلت لك إن هذا علاجه، لظننت أني أدافعك، ومن أين نعلم كم سنوّ (كذا) حيّة إذا وجدناها، فسكتّ (عن ذكر ذلك لك)[1].

وتذكر - يا بُنَيّ - ما كان يتحدّث به أحد كبار السّنّ أمامك، من أن النّمس أو أبو عرس، عندما يقاتل الحيّة يحرص أن يكون قرب شجرة الرمرام، فإذا أخذت منه غرّة ولدغته، ذهب إلى هذه الشّجرة، ومرّغ جسمه عليها، فاتّقى بهذا شرّ سمّها، ثم يعود إليها ليقاتلها حتى ينال منها، ويقضي عليها. ولقد وجدتُ شيئا مثل هذا لدى القدامى من أهل الطّبّ، وإليك ما ذكروه[2].

«حكي أنّ إنسانا رأى (طير) الحُبارَى تقاتل الأفعى، وتنهزم عنها إلى بقلة، تتناول منها، ثم تعود لقتالها، وإنّ هذا الانسان

(١) ترى هل الحقيقة، إن صح أن الرّازي رواها حقا، تكمن في أن الصبي عالجه طبيب آخر فمن باب الادب ذكر والده للرّازي ما ذكره.

(٢) عيون الأنباء ١/٢٥ .



عاينها، فنهض إلى البقلة، فقطعها عند اشتغال الحُبارى بالقتال، فعادت الحُبارى إلى منبتها، ففقدتها، وطافت عليها، ولم تجدها، فخرّت ميتة، فقد كانت تتعالج بها.

وابن عرس يستظهر في قتال الحيّة بأكل السذاب».

وقد أتى المؤلف بكثير من هذه الأمور في هذا الباب، ويمكنك الرّجوع إليه.

وأود - يا بُنَيّ - في هذه المرحلة من الحديث، أن أفتح لك نافذة صغيرة، تطلّ منها على عقول هؤلاء الاطباء الحكماء، ومدى عمق ثقافتهم، وحدّة تفكيرهم وذكائهم، ونظرتهم العامّة إلى الحياة، وإلى ما يدور حول نهضتهم. وهي أمور تعتبر إطارا لما يأتي منهم في مجال المعالجة، وأحيانا هو أسّ من أسسها:

يقول أبو بكر الرّازي : «الحقيقة في الطّبّ غاية لا تدرك، والعلاج بما تنصّه



الكتب، دون اعمال الماهر الحكيم برأيه، خطر»[1].

وهذا يؤكد ـ يا بُنَيّ ـ أنّ الأمر ليس أمر حفظ فقط، ولكن لا بدّ أن يساعدك فيما تأخذ من الكتب مما هو حصيلة تجارب الآخرين، رأي تديره في ذهنٍ قادر على التدبّر والتبصّر والتصرّف.

ويقول الرّازي أيضاً:

«الاستكثـــار من قراءة كتب الحكـماء، والاشراف على أسرارهم، نافع لكل حكيم عظيم الخطر»[1].

وقال :

«العمر يقصر عن الوقوف على فعل كلّ نبات في الأرض، فعليك بالاشهر مما أُجمع عليه، ودع الشاذّ، واقتصر على ما جربت»[3].

(١) عيون الأنباء ٢/٣٥٠ .

(٢) عيون الأنباء ٢/٣٥٠ .

(٣) عيون الأنباء ٢/٣٥٠ .



هذا في زمنه، فكيف إذا أضيف ما عرف في زمنه إلى ما عرف في زمننا. وربما أنّ هذا ما دعا القوم في زمــاننــا ـ يلجؤون إلى التخصص، ثم التخصّص الدّقيق، أو تخصّص التّخصّص، إذا صحّ هذا التعبير.

وقال :

«النـاقهـون من المرض إذا اشتهـوا من الطّعام ما يضرّهم فيجب للطّبيب أن يحتال في تدبـير ذلـك الطّعام، ويصرفه إلى كيفيّةٍ موافقـة، ولا يمنعهم ما يشتهـون بتة[1]، » (لعلها البته).

وهذه حيلة ناجحة، فهم يأكلون في نظرهم ما يشتهون، والحقيقة أنّهم يأكلون ما يعرف الطّبيب أنـه ينـاسبهم، لأنّ ظاهره، ما يشتهون،وباطنه ما يسمح به المرض.

---

(١) عيون الأنباء ٢/٣٥١ .



وقال :

«ينبغي للطّبيب أن يوهم المـريض أبـداً الصّحـة، ويرجّيه بها، وإن كان غير واثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لاخلاق النّفس»[1]

وقال :

«يـنـبغي للطّبيب أن لا يدع مســاءلــة المريض عن كل ما يمكن أن تتولّد عنه علّته من داخل ومن خارج، ثم يقضي بالأقوى»[2].

وقال :

«ينبغي للمريض أن يقتصر على واحد ممن يوثق به من الاطبّاء، فخطؤه في جنب صوابه يسير جداً»[3].

---

(١) عيون الأنباء ٣٥١/٢ .

(٢) عيون الأنباء ٣٥١/٢ .

(٣) عيون الأنباء ٣٥١/٢ .



وقال :

«من تطبّب عند كثيرين من الاطبّاء يوشك أن يقع في خطأِ كلّ واحد منهم»[1].

وقال :

«إن استطاع الحكيم أن يعالج بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السّعادة»[2].

وقال :

«ما اجتمع الاطبّاء عليه، وشهد عليه القياس، وعضّدته التّجربة، فليكن أمامك، وبالضّدّ»[3].

وأظنّ - يا بُنَيّ - في كل ما قلناه ما لا يخالفه حملة الطّبّ الحديث، وهو قواعد عامّة يقوم عليها خلق الطّبّ في كلّ زمن.

---

(١) عيون الأنباء ٢/٣٥١ .

(٢) عيون الأنباء ٢/٣٥١ .

(٣) عيون الأنباء ٢/٣٥١ .



وهؤلاء الاطبّاء الذين عرفوا بالحذق في الطّبّ، وصفاء الحكمة، لهم كلمات مأثورة حميدة عن تجاربهم في الحياة، تلمس الرّوح بعلاج لا يقلّ جودة ونجاحا عن نجاحهم في طبّ الجسد، وقد تعجب من توافق ما يقولون مع ما يدعو إليه الدّين، ولكن كلّ نتاج العقل الصّحيح يتّفق مع الدّين:

هذا اسقليبيوس ينقل عنه الأمير أبو الوفاء المبشّر ابن فاتك في كتابه: «مختار الحكم، ومحاسن الكلم» أنّه كان يقول:

«إنّ أحدكم بين نعمة من بارئه، وبين ذنب عمله، وما يصلح هاتين الحالتين إلاّ الحمد للمنعم، والاستغفار من الذّنب»(١).

وقال:

«كم من دهر ذممتموه، فلما صرتم إلى غيره حمدتموه، وكم من أمر أبغضت أوائله،

---

(١) عيون الأنباء ٣٦/ ١.



وبكي عند أواخره عليه»[1].

وقال:

«فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها»[2].

وقال:

«اعطاء الفاجر تقوية له على فجوره، والصنيعة عند الكفور إضاعة للنّعمة، وتعليم الجاهل ازدياد في الجهل، ومسألة اللّئيم إهانة للعرض»[3].

وقال:

«إنّي لأعجب ممن يحتمي من المآكل الرديئة مخافة الضّرر، ولا يدع الذّنوب مخافة الآخرة»[4].

---

(١) عيون الأنباء ١/٣٦.

(٢) عيون الأنباء ١/٣٦.

(٣) عيون الأنباء ١/٣٦.

(٤) عيون الأنباء ١/٣٦.



وقيل له صف لنا الدّنيا فقال:

«أمس أجل، واليوم عمل، وغدا أمل»[1].

ولأ بقراط حِكَم اشتهر بها منها:

«كلّ مرض معروف السّبب مرجو الشّفاء»[2].

وقال:

«إن النّاس اغتذوا في حال الصّحة بأغذية السّباع فأمرضتهم، فغذوناهم بأغذية الطّير فصحّوا»[3].

وقال:

«لا تشرب الدّواء إلّا وأنت محتاج إليه،

---

(١) عيون الأنباء ١/٣٦ .
(٢) عيون الأنباء ١/٤٨ .
(٣) عيون الأنباء ١/٤٨ .



فإن شربته من غير حاجة، ولم يجد داء يعمل فيه، وجد صحّة يعمل فيها، فيحدث مرضا»[1].

وقال:

«العافية ملك خفيّ، لا يعرف قدرها إلا من عدمها»[2].

وقيل له أيّ العيش خير قال:

«الأمن مع الفقر خير من الغنى مع الخوف»[3].

وقال:

«محاربة الشّهوة أيسر من معالجة العلّة»[4].

---

(١) عيون الأنباء ١/٤٨ .
(٢) عيون الأنباء ١/٤٨ .
(٣) عيون الأنباء ١/٤٨ .
(٤) عيون الأنباء ١/٤٩ .



ودخل على عليل فقال :

«أنا والعلّة وأنت ثلاثة، فإن أعنتني عليها بالقبول منّي لِمَا تسمع، صرنا اثنين، وانفردت العلّة، فقوينا عليها، والاثنان إذا اجتمعا على واحد غلباه»[1].

ولما حضرته الوفاة قال :

«خذوا جامع العلم منّي: من كثر نومه، ولانت طبيعته، ونديت جلدته، طال عمره»[2].

وقد أثر عنه قوله :

«العلم كثير، والعمر قصير، فخذ من العلم ما يبلغك قليله إلى كثيره»[3].

وقال :

«استدامة الصّحة تكون بترك التّكاسل

---

(١) عيون الأنباء ١/٤٩ .

(٢) عيون الأنباء ١/٤٩ .

(٣) عيون الأنباء ١/٤٩ .



عن التّعب، وبترك الامتلاء من الطّعام والشّراب»[1].

وقال :

«الاقلال من الضّار، خير من الاكثار من النّافع»[2].

ويروى عن فيثاغورس قوله :

«الانسان الذي اختبرته بالتّجربة، فوجدته لا يصلح أن يكون صديقا وخِلاّ، إحذر أن تجعله لك عدوّا»[3].

وقال :

«الأخلق بالانسان أن يفعل ما ينبغي لا ما يشتهي»[4].

---

(١) عيون الأنباء ١/٥٠ .
(٢) عيون الأنباء ١/٥٠ .
(٣) عيون الأنباء ١/٦٦ .
(٤) عيون الأنباء ١/٦٦ .



وقال :.

«ينبغي أن يعرف الوقت الذي يحسن فيه الكلام، والوقت الذي يحسن فيه السكوت»[1].

وقال :

«ليس الحكيم من حمل عليه بقدر ما يطيق فصبر واحتمل، ولكنّ الحكيم من حمل عليه أكثر مما تحتمل الطّبيعة فصبر»[2].

أمّا سقراط فأوصله علمه وحكمته إلى معرفة حقائق الكون، فآمن بالله، وكفر بالاصنام التي كان يعبدها قومه، ولما سأله تلاميذه عنها: «صدّهم عنها، وأبطلها، ونهى النّاس عن عبادتها، وأمرهم بعبادة الإله الواحد الصمد، البادئ، الخالق

---

(١) عيون الأنباء ٦٦/١ .

(٢) عيون الأنباء ٦٦/١ .

للعالم بما فيه، الحكيم القدير، لا الحجر المنحوت، الذي لا ينطق، ولا يسمع، ولا يحسّ بشيء من الآلات، وحضّ النّاس على البرّ، وفعل الخيرات، وأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن الفواحش والمنكرات»[١].

وشهر عنه أقوال من الحكمة، أصبحت على الألسن، منها قوله: «عجبا لمن عرف فناء الدّنيا كيف تلهيه عمّا ليس له فناء»[٢].

وقال:

«النّفوس أشكال فما تشاكل منها اتّفق، وما تضادّ منها اختلف».

وقال:

«النّفس جامعة لكلّ شيء، فمن عرف نفسه عرف كلّ شيء، ومن جهل نفسه جهل كلّ شيء»[٣].

---

(١) عيون الأنباء ١/٧١.
(٢) عيون الأنباء ١/٧٤.
(٣) عيون الأنباء ١/٧٥.



وقال :

«من بخل على نفسه فهو على غيره أبخل»[1] .

وقال :

«ستة لا تفارقهم الكآبة : الحقود والحسود، وحديث عهد بغنى، وغني يخاف الفقر، وطالب رتبة يقصر قدره عنها، وجليس أهل الأدب وليس منهم»[2] .

وقال :

«من ملك سرّه، خفي على النّاس أمره»[3] .

وقال :

«خير من الخير من عمل به، وشرّ من

---

(١) عيون الأنباء ١/٧٥ .

(٢) عيون الأنباء ١/٧٥ .

(٣) عيون الأنباء ١/٧٥ .



الشرّ من عمل به»(١).

وقال :

«العقول مواهب، والعلوم مكاسب»(٢).

وله حكم كثيرة، لعلّك ترجع إليها في هذا المرجع، أو في غيره، ففيها عصارة فكر، ونتيجة تجارب، وحصيلة عمر، وعلم وتروّ وتدبّر وتبصّر، تُهدَى إليك مهيّأة معدّة ميَسّرة، وقد تعبت عليها أجيال، سلسلوها لك مع الزّمن، وحفظوها، فاْعرف قدرها، واعطها حقها، بقبولها والعمل بها، تساهم في حصد ثمرتها، وجني طرحها الخيّر. وتملأ نفسك برضاك عنها في ضوء ما وفرت لنفسك من معلومات، عملت بها، وصرت قدوة لغيرك، ممن هم في حاجة إلى القدوة، ممّن حولك، أقرباء أو أصدقاء أو زملاء.

(١) عيون الأنباء ١/٧٥ .
(٢) عيون الأنباء ١/٧٥ .



وهذا ـ يا بُنَيَّ ـ ارسطوطاليس يقول من مقالته المشهورة، عندما أحجم غيره عن الكلام، وازدرته العيون، ولكنّه أجاد في القول، وأحسن في التعبير، في مقال طويل،أمام مشهد عظيم، وصبّ في الآذان من الأقوال الحكيمة ما شنّف الأسماع، وأبهج النّفوس، ورفعه عند القوم مكانا عليا.

يقول في بعض ما قال[1]:

«أيها الأشهاد! بالعقول تفاضل النّاس لا بالأصول، وعَيْتُ عن أفلاطون الحكيم: الحكمة رأس العلوم، والآداب تلقيح الأفهام، ونتائج الأذهان. وبالفكر الثّاقب يدرك الرأي العازب، وبالتأنّي تسهل المطالب، وبلين الكلم تدوم المودّة في الصّدور، وبخفض الجناح تتمّ الأمور، و بسعة الأخلاق يطيب العيش، ويكمل السّرور، وبحسن الصّمت جلال الهيبة،

(١) عيون الأنباء ٩٦/١ .



وبإصابة المنطق يعظم القدر، ويرتقي الشّرف، وبالتّواضع تكثر المحبة، وبالعفاف تزكوا الأعمال، وبالأفضال يكون السّؤدد، وبالعدل يقهر العدوّ، وبالحكم تكثر الأنصار، وبالرّفق تستخدم القلوب، وبالأيثار يستوجب اسم الجود، وبالأنعام يستحق اسم الكرم،

وهي مقالة طويلة تسير على هذا المنهاج، تبيّن الفضائل وأسبابها، وكيفيّة الاتصاف بها. فإن أردت المزيد منها فارجع إلى هذا المرجع القيّم».

وله في بعض أبواب الحكمة[١]:

«إعلم أن من علامة تنقّل الدّنيا، وكدر عيشها، أنّه لا يصلح منها جانب إلا بفساد آخر، ولا سبيل لصاحبها إلى عزّ إلّا باذلال، ولا استغناء إلّا بافتقار. وأعلم أنّها ربما

(١) عيون الأنباء ٩٨/١ .



أصيبت بغـير حزم في الرأي، ولا فضل في الـدّين، فإن أصبت حاجتـك منهـا وأنت مخطئ، أو أدبرت عنك وأنت مصيب، فلا يستخفّك ذلك إلى معاودة الخطأ، ومجانبة الصّواب».

وقال :

«إعلم أنّه ليس من أحد يخلو من عيب، ولا من حسنـــة، فلا يمنعـك عيب رجـل من الاستعانة به فيما لا نقص به فيه، ولا يحملنّك ما في رجل من الحسنات على الاستعانة به فيما لا معونة عنده عليه، واعلم أنّ كثرة أعوان السّوء أضرّ عليك من فقد أعوان الصّدق».

وقال :

«العدل ميزان الله عَزّ وجلّ في أرضه، وبه يؤخـذ للضّعيف من القويّ، وللمحقّ من المبطل، فمن أزال ميزان الله عما وضعه بين



عباده فقد جهل أعظم الجهالة، واغترّ بالله، سبحانه، أشدّ اغترار»[1].

وقال:

«العالم يعرف الجاهل، لأنّه كان جاهلا، والجاهل لا يعرف العالم لأنّه لم يكن عالما»[1].

وقال:

«ليس طلبي للعلم طمعا في بلوغ قاصيته، ولا الاستيلاء على غايته، ولكن التماساً لما لا يسع جهله، ولا يحسن بالعاقل خلافه»[1].

وقال:

«كن رؤوفا رحيما، ولا تكن رأفتك فسادا لمن يستحقّ العقوبة، ويصلحه الأدب»[1].

(١) عيون الأنباء ١/٩٨.

وقال :

«من أفـرط في اللّوم كره النّاس حياته، ومن مات محموداً كان أحسن حالا ممن عاش مذموما»[1].

وكتب إلى الاسكندر في وصايا له :[1]

«إنّ الأرديـاء (أي الـرّديئـين) ينقـادون بالخـوف، والأخيار ينقادون بالحياء، فميّز بين الـطّبقتين، واستعمل في أولئك الغلظة والبطش، وفي هؤلاء الأفضال والاحسان».

ما رأيك ـ يا بُنَيّ ـ لو أنّك جلست مجلس الحكمة مثلما جلس، وسئلت مثل ما سئل : «ما الشّيء الذي لا ينبغي أن يقال وإن كان حقاً؟ حقّا إنّه لغز، ولا يستطيع الاجابة عليه إلا حكيم. وإذا كنت مبتعدا في تفكـيرك عن حلّه، فجواب أرسطوطاليس كان السّهل الممتنع.

(١) عيون الأنباء ٩٩/١ .



لما سئِل هذا السؤال قال:

«مدح الإنسان نفسه».

ولما قيل له: لم حَفِظت الحكماء المال؟ قال:

«لئلا يقيموا أنفسهم المقام الذي لا يستحقونه».

وقال:

«امتحن المرء في وقت غضبه لا في وقت رضاه»[1].

ولعل هذا ـ يا بُنَيّ ـ يكفي في معرفة اتجاه فكر هذا الحكيم، ولعلك استفدت كما أمّلت فيك أن تستفيد.

وهناك أمر أطرقه لطرافته، ولأنه يدخل في أمر الطّبّ، ولأنّنا تحدّثنا يوما عن جانب منه، وهذا الجانب هو «المِعْيَاره» أو «المُعَايبة» أو اللقب الذي لا

---

(١) عيون الأنباء ١٠٠/١.



يرضي، وطرافته وغرابته فيما أوصل إليه من كسب عظيم، ومهنة محترمة، وفائدة مؤكدة لصاحبه:

تحدث الطبيب أبو بكر القاضي ابن أبي الحسن الزهري، قال:

كنت كثير اللعب بالشّطرنج، ولم يكد يوجد من يلعب به مثلي في اشبيلية، إلّا القليل، فكانوا يقولون: أبو بكر الزّهري الشّطرنجي، فكان إذا بلغني ذلك أغتاظ منه، ويصعب علي، فقلت في نفسي، لابدّ أن أشغل عن هذا بشيء غيره من العلم، لأنعت به، ويزول عنّي وصف الشّطرنج، وعلمت أنّ الفقه، وسائر الأدب، لو اشتغلت به عمري كله لم يخصّني منه وصف أنعت به، فعدلت إلى أبي مروان عبدالملك ابن زهر (الطّبيب)، واشتغلت عليه بصناعة الطّب، وكنت أجلس عنده، وأكتب لمن جاء مستوصفا من المرض الرّقاع، واشتهرت بعد

ذلــك بالــطّبّ، وزال عنّي ما كنت أكــره الوصف به[1].

هل تتصوّر طبيبا، اليوم يدرس الطّبّ لأنّ أحداً عاب عليه شيئا، جعله لقبا له، على أيّ حال، همّة الـرّجـال لا يقف أمـامهـا أحـد، إذا كان وراءها تصميم وعزم، وأوقد تحتها ما يجعل مرجلها يغلي، ونارها تتقّد بلهب يدفع إلى الأمام أو إلى أعلى.

ولم يكن غريبا ـ يا بُنَيّ ـ أن يختار هذه المهنة، لأنّها كما يبـدو كانت مهنـة محترمـة عنـد النّـاس، لاحـترام أهـل المهنـة أنفسهم لها، وابتعادهم عمّا يشينهـا، بدليـل أنّ أصحابها يوصفون بالحكمة، والمـبرز فيهم يتّصل سببه بالسّلطان، ومن الأمور التي تدلّ على ما يحرص أصحابها على إبقائه لها من المهابة والشّرف القصّـة التالية، وهي تُروى عن الطبيب جمال الدين بن أبي الحوافر:

(١) عيون الأنباء ٣/١٣١ .



ركب يوما فرأى في بعض النّواحي على مسطبّة بيّاع حمّص مسلوق، وهو قاعد، وأمامه كحّال يهودي، (والكحل من عمل الطّبيب، ولعلّه هنا كان مبتدئا)، وهو واقف، وبيده المكحلة والميل، وهو يكحل ذلك البيّاع (الجالس)، فحين رآه على تلك الحال ساق بغلته نحوه، وضربه بالمقرعة على رأسه، وشتمه، وعندما مشى معه (الكحّال) قال له: إذا كنت أنت سفلة في نفسك، أَمَا للصّناعة حرمة؟ كنت قعدت إلى جانبه، وكحلته، ولا تبقَى واقفا بين يدي عامّيّ، بيّاع حمّص. فتاب (الكحّال) أن يعود ليفعل مثل ذلك الفعل، وانصرف[1].

ولا تعجب ـ يا بُنَيّ ـ من ارتقاء مستواهم، وهم بهذه الحكمة والمنزلة، ولم تأتهم سهلة، ولكنّهم استحقّوها بتثقيف أنفسهم ثقافة استحقّوا بها ما

---

(١) عيون الأنباء ١٩٨/٣ .

نالـوا. فكانوا يقرؤون كثيرا، ويقتنون الكتب في كل فنّ:

هذا أفـرائيم بن الـزّفـاّن، من أطبّـاء مصر المشهورين، كانت له همّة عالية في تحصيل الكتب، وفي استنساخها حتى كان عنده خزائن من الكتب الـطّبيّة وغيرها، وكان أبداً عنده النّساخ يكتبون، ولهم ما يقـوم بكفـايتهم منـه. وقد جاء رجل من العراق ليشتري كتبا، ويتوجّه بها، وإنّه اجتمع مع أفرائيم، واتفق الحال فيما بينهما أن باعهُ افرائيم من الكتب التي عنده عشرة آلاف مجلّد، وكان ذلك في أيـام ولايـة الأفضل ابن أمير الجيوش، فلما سمع بذلك أراد أن تبقى تلك الكتب في الدّيار المصريّة، ولا تنقـل إلى موضع آخر، فبعث إلى افرائيم من عنـده بجملة المـال الذي كان قد اتّفق تثمينه بين افرائيم والعراقي[1].

ولا تعـجـب ـ يا بُنَيّ ـ من تعـلّقهم بالكتب،

(١) عيون الأنباء ١٧٤ ـ ٣/١٧٥ .



وتقديرهم لها، واحتيازها، فاسحق بن سليمان قد نيّف على مئة سنة، ولم يعقّب ولدا، فلما قيل له:

أيسرّك أنّ لك ولدا؟

قال: أما إذْ صار لي كتاب «الحمّيات» فلا.

يعني أن بقاء ذكره بكتاب الحمّيات أكثر من بقاء ذكره بالولد.

ويروى عنه أنه قال:

لي أربعة كتب، تحيي ذكري أكثر من الولد، وهي كتاب «الحمّيات»، وكتاب «الأغذية والأدوية»، وكتاب «البول»، وكتاب «الاسطقسات»[1]، وكان مستواهم المعيشي يعطيهم مكانة مرموقة في المجتمع، والاقبال على هذه المهنة يجعل عملهم في التّدريس مطلوبا، ويُتحمل فيه كل عناء، ورد في ترجمة أبو الفضائل النّاقد ما مؤدّاه:[2]

(١) عيون الأنباء ٣/٥٨ .

(٢) عيون الأنباء ٣/١٩١ .

كان كثير المعاش[1]، حتى أنّ الطّلبة والمشتغلين عليه كانوا في أكثر أوقاته، يقرؤون عليه وهو راكب، وقت مسيره، وافتقاده المرضى.

ويبدو أن الكسب عند بعضهم لم يكن هو الأهمّ، ولعلّ لثقافتهم، وعلوّ منزلتهم في المجتمع ما يجعلهم يأتون بما لا يستطيع الانسان العاديّ أن يأتي به، تقديرا للصّحة والعافية، وعدم اهدارهما بالارهاق والسعي وراء المال، وإذا كان أبو الفضائل قد تبرّع بمكسب يوم من دخله من الكحل وكحل النّاس، فعلي بن رضوان يلمح إلى أهمّيّة الرّياضة عندهم، وعدم أهمّية الرّكض وراء الرّبح.

فيقول:

إذا كان للإنسان صناعة ترتاض بها أعضاؤه، ويمدحه بها النّاس، ويكسب بها

(١) انظر مدخوله في يوم واحد من الكحل عيون الأنباء ١٩١/٣ وتصدّقه به جميعه قبل أن يعرف كم هو.



كفايته في بعض يومه، فأفضل ما ينبغي له في باقي يومه أن يصرفه في طاعة ربّه[1].

ويقـول:

أتصرّف كلّ يوم في صنـاعتي بمقدار ما يغني، ومن الـرّيـاضـة، التي تحفظ صحـة البـدن، وأغتـذي بعـد الاسـتراحـة في الرياضة، غذاء أقصد به حفظ الصحة[2].

وحكمته لا تقتصر على هذا الجانب من بدنه، وإنها تتعـدّى إلى النّـاحية النّفسيّة التي تأتي براحة البـال، وطمـأنينة النّفس، يشتريها بتضحية، هي عنده ثمن بخس مقابل ما تأتيه به من فائدته:

«لا أسلّف، ولا أتسلّف، إلّا أن أضطر لذلـك، وإن طلب منّي أحـد سلفا وهبت منه، ولم أرد منه عوضا»[3].

(١) عيون الأنباء ١٦٩ ـ ٣/١٧٠ .
(٢) عيون الأنباء ٣/١٦٥ ويستمرّ فيتحدّث عن بقيّة برنامجه اليوميّ الموزون.
(٣) عيون الأنباء ٣/١٦٦ .

وما دمنا بصدد الحديث عن هذا الطّبيب الحكيم، فيحسن أن أطلعك على بعض الجوانب الأخرى من تفكيره، وثقافته، ونظرته للحياة، ولمهنته، ومثل هذا الرّجل لابدّ أنّ المريض يطمئنّ إليه إذا سلّم نفسه له ليداويه، يقول عن المداواة:

«إذا دعيت إلى مريض فاعطه مالا يضرّه إلى أن تعرف علّته، فتعالجها عند ذلك، ومعنى معرفة المرض هو أن تعرف من أي خلط[1] حدث أولا، ثم تعرف بعد ذلك في أيّ عضو هو، وعند ذلك تعالجه[2]».

أما التشخيص فرأيه أن:

«تعرف العيوب (و) هو أن تنظر إلى هيئة الأعضاء والسحنة، والمزاج، وملمس البشرة، وتتفقّد أفعال الأعضاء الباطنة والظّاهرة، مثل أن تنادي به من بعيد، فتعتبر

(١) الاخلاط عندهم أساس في تأثير الأجسام واعتلالها وصحّتها.
(٢) عيون الأنباء ٣/١٧١.



بذلـك حال سمعـه، وأن تعتبر بصره بنظر الأشيـاء البعيـدة والقـريبة، ولسانه بجودة الكلام، وقوّته بشيل الثّقل والمسك والضّبط والمشي، وأنحـاء ذلك، مثل أن تنظر مشيه مقبلا ومدبرا، ويؤمر بالاستلقاء على ظهره، ممدود اليـدين، قد نصب رجليـه وصفّهما، وتعتـبر بذلك حال أحشائه، وتتعرف حال مزاج قلبه بالنبض وبالأخلاق، ومزاج كبده بالبول، وحال الاخلاط.

وتَعتَبر عقله بأن يُسأل عن أشياء، وفهمه وطاعته بأن يؤمر بأشياء وأخلاقه إلى ما تميل بأن تَعتَبر كل واحد منها بما يحرّكه أو يسكّنه.

وعلى هذا المثال إجرِ الحال في تفقّد كل واحد من الأعضاء والأَخلاق.

أما فيما يمكن ظهوره للحسّ فلا تقنع فيه حتى تشـاهـده بالحسّ، وأمـا فيـما يتعرّف بالاستـدلال ما يستـدلّ عليـه بالعـلامـات

الخاصّة. وأمّا فيما يتعرّف بالمسألة فأبحث عنه بالمسألة، حتى تعتبر كلّ واحد من العيوب، فتعرف هل (هناك) عيب حاضر، أو كان، أو متوقّع، أم الحال حال صحّة وسلام»[1].

قارن هذا - يا بُنَيّ - بقصّة ابن الطّيب الذي لم يدرس الطّبّ، وأراد أن ينفّذ وصيّة والده بعد وفاته، وكيف أنّه لم يتمكنّ من أن يحل محلهّ. هل تذكرها[2]؟

ونعود مرة أخرى - يا بُنَيّ - إلى علي بن رضوان الحكيم، لتعرف من أين غرف طبّه، وحكمته، وتعرف أنّ ثقافته لم تأت من قريب، وإنّما غاص إليها، عابرًا القرون، واختار ما هداه الله إليه، مما ينفع نفسه ومرضاه[3]:

(١) عيون الأنباء ١٧٠ - ٣/١٧١.
(٢) راجع «أيْ بُنَيّ» ٢٣٢/ ١ الطبعة الثالثة.
(٣) عيون الأنباء ٣/١٧٠.



يقـول :

«الـطّبيب على رأي بقــراط هو الـذي اجتمعت فيه سبع خصال :

الأولى : «أن يكون تامّ الخلق، صحيح الأعضـاء، حسن الـذّكـاء، جيّد الرويّة، عاقلا، ذكورا، خيّر الطبع».

الثانية : أن يكون حسن الملبس، طيّب الرّائحة، نظيف البدن والثّوب.

الثالثة : أن يكون كتوما لأسرار المرضى، لا يبوح بشيء من أمراضهم.

الرابعة : أن تكون رغبته في ابراء المرضى أكثـر من رغبتـه فيـما يلتمســه من الأجرة، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء.

الخــامســة : أن يكـون حريصـا على التّعليم، والمبالغة في منافع النّاس.



السادسة : أن يكون سليم القلب، عفيف النظر، صادق اللّهجة، لا يخطر بباله شيء من أمور النّساء، والأموال التي شاهدها في منازل الاعلاء، فضلا عن أن يتعرّف إلى شيء منها.

السابعة : أن يكون مأمونا، ثقة على الأرواح والأموال، لا يصف دواءً قتّالا، ولا يعلِّمه، ولا دواءً يسقط الأجنّة، يعالج بنيّة صادقة لما يعالج (به) حبيبه[1].

وقد ذكرت لك منذ قليل المشقّة التي يتعرضون لها في الدّراسة، والسّعي إلى الحصول على معلوماتهم في الطّبّ، فيسايرون المدرّس في ركوبه، وفي مروره على المرضى يأخذون منه، وقد يذهبون شبابا في بعثات إلى خارج قطرهم هذا رشيد الدّين أبو حليقة يأتمر لأمر الملك العادل فيرسل ابنه إلى

(١) ويتحدّث بعد ذلك عن صفات المعلّم، والمتعلّم، وعن البدن السّليم. عيون الأنباء ٣/١٧٠.



الحكيم أبي سعيد إلى دمشق ليقرئه الطّبّ[1].

وتعرف مدى سيطرتهم على أنفسهم، وعدم الاندفاع وراء العاطفة، أو نسيان مصلحة مرضاهم، فليسوا مثل بعض أطبّاء اليوم، الذين يعطون المريض عددا من الأدوية، قد يكون فيها ضرر أكثر من نفعها، إمّا لأنّهم غير متأكّدين من تشخيصهم، أو لأنّهم ـ كما يتّهمون أحيانا ـ متفقون مع صاحب الصّيدلية التي يحسب لهم نسبة مما يشتريه المرضى على أساس وصفاتهم، والله أعلم بالصّحيح.

استمع إلى ما يقال عن أحد الأطبّاء القدامى وهو ابن وافد:

كان لا يرى التّداوي بالأدوية ما أمكن التّداوي بالأغذية، أو ما كان قريبا منها، فإذا دعت الضّرورة إلى الأدوية، فلا يرى

(١) عيون الأنباء ٣/٢٠٥ .



التّداوي بمركّبها ما وصل إلى التّداوي بمفردها، فإن اضطرّ إلى المركّب منها لم يكثر التّركيب، بل اقتصر على الأقلّ بما يمكنه منه[1].

ويبدو أن هذا الطّبيب له إلمام في ذلك الزّمن بعلم الصّيدلة، فهو يشرف على عاملين عنده لسحق الأدوية، وعجنها، وتهيئتها بالصّورة المناسبة للمرضى، ويصل عدد العاملين إلى ما لم تكن تتصوّرهُ قبل أن تقرأ عنه[2].

وإذا كان في ذهننا أنّ الأشربة هي ما كانوا يعتمدون عليه، فقد ثبت أنّهم كانوا قد وصلوا إلى صنع الحبوب، بصورة متقدّمة[3].

---

(١) عيون الأنباء ٧٩/٣ .

(٢) قال ابن جلجل عن أحمد بن يونس بن أحمد الحرّاني رأيت اثني عشر صبيًا طبّاخين للأشربة، صنّاعين للمعجونات بين يديه. عيون الأنباء ٦٨/٣ .

(٣) كان سعيد بن عبد ربه يعالج بالحبوب، وبعث مرّة إلى مريض بثمان عشرة حبّة من حبوب مدوّرة، وأمر أن يأخذ منها كل يوم حبّة، فما أكملها حتى أقلعت عن المريض الحمّى. وبرىء برءً تامّاً. عيون الأنباء ٧١/٣ .



ومع هذا ـ يا بُنَيّ ـ تجد عندهم مالا يقنعك، بعد أن تشبعت بأفكار الطّب الحديث، وعلمت أن الصّحة، خاصّة لكبار السّنّ، يساعدها أكل لحم الطّير الأبيض، لأنّ رضي الدّين الرّكبي يرى خلاف ذلك، استمع للقصّة التّالية عنه:

الصاحب صفيّ الدّين ابن شكر، وزير الملك العادل أبي بكر بن أيّوب، كان أبدا يلازم أكل لحم الدّجاج، ويعدل عن لحم الضّأن، في أكثر الأوقات، فشكا إليه شحوبا قد غلب على لونه، وكان الأطبّاء يصفون له كثيرا من الأشربة وغيرها، فلما شكى إليه هذا، مضى لحظة، وعاد، ومعه قطعة من صدر دجاجة، وقطعة حمراء من لحم ضأن، ثم قال: أنت تلازم أكل لحم الدّجاج، فلم يأت الدّم المتولد منه مشرق الحمرة كما يأتي من لحم الضّأن، وأنت ترى لون هذا اللّحم من الضأن، ومباينتهُ في اللّون لهذه القطعة

من الدّجاج، فينبغي أنّك تترك أكل لحم الدّجاج، وتلازم أكل لحم الضّأن، فأنّك تصلح، وما تحتاج معه إلى علاج. قال: فقَبِل هذا الرّأي منه، وتناول ما أوصاه به، واستمرّ على ذلك مدّة، فصلح لونه، واعتدل مزاجه[1].

هذا ما روي عن هذا الطّبيب، وعن هذه الشّكوى، وهذه المعالجة، وهي تخالف الخطّ الذي يسير عليه الطّبّ الحديث من فائدة أكل لحم الطّيور البيضاء، والأسماك، ومن يعلم - يا بُنَيّ - فكثرة تغيّر مجرى فكر الطّبّ الحديث، نتيجة للأبحاث، قد يأتي معه يوم يوصي الأطبّاء المحدثون بخلاف ما كانوا يوصون به، فينصر الله الأطبّاء السابقين في قبورهم. فليست هذه أول مرّة يقول الطّبّ الحديث برأي يخالف تماما ما سبق أن ارتأّه وقال به، وما علينا إلّا أن ننتظر، على أي حال، لا ندري ما هي سنّ الرجل الذي ذكروا عنه هذه الشكوى، وما

---

(١) عيون الأنباء، ٣١٩ - ٣٢٠/٣ .



مدى صحّة الدّجاج، فقد يكون من نوع موبوء، وصحّ البدن بتركه.

وإذا كان في توصية الطّبّ في القصّة ما ينافي معتقد الطّبّ الحديث فإنّ في القصّة التّالية ما يوجب شكّا أشدّ، والشّكّ الأشدّ يماثل عدم الصّدق، لأنّ ما في القصّة يتنافى مع أسس العلم:

حكى الإمام فخر الدّين الرّازي في أوّل «السرّ المكنون»، قال: قال ثابت بن قرّة: ذكر بعض الحكماء كحلا يقوّي البصر إلى حيث يرى ما بعد عنه كأنّه بين يديه، قال: وفَعَله بعض أهل بابل، فحكى أنه رأى جميع الكواكب الثّابتة والسيّارة في مواضعها، وكان ينفذ بصره في الأجسام الكثيفة، فكان يرى ما وراءها، فامتحنْته أنا وقسطا بن لوقا، ودخلنا بيتا، وكتبنا كتابا، وكان يقرؤه علينا، ويعرف أوّل سطر وآخره كأنّه معنا، وكنّا نأخذ القرطاس، ونكتب، وبيننا جدار



وثيق، فأخذ هو قرطاسا، ونسخ ما كنّا نكتبه كأنّما ينظر فيما نكتبه[1].

وما زرقاء اليمامة وقصّة قوّة إبصارها ببعيدة عن هذه فقد رأت الجيش على مسافة ثلاثة أيّام، وحذّرت قومها، وعرفت عدد الحمام وهو طائر.

لعل هذا يكفي - يا بُنيَّ - فيما أردت أن أعطيك نموذجا عنه، تستفيد منه، ولعلّه يجعلك تقرأ أكثر مما أعطيتك، وكنت أودّ أن أعطيك نموذجا، لكلّ هؤلاء الحكماء قبل الإسلام، وبعد انتشاره، ولكنّي أخاف أن تملّ.

لعلك لاحظت هذه الطّريق الواسعة التي دخلناها منذ أن طمحنا إلى الحديث عن تاريخ الطّبّ. وبدون هذه النّظرة التّاريخيّة يبقى حديثنا مبتورا. أما الآن فكل حادثة طريفة ذكرناها سواء قبل هذا المنحنى، أو بعده، سوف لا يصعب عليك

---

(1) الكشكول ٣١٧/١ .



وضعها في إطارها الطّبيعي، في خانة الادواء والأدوية.

لقد جلنا - كما رأيت - في روض هذا الكتاب القيّم «عيون الأنباء» وتنّسمنا عبير ما فيه من زهر وورد، ولم نقف عند كلّ شجرة فيه، ولا قطفنا، مستقصين، من كلّ زهرة فوّاحة ناءت بها الأغصان، ولا ارتوينا من كلّ جدول رقراق، وإنّما أخذنا زهرة من هنا، ودسسنا يدنا في بعض المياه الصّافية، والسّبب أني أعرف أنك «ملول»، فقبل الدخول، أنت حريص على الجولة، وتبنى قصورا في الهواء في أنّك سوف تقضي وقتا طويلا، ولكن سرعان ما تحنّ إلى الخروج ممّا وجدت أنه كثير الفائدة، قليل التّسلية. على أيّ حال إعلم أنّ هذا الكتاب واحد من ثلاثة اشتهرت في القرن السّادس والسّابع الهجري، خاصة بالتّراجم، هذا هو أحدها، والثّاني كتاب: «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» لجمال الدّين القفطى وهو كتابٍ لم يطبع بعد - حسب علمي - ولكن له مختصراً مطبوعاً.

والثّالث «وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان» لشمس الدّين أحمد بن خلكان. وهو كتاب مطبوع، ومنتشر.

وقانا الله وإيّاك - يا بُنَيّ - من الادواء، وأرشدنا إلى الطّرق التي تجنّب عنها، وتحمي منها، ووفّق الله أطبّاء هذا الزمان في أن يكونوا حكماء إضافة إلى الطّبّ، وألّا يقتصروا على ما يجعلهم أصحاب مهنة لا يختلفون عن أصحاب المهن الأخرى. فهم لهم رسالة تختلف عن هدف الآخرين، من المهنيّين، لأنّ من يلجأ إليهم عند المرض، يحتاج إلى العطف والرعاية والاخلاص في البحث والتّقصّي، وكما رأيت ممّا أسلفنا عن قول الأوّلين، يحتاج الطّبيب إلى أن يداوي النفس قبل الجسد، وأحيانا الدّواء في أن «يسعد النّطق إن لم تسعد الحال». وخطأ الطّبيب أو تساهله ثمنه حياة مريضِه، وفي المهن الأخرى غالبا مالٌ يمكن تعويضه.



الحاوي[1] وما يحويه

أيْ بُنَيّ !

عندما تسمع كلمة الحاوي لا تفرح، وتظنّ أنّ المقصود الدّجّال، الذي يضحك على النّاس بخفّة يده، وخداعه للمشاهدين، فهذا شيء يعجبك، لأنّ فيه لهوا، واللّهو أحبّ إليك من الجدّ، لأن الجدّ فيه تفكير، والتّفكير عناء، وأنت لا تحبّ العناء. والتّفكير يحتاج إلى هدوء، وأنت لا تستطيع أن تبقى هادئا مدّة طويلة، وهذا فيه بعض العذر لك ولمن هو في سنك، لأنّ الله سبحانه وتعالى وضع فيكم النّشاط في هذه السنّ، ليساعدكم على النّمو، الذي تأتي به الحركة. وكأنّي بك تقول ما دام الأمر كذلك، فلا تطلبوا منّا ما ليس في طبيعتنا، واصبروا علينا حتى نبدأ نهدأ، أيّ بعد أن يكتمل نموّنا، وقد نوافقكم يا بُنَيّ على هذا، ولكن نقول لكم لابدّ أن

(١) «فائدة سانحة» للطّبيب الرّازي كتاب اسمه الحاوي.



ننبّهكم من الآن حتى إذا جاء الوقت لم يكن الأمر عليكم جديدا.

وأنا أحب منك النّقاش، يا بُنَيّ، لأنّ النّقاش أبواب تفتح بين «سراديب» النّفوس المغلقة، تعرف ما عندي، وأعرف ما عندك، وهذا أدعى للتّفاهم، لأنّ احتكاك الآراء، وتقابل الأفكار هو لقاح لها، ومجيء الثّمرة لا يأتي إلا بالإلقاح، وكذلك السّحابة لا يهطل مطرها إلا إذا ألقحت بما يهيّء لها هذا الإمطار. أما حجب ما عندي من أسباب، وفرض النّتائج عليك، أو قبولك لهذا وفي نفسك منه شيء، فهذا هو مدخل الخلل على التّنفيذ، لأنّك تقوم بخطوات ما أمرت به بدون إيمان، وهذا أدعى ألاّ تعتني به، وألاّ تتقنه، وألاّ تعطيه من روحك ما يضمن نجاحه. وهو أيضاً مدعاة لأن يهزّ ثقتك بي، وبأسلوبي، وليس أسوأ من الثّقة إذا اهتزّت. وهو أيضاً مدعاة لأن تظنّ أنّ رأيك المخبّأ أفضل، بحكم منك، ولو عرضته لتبينّ لك من الخلل فيه ما لم يخطر على بالك.

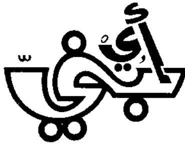


ولكن للنّقاش، يا بُنيّ، أسلوب يجب ألا يغيب عنكْ. قوامه الأدب في الحديث، والرقّة في تناوله، واستجلاب تجاوب المحدَّث، بدلا من تنفيره. يجب ألا يكون فيه رائحة الاستعلاء، أو الجزم إذا كنت في موقع المتعلّم، ولا الاستخفاف بموقع المحدِّث، ولا الاستهانة بما يبديه، مهما بدا لك فيه من ضعف. وضع في ذهنك أنّ كل رأي محترم، لأنّ مصدره العقل، والعقل في الرّأس، وهذا تكريم من الله له بأن جعله في قمّة جسم الانسان، ولم يضعه في قدمه. وأعلم أنّه بالنّسبة لصاحبه رأي سديد، وإذا بدالك أخرقا، فعليك بالمعالجة الحسنة له، حتّى يبدو خرقه لصاحبه، وكم من رأي كان صاحبه معتدّا به، فلمّا بُصِّر بخطله بتؤدة ورويّة، وصبر وتحمّل، رجع عنه، وقد يخجل منه مستقبلا.

ولا تنسى، يا بُنيّ، أنّ كثيرا من خيرة الصّحابة قبل أن يسلموا كانوا يرون غير ما يرى الرّسول ﷺ، ولكنّهم غيّروا رأيهم بعد أن تدبّروا الحجج والبراهين، التي بُسطت لهم بالحسنى.

بعض المجـادلين في شرقنا، يا بُنَيّ، لا يعرفون أصول الجدل، وقبل أن يكمّل المتحدّث حديثه، يقولون له: «أنت غلطان» أو «رأيك هذا سخيف» وهـذا يجعـل المجـادل تأخذه العزّة بالأثم، فيقفل عقله مثلهم، ويلجـأ إلى العاطفة، وما يمكن أن تمدّه به من كلمات سبّ وجرح، ويتجنب الجميع الطّريق الممهّد، ويسلكون الطريق الوعر، الذي لا يوصل إلاّ إلى الخطل والخلل.. راقب الطّريقة التي يتكلّم بها الأوربيون، ولا بأس من أخذ ما نفعهم من طيّب أفعالهم. يتكلّم أحدهم بهدوء، وبكلمات منتقاة، ومعان محدّدة، فيشرح رأيه كما يؤمن به، ولا يقـاطعـه أحد. ثم يبدي الآخر وجهة نظره، وقد يكـون أحـدهما مشرّقا في رأيه والآخر مغرّبا، ولا تظنّ أنّهما يمكن أن يلتقيا، لبعد الهوّة بينهما.

ولكنّهـما لا يفتـآن يقـتربان، نتيجة الحكمة في الجدل، لا يقول أحدهما للآخر: «إنّك مجنون إذْ تقول هذا» ولا «أمّا هذا الرأي فأسخف ما سمعت» حتى لو كان صادقـا في شعـوره هذا، ولكي يقوم



باحترام شعور الآخر، وببراعة وإتقان يحذف الكرة على الآخر، ويصوّر الأمر مشكلة وعلى الآخر حلّها، فيقول: «إنّ ما قلته صحيح، يدلّ على هذا كذا وكذا» وقد يأتي بما يسند رأي خصمه من الحجج مما لم يأت به الأوّل. ثم يردف فيقول: «ولكنّ الذي يحيّرني هو كذا، فكيف توفّق بين هذا وما قلت، إنّني محتار، وأريدك أن تدلَّني على الحلّ». أرأيت كيف شغله بالبحث عن حلّ، ووقف ينظر إلى خصمه، منشغلا لأجله، ليجد حلاّ لما حيرّه. أو يقول له: «إذا أخذنا برأيك ألا ترى أنّ هذا يوقعنا في تناقض؟» أو «كيف نوفّق بين ما قلت وبين ما هو حادث، أو ما قاله فلان؟». أو يقول: «جميع ما قلت صحيح وقويّ، ولكن يبقى كذا». ولو نظرت إلى الجزء الباقي وإذا هو أكبر مما سلّم به، ولكنّه أراد أن يكسبه، وأن يسجّل لنفسه نقطة يدخّرها عند الآخر.

المطلوب، يا بُنَيّ، أن تفكّر في كل خطوة، وأسلوب الجدل من أهمّ الخطوات، الحقائق قد

تكـون واضحـة، وقليلون أحيـانا الذين يجهلونها ولكنّ النّاس يختلفون في الأسلوب، أرأيت خياطَين يأخذان من قماش معيّن، ويتقن أحدهما عمله، ويُرضِى «زبونه»، والآخر لا يتقن ولا يرضي. ولا أظنّك تختار لنفسك أردأ الاسلوبين.

وليس هذا الجـانب في الأسلوب هو الـوحيـد عنـدهم، مما يمتـازون به في الغرب علينا، هناك جوانب عدّة: منها أيضاً أنّ أحدهم لا يفتح فمه قبل أن تكـون الفكرة واضحة في ذهنه، ولم يبق إلّا التّعبـير عنهـا، فيختـار كلماته عنها بدقّة متناهية، وبـإيجاز متقن. وقد تعلّموا على الإيجاز، ولعلّ ما دعاهم إليه قيمة الوقت عندهم. ونحن، يا بُنَيّ، أحيـانـا نبدأ الحديث قبل أن نعرف ماذا سنتكلّم عنه، ونرجو أن يأتي الحديث بالفكرة، بدلا من أن يُعبّر الحديث عن فكرة متبلورة. وأحيانا لا نكتفي بالجملة بل نبدأ بمترادف موصوف ليس في ذهننا هو أو وصفه، فإذا أعسر علينا أخذنا نتهته أو اقتسرنا المرادف، فلا ينسجم مع الحديث.



وعنـدما قلت لك أنهم يحرصون على الايجاز، فذلـك لأنّهم يعرفون قدره، ويتقنونه، ويعلَّمون عليه في المدارس، يُعطَى أحدهم خمس صفحات من كتاب، ويقال له: «اختصرها في صفحة، أو في نصف صفحة» ويشترطون ألا يختلّ المعنى، وأن لا تهدر الأفكار الرئيسيّة. ويأتون بما هو بديع ومتقن في هذا.

ومـا دمنـا نتحـدث عن أسلوبهم في الحديث، فلعله من المفيـد لك أن تعلم أنّهم في الغـالب لا يبـدؤون في التّفـاوض والجدل باعطاء رأيهم، بل يستدرجون الآخرين إلى ما عندهم ما أمكن، حتى لا يبـدو جهلهم أمـام «قبيلهم» وهم في غنى عن ذلك. وأحيانا يكسبهم استماعهم للآخرين أرضا لم تكن لهم في الجدل. وهذا يعطيهم أيضاً فكرة عن المتحـدّث: مواقع القوّة عنده، ومواقع الضّعف، مدى معرفته بجوانب الأمر، أو جهله، والجوانب التي يتخـوّف منهـا، والجـوانب التي يدخلهـا بثقة وشجاعة. وإذا كان الفريقان متماثلين في معرفتهما

بأسس التّفاوض يختصر المبتدئ ، ويختصر مثله المعقّب، هكذا يمشون خطوة خطوة، لا يزيد أحدهما في دوره عن أقلّ المعلومات التي يمكن أن يبوح بها، أو أسلوب المحاورة الذي يسلكه.

ولست، يا بُنَيّ، في الأصل أرمي إلى الدّخول في هذا، ولكن قادني إليه الاستطراد، فلم أقاوم، لأن فيه بعض الفوائد التي قد لا تسنح مستقبلا. ومع هذا فقد تظنّ أنّي أقصد بالحاوي «اللّغة» وهي وعاء الأفكار، وهو العنوان الذي اخترته لحديثنا هذا. ورغم أنّ اللّغة تحتوي المعنى، وهي وعاؤه إلّا أنّي لم أقصد هذا عندما وضعت العنوان، وإنّما قصدت الوعاء العادي: الصندوق في القديم مثلا، والدولاب الذي حلّ محله في الحاضر، والقدر المصنوع من النّحاس، والقدر الحديث الذي لا يصدأ، وقدر البخار الحديث. والأقلام القديمة والأقلام الحديثة، وهكذا كل وعاء من أي نوع كان يستعمل في الماضي، ويعتبر حاويا لمحتوى. سوف نتحدث عمّا يسمح الأمر بالحديث عنه. وأنت الذي



تحكم، يا بُنَيّ، ما الذي تريد اثباته، وما الذي تريد تجنّبه. وإن كنت أعلم مقدما أنّه يهمك ما فيه طرافة، وما خلفه قصص.

كانت الأوعية والأدوات في الماضي بسيطة، وأغلبها من صنع بلادنا وإتقانها يأتي بقدر الاستفادة منها، وهذا يسبق تزويقها وتزيينها، المهمّ هو فائدتها، واستجابتها لأغراض الاستعمال، هذا يساهم في انخفاض قيمتها، ولا يساهم في تطوّرها وجمالها. القّوة والوفاء بالغرض أهمّ ما يصنعه صانعها في ذهنه، وأهم ما يشترطه مشتريها. ولا تدخل الزّينة إلاّ فيما هو للزينة من حلي النّساء، أو جلاء البيت في بعض جوانب بنائه. ولهذا كان يعجب بعض أهل القرى عندما يأتي أحدهم مكّة لأولّ مرّة فيجد أنّ الحمير تحنىّ، ويحلق شعرها بطريقة زخرفية[1]، يتنافس الحالقون في التّفنّن في

(١) وعجب المواطن السّعودي أكثر عندما يرى، لأوّل مرة، كلاب الغربيين تُحلق بطريقة يعتقدون أنها زخرفية، وأنها تجمّل الكلب!!



هذا، ويأتون بأشكال تلفت النّظر إلى فنّهم، وما يبذلون فيه من جهد.

وهـذا لا يعني أنّه ليس هناك من يزوّق مظهر بعض الأدوات والأوعية، ويزين حواشيها أو ينقش جوانبهـا، أو يجلبهـا من خارج البـلاد وهي بهذه الصّـورة، بل هناك من يفعل ذلك ما دام أنّه يجد موسراً يستطيع أن يقابل ثمنها. ولكنّ الأغلب هو التركيز على جوانب الاستعمال والفوائد التي تُجتنى. واحيـانـا يتـوفـر النوعان: هذا للاستعمال اليوميّ القـاسي الـدّائم، وهذا للمناسبات الفريدة ليبقى برونقه وجماله. وتأتي الحيرة والتّردّد والاحراج عندما يطلب الجـار إعارة شيء بمناسبة تستوجب ذلك، فقد يعطيه المعير طوعا وبسرور، وقد يعطيه «قلع ضرس» وباحراج.

والاستعارة والاعارة، يا بُنَيّ، كانت على قدم وساق بين «المعارف» والجيران. لأنّ الزّمن كفيل أن يحوج الجار للجار، فقد يحتاجون إلى قِدر أكبر من



قِدرهم، أو قدر إلى قدرهم، وقد يخرب «المكوى» في وقت حرج. وقد تكون عندهم مناسبة يحتاجون فيها إلى «أباريق» الشّاهي و «فناجينه» و «أكوابه» من جيرانهم. وقد تستعار فرش، أو «حنابل» أو زرابي «زوالي». ويكون الاحراج عندما تتلف بسبب أو آخر. وقد يعوّضها المستعير، فيعترض المعير ظاهرا، وهو مغتبط داخلا، فيبدي أنّه لم يكن يريد من جاره أن يتكلّف، وأن يشتري بدلا منها عندما تلفت، وأنّها كانت شبه تالفة قبل استعارتها.
وقد يعيدها المستعير تالفة، فامّا أن يسكت المعير على مضض، أو يبدي ملاحظة مريرة، يتوقّف قبولها على طبيعة المستعير في تقدير حنق جاره، أو عدم تقديره، مما قد يوصل إلى جفوة بينهما، تقطع بينهما الزّيارة، ويشمل الجفاء الرّجال والنّساء. وقد تأتي الجفوة نتيجة اعتذار الجار لجاره إذا طلب إعارته ما يرى صاحب الشّيء أنّه أثمن من أن يعار، أو ليس من النّوع الذي يعار، لأنّه من الكماليّات التي لا يستوجب العرف إعارتها.

ومن المواد التي تكمن فيها أسباب الجفوة «صيغة النّساء» «مجوهراتهن» ، فالنّساء يكمن فخرهنّ في «مجوهراتهنّ» . فغلاؤها ، وكونها جزءً مما ساقه الرّجل ، في الغالب مهراً ، إلى زوجته عند زواجها ، أو إرثا للمرأة من أمّها ، أو هديّة من عزيز أو عزيزه ، أو جمعت لها المرأة «من دم قلبها» ما اشترتها به ، فهي لا تريد أن يُرى على غيرها ، فيظنّ أنّها هي المستعيرة ، فيما لو لبسته عند هؤلاء النّاس أنفسهم ، لا المعيرة . ولا يمكن أن تقف على رؤوس الأشهاد تقول إنّ ما ألبسه هو ملكي وليس ملك فلانة التي استعارته في الحفل الفلاني . لهذا تريح نفسها وتعتذر ، فلا يقف الأمر عند هذا ، بل يتعدّاه إلى العتب ، والمعاملة بالمثل في كل أمر سواء كان «قدرا» أو مجوهرات . وتبدأ الجفوة ، وينفصل ما بين الجارتين أو القريبتين بسبب عقد منضود . وقد يعار العقد ، فيسوء حظ المستعيرة بأن يكون حبله «على جريف» واهيا على وشك أن ينقطع ، فلا ينقطع إلّا عندما لبسته المستعيرة ، فينفرط وسط الزّحام ،



وتنداح حبيباته في أرض الله الواسعة، إما في الطّريق، أو في العربة، أو في مكان الحفل، ولا يُستردّ منها إلا نصف عددها أو أقلّ من النّصف. ولك، يا بُنَيّ، أن تتصوّر الاحراج في جهة والحنق في جهة، وتتصوّر ما ينتهي إليه الأمر حسب طبائع النّاس المستعيرين والمعيرين.

والمنظر الذي، يا بُنَيّ، بودّك أن تراه، إذا اجتمعت المعيرة والمستعيرة في حفل ما، وأخذت هذه تنظر إلى عقدها، والأخرى «سارحة» تفكّر تفكيراً عميقا في شيء، ويدها تعبث بالعقد، والأخرى تنظر، وكأنّ أصابع جارتها تعبث بأوتار قلبها، وهي تمسك نفسها عن أن تتقدّم إليها، وتقول يافلانه إنّك «سارحة» وتلعبين بعقدي مما سوف يتلفه. ولا تنتهي السّهرة إلا بعد أن تكون أعصاب المسكينة قد تحطّمت. ولعلّها في داخل نفسها تحلف ألّا تعيره مرة أخرى.

ألّا يذكرك هذا، يا بُنَيّ، بقصّة الرّجل



الـذي استعار جُبّة من صديق ليحضر معه مناسبـة كبرى، فأعاره هذا جبة، وجلس بجـانبه على المائدة، وأخذ ينبّهه: «يا فلان إرفـع اكـمال الجبّـة حتى لا تلمس الادام» «تـأكّـد أنّك لم تجلس على نقطة من الادام سقــطت على الأرض التي أنت عليهـا» أو يقـول بصـوت عال: «مـا أحلى الجبّة وأنّها منــاســبــة لهذه الحـفلة، وكــأنها «مفصّلة عليك». فلمّا انتهى الحفل، نبّهه صديقه بأنّه أخجله بكلماتـه، وعرّف النّـاس أن الجبّة ليست جبّته. فوعده هذا أنّه لن يكرّر ذلك في المستقبـل، ولكنّه عندما أعاره إيّاها مرة أخرى ذهب معه، وبدلا من أن ينبّهه بابعاد كمّه عن الادام، صبر حتى ابتعد هذا عن الأدام من نفسه وبدون تنبيه، فقال له فورا: «أرأيت عندما كاد كمّ الجبّة يلامس الادام لم أقل كلمة واحدة، حتى لا يتنبّه الآخرون». وبقي على هذه الحال لا ينبّهه فورا، ولكن



بعد فوات المحذور وأمام النّاس. فوجد صديقه أن لا فائدة من تبصيره، والأسهل من هذا عدم استعارة الجبة.

وعلى ذكر الجبّة، يا بُنَيّ، هناك قصّة تروى عن الجبّة والأكل، لو رجعت إلى كتب الأدب لوجدتها هناك، ولكن لأني لست على يقين أنّك سوف ترجع إليها سوف أرويها لك هنا، وقد أتذكّر شيئا عن جبّة أخرى، فأنا أسرّ عندما أعثر على قصص أعطيكها دينا هنا، فقد لا أجد غيرها في مكان آخر:

دعي شخص محترم إلى وليمة، فلما ذهب ردّه الذين يحرسون الباب، ولم يجدوا أنّ هيئته ترقى به إلى هذه الدعوة، وعلم أن ما يرقى به هو لبس الجبّة، فعاد إلى بيته، ولبس الجبّة، وجاء، فأدخلوه على الرّحب والسّعة. فلما جلس على المائدة أخذ يغطّ كم الجبّة في هذا الادام وذاك الأدام، مما جلب نظر النّاس، واستغربوا فعله، فقال لهم:

«لا تستغربوا، فالجبّة هي المدعوّة، ولست أنا»، فاقتصّ بهذا التّهكم من صاحب الباب الـذي ردّه لأنـه لم يكن يلبس جبّـة. ولعلّ صاحب الـدّعوة من الغنى والشرف بحيث يعــوّضـه جبّـة جديـدة بدلا من هذه التي «كرعت» في الأيدام.

وقصّة أخرى عن القباء وهو أخو الجبّة:

كان هنــاك خيّــاط، ليس له إلا عين واحدة، وجاء أحد الشّعراء ليخيط له قباء، فلما خاط الخيّاط القباء سأل الشاعرَ إن كان أعجبـه، وأنه جاء على ما يريده، فلم يرد الشّاعر أن يعطيه الجواب واضحا بيّنا، وإنّما قال له سوف أعـطيـك بيتين تعرف منهما إن كنت راضيا عما فعلت أم لا؟، قال:

خاط لي عمرو قباء   ليت عينيه سواء
ومن الـذي يعـلم   أمديح هذا أم هجاء



لا أحد يعلم، يا بُنَيّ، إلى اليوم إن كان الشّاعر مدحه أم هجاه، فالخيّاط له عينان: سليمة وسقيمة، والشّاعر دعا له أن تتساويا، هل يقصد أن تساوي الصّحيحة السقيمة فيعمى، أو تساوي السقيمة الصّحيحة فيبصر بهما.

ولو دخلنا، يا بُنَيّ، في قصص الملابس لما خرجنا، لأنّ الأدب العربي مليء بالقصص المدونة عنها، وهي قصص طريفة، والقصص عادة لا تدعو إلى التّدوين إلّا إذا كانت طريفة، وقد تكون مفرحة وقد تكون محزنة، والقصّة التي سأذكرها، يا بُنَيّ، ليست عن ثوب بعينه، ولكنّها عامة، وكل الصّيد في جوف الفرا، إن وجدنا فيها بعد شيئا مجزئاً ممّا في جوف الفرا فلن نبخل به عليك:

تولّى أحد السّلاطين المُلك، وجاءه المسؤول عن ادخال النّاس للسّلام، وسأله كيف يُدخِل النّاس، وما هي الفئات التي تقدّم والفئات التي تؤخّر؟ فقال له السّلطان:

إدخل العلماء ثم الوزراء، ثم كبار التّجار، ثم أصحاب الحرف، ثم رؤساء العسس، ثم ادخل آخر من تدخل الذين يلبسون ثياب الشّتاء في الصّيف، وثياب الصّيف في الشّتاء.

هؤلاء هم الذين يكتفون بما يسترهم، ولا يدقّقون فيما إذا كان مناسبا للوقت أم لا. والكلمة هذه ترد أحيانا على لسان بعض الكبار علما ومقاما يقولونها تواضعا، فيما لو سألهم أحد لا يعرفهم، ويقولونها فيما لو أرادوا أن يخفّفوا من حدة اكرام مكرميهم لهم.

ولعلّ من المناسب، يا بُنَيّ، أن نأتي لك بقصّة من تراث بلادك، ولعلها تدوّن لأول مرّة، وإن لم ندوّنها فقد تضيع. وأمثال هذه النتف من القصص يجب أن نحرص عليها، فإذا فعلنا تجمّع عندنا حصيلة مثلما تجمّع لمدوّني الأدب الأموي والعبّاسي. وتتكامل بأمثال هذه صور بدونها تكون الصّورة العامّة لزمننا ناقصة:



دخل رجل خلوة أحد المساجد، والخلوة عادة تكون مظلمة لأنّها طابق تحت الأرض، ونوافذه صغيرة، أو مقفلة. وكان هناك رجل نائم، وهو أحد السّاخرين. فعثر السّائر بالنّائم، وقال العاثر: «ما هذا؟» فأجاب الآخر: «عباءتي وأنا فيها».

إنّ ملكة السّخرية عند بعض النّاس هبة، أرأيت، يا بُنَيّ، كيف جعل غير المهمّ هو المهمّ، وبدأ به، وجعل المهمّ ثانويا، فتحقّق له جانب السّخرية، وخلّد جوابه بهذا، ولو قال: «أنا فلان وعليّ عباءتي» لما رويت القصّة.

والقصص الطّريفة، يا بُنَيّ، تدعو إلى التّدوين، ويلفت النظر إليها غرابتها، وغرابتها تأتي من أنّها تجرى على غير النّسق الذي اعتاده النّاس، وسأعطيك مثلا على هذا، يفيد فيما سيق من أجله، ويحقّق الهدف في تدوين بعض هذه النتف التي أشرت إليها سابقا في حديثي معك عن التّدوين:

عينّ قاض في سنوات مضت، لعلها تزيد عن الخمسين سنة، في هجرة من هجر البادية مستحدثة، وجاءت الجمعة الأولى، وأعدّ القاضي، وهو امام المسجد، خطبة الجمعة، واستفتحها بحمد الله، وكان المسجد ممتلئا بالمصلّين، وفي الصّفّ الأوّل جلس كبار العشيرة وشيخها، وكان الامام اختار للحمد جملة: «الحمد لله الذي جعل الموت راحة للأبرار» وبدون شعور، وبصوت عال قال شيخ القبيلة: «امحقها من راحة» فكاد يغشى على الإمام من الضّحك، ومن حسن حظّه أنّ الورقة التي كان يقرأ منها كبيرة، غطت وجهه، بحيث ظنّ من يرى اهتزازه من الضّحك، أنّه في «خشعة». ولكنّ الضّحك استمرّ، واهتزاز الإمام زاد، فتذكّر، كما يروي هو، حكمة عرفها منذ الصغر، وهي أنه إذا غلبك الضّحك فانظر إلى أظافر يدك، ففعل هذا، وانقشعت سحابة الضّحك. وأكمل الإمام الخطبة وهو



يلوم نفسه على عدم توفيقه في اختياره لجملة لم تكن الأفضل لهذا المقام.

وصاحب هذه القصّة رجل عالم ديّن وظريف، لا يمـلّ مجلسه، لأنّه صاحب قصص مسلّية، وأشعار طريفة، وبعض قصصه سوف أهمس بها في اذنك اليمنى، حتى لو احتجّت اذنك اليسرى، فهي لا يُبَرُّ بها إلا أذن واحدة، وأرجو ألّا يخوننا رأسك فيصلَ بين الأذنين، فإن تمّ هذا فأرجو ألّا «يتبيزع ويتليقف» لسانك، ويقوم بدوره، فقد لا يحسن اختيار المناسبة، وهو في هذه السن.

وسأختتم الكلام عنه بما يعطيك فكرة عن سماحته، «وحبابته» وخفّة دمه أو طينته، ويفتح لك نافذة صغيرة على نوع من شعره، وأسلوبه فيه، ففيه من الفكاهة والمرح والطّرافة ما جعل دائرة أصدقائه ومحبّيه يردّدونه، ولعلّه جديد في بابه خاصّة في الشّعر الشّعبي. وقبل أن أنسى، عليك مقابل هذه المتعة أن تدفع الثّمن، والثّمن غال، ولكنّه لا



يكلف : عليك بعد قراءة الشّعر أن تقول : رحم الله الشّيخ رحمة الابرار :

يا مرحبـــا بك عد ما ينـفس الميت
واعداد وسط اللّيل ما تطلع الشّمس
واعـــداد ما سَافَــر إلى مكّـة كميت
واعـداد ما يركـز على السّطح من غرس
واعـــداد ما خرفـت سواري الـبيت
واعداد ما كنز الحصا واظهر الدبس
واعـداد ما قهوى من الجن عفريت
واعداد ما يقلع للدّيـك من ضرس
واعـــداد ما لبست ثيـاب المسـاليت
بنـت الجبــل مســترّة ليلة العــرس
واعـــداد ما لبستِ ثيــاب المتـافيت
حفّــالــة في عرس بسّـــه على بس

أرأيت، يا بُنَيّ، كل هذه السّتّـة الأبيـات، ولم يرحب بمن أوهم أنه رحب به.



كثيرون، يا بُنَيّ، الظّرفاء الذين تمتّع بوجودهم مجتمعنا، وكانت لهم قصص طريفة، لم تدوّن للأسف، وهي تحمل في ثناياها صورا جميلة لمجتمعنا المتآخي المتحابّ، بتواضعه، واندماج طبقاته، ولعلّه يتاح لها في يوم من الأيّام من يتقصّاها، ويدوّنها فهي تستحق ذلك، وإذا لم تدوّن ضاعت، وقد بدأت تبهت مع الزّمن، وتحرّف مع كثرة التّناقل، ولو جمعت هذه القصص ورتّبت تحت أسماء أصحابها لجاء منها كتاب، لا يضعه المرء من يده قبل أن يأتي على ما فيه:

أعطيك مثلا، قصّة ذلك الرّجل، الذي كان يصحب أحد قواد الجيوش النّابهين، ولكثرة الحروب، ولما يمرّ على المنطقة من جيوش، وما يتّصف به كل جيش من عدل أو ظلم. في وقت كانت الفوضى ضاربة أطنابها، وقائد هذا الجيش باذل جهده لاعادة الأمن والاستقرار، فكان يمرّ عليه وعلى جيشه وقت طويل، وعيشتهم التّمر



والمـاء، فأرادوا يوما أن يستطعموا اللّحم، فبحثـوا عن أغنام فلم يجدوا، فذهب هذا الشخص الظريف يستقصي المنطقة، ويمرّ بالفـلاحين، فيتعذرونه. فنزل طموحه إلى السّؤال عن الدّجاج، فكانوا ينفون وجوده، فهـداه الله إلى حيلة، تذكّـرهـا من حصيلة شبـابـه. تذكّـر أنّ الـدّيك إذا سمع أذان الـدّيك فانه يجاوبه حالا، والغريب أنه لا يفـرّق بين صيـاح الدّيك الحقيقي، وتقليد النّاس لصياحه. فصار هذا يدور على سور المزرعة، ويقلّد أذان الدّيك، فإذا «وازن» حظيرة الدّجاج أجابه ديكهنّ، فحينئذ يخجل الفلاح، ويبيعه الدّجاج.

هذه قصة طريفة وفيها جانب من التّاريخ إن لم تدون ضاعت أما من هو الرجل وما هي المنطقة، فهذه من الأمور التي سوف «أَبُرُّكَ» بها وحدك، لأنّي لم أستـأذن أصحـابهـا، وقـد سمعتها من والدهم - رحمه الله - .



وقصّة أخرى لهذا الرّجل: قام بمرافقة شخصيّات انجليزيّة مهمّة قبل خمسين عاما، وخدمهم اكراما لمن طلب منه ذلك، وقبل عودتهم إلى بلادهم أرادوا أن يكرموه، وطلبوا منه أن يخبرهم بما يريد، وكانت بريطانيا، في ذلك الزّمن، تسيطر على جزء كبير من العالم بمستعمراتها، وألحوا له أنّه لا يعسر عليهم شيء يطلبه. فقال إنّ كلّ شيء عنده، وأنّ مضيفهم الذي كلّفه بمرافقتهم لا يقصّر في حقّه، بل إنّ كلّ شيء يملكه قد وضع مفاتيحه عنده. فأصرّوا فقال لهم: حسنا، سوف أطلب، ولكنّكم لن تستطيعوا تلبية طلبي، ودخل الأمر في شبه تحدّ، فقال: «أريد عشرا»، ورفع أصابعه العشرة أمامهم. فسألوا: عشر سيارات؟ أو عشرا من الخيل، فقال؛ «بل عشرا من السّنين تضيفونها إلى عمري» «فماتوا» من الضّحك،



وعرفوا أنّهم أمام رجل لم يوضع لمرافقتهم إلا لعقله . ـ رحمه الله ـ ورحم من كلّفه بالمهمّة .

واسمع ، يا بُنَيّ ، هذه القصّة ما دمنا في سياق تدوين بعض القصص ، وهي مليئة بالحكمة ، إذا صحّ هذا التعبير:

كان هناك رجل في إحدى مدن المملكة الكبيرة ، ولعلّ الأولاد وجدوا فيه ما جعلهم يجرون خلفه ، ويردّدون اسمه ، وهو أمر مزعج لا يصبر عليه أحد . فاضطر أن يلتقط الحصى من الأرض ، ويرميهم به ، أو لعلّه ضرب أحدهم بعصاه ، وقد يكون أضرّ بأحدهم أو ببعضهم فشكى إلى قائمقام هذه المدينة ، فأحضره ، وأخذ يؤنّبه على فعله ، وعدم صبره ، وعدم تحمّله لمثل هذه الصغائر من هؤلاء الصّغار . فقال للقائمقام : «صلّ على النّبي» فصلّى على النّبي ، فقال له : «قل لا إله إلا الله» فنطق بالشهادة حسب



الطلب، وأخذ الرّجل يطلب من قائمقام مرة أن يصلّي على النّبي، ومرّة أن يذكر الله، مرّات ومرّات ومرّات، حتى كاد قائمقام أن يخرج من ثيابه من الضّيق، فقال له: «أرأيت؟ أنت لم تتحمّل الصّلاة على النّبي، ولا لا إله إلا الله، وترديدهما، مع أنّ لك في ذلك أجراً، وتريدني أن أتحمّل جيشا من الأولاد في الشّارع، تسلّط عليّ من بين النّاس أجمعين، يجري خلفي، وينادي اسمي، دون داع، ويلفت النّظر إليّ». فصمت قائمقام، وأقرّ له بأنّه على حقّ، وسمح له بأن ينصرف معافىً.

لولا أنّي، يا بُنَيّ، أخشى أن أخرج الحديث عمّا قصد له، لبقيت أقصّ عليك من مثل هذه القصيصات من نواحي المملكة وقتا طويلا، ولجعلتك تفرح وتبتهج. ولكنّنا التزمنا بأمر، وسوف نوفّي التزامنا، فلا نطرق إلا ما يدخل في حديثنا أو ما يجرّ إليه الاستطراد.

وفي المجتمع القديم في بلادنا، يا بُنَيّ، في المدن والقرى صور عجيبة لهؤلاء الذين يعتبرون في عرف ذلك الزمن مهابيل أو مجانين، وقد يكونون كذلك، أو قد يكـونون في منتهى العقل، وغاية الادراك، ولـكـنّ مجتـمـعـهـم قصر عن فهمهم، فرمـاهم بالجنـون، لأنّهم جاؤوا في تصرفاتهم بما يخالف ما اعتـاد النّـاس عليـه من نسق وأسلوب حيـاة. وبعضهم قد يكون الأمر بدأ معه طفيفا نتيجة حالة طارئـة، فلاحـظهـا صبيان الحيّ، فثبّتوها بأذاهم لأصحابها وزادوها حدّة وعمقا، بتعرّضهم لهم في الـطّرقات بالاستهزاء والضجيج ورمي الاحجار، واتّخـاذهم إيـاهم لعبة يتسلّون بها، ويقضون بها وقتهم، دون أن يفكّـروا في صاحبهـا، وجـرح شعـوره. ودون أن يتـدبّـروا ما قد يتعـرضون له بسببهـا من أخـطار نتيجـة تصرّف المجنون معهم تصرّفا يدفعهم إليه أذاهم، وإلحاحهم في الأذى. فكم من عاقل أوصلوه إلى حافّة الجنون، وكم من شخص كان على حافته فدفعوه هاويا إلى قاعهِ، وكم



حصدوا هم أنفسهم وأهلوهم مآسي من جراء ذلك.

هذا صغير معتوه شبّ مع جماعة من الصّغار في الحيّ فلما شبّ عن الطّوق حتى أضحى ألعوبة لهم، يوجّهونه مثل الحيوان الأليف، يدفعونه إلى أعمال تضحكهم وتضحكه: إما أن يُركبوه حمارا عكس طريقة النّاس، فيجعلون وجهه تجاه ذيل الحمار، أو يسير وعليه أسمال مزرية مضحكة، أو يردّد كلمات بلهاء مسلّية، يسير وخلفه مجموعة تنادي بعبارات تدلّ على الاستهزاء والسّخرية. ويشبّ جيل ثان يأخذ من الجيل السّابق، الذي لم يعد يليق به اليوم ما كان مقبولا منه بالأمس، عادة الجري وراء هذا المعتوه الذي قد لا يقبل منهم ما كان يقبله من سابقيهم، فتزداد الهوّة بين الجيلين، ويبدأ التنافر. وتستجدّ صورة جديدة.

وهذا رجل جنونه موسمي، لا يأتيه إلاّ في الصيف، والغريب أنّه في غير الصّيف لا يُرى، ولا يُعرف أين يختفي، يذهب إلى قرية أخرى، يلبس فيها لباس العقل، فلا يُدرى هل جنونه في الصيف مفتعلٌ أو أنّ الصّيف يثير كوامنه. يسير عندما يصاب في الصّيف، وقد ألقى غطاء رأسه، وهذه أولّ علامات الجنون، وتجده بين الأطفال وفي أسواق النّساء، وبينه وبين الأطفال رفقة وصحبةّ وتفاهم تامّ، هم معه طوال النّهار في مرح، يجمعون النّوى[1]، ويشترون به من فاكهة الموسم تمرا أو بطيخا، يأكلونه، وله منه النّصيب الأوفى، إذ لا أهل له يعوضونه ما فات. ويحزن الأولاد ويفتقدونه عندما ينتهي الصّيف ويتركهم إلى حيث لا يدرون أين ذهب.

(١) أهميّة نوى التّمر في الماضي بالغة، يستعمل علفا للبهائم، يقول الجزيري، في حوادث عام (٨١٥) بلغت ويبة النّوى لعلف الجمال (بمكة) بأفلوري (نوع من النّقد) يدلّل بذلك على الغلاء. الدرر ٦٩٥/١.



وذاكِ المـــجـنـــون الـــذي تراه وفي يده «محجان» لا ليضرب به أحدا، ولكن ليكسر به أجزاءً من الجصّ يأكله، ترى بقاياه على جوانب شفتيه. وهو عدوّ أي عمود ملبس «جِصّاً»، سواء كان على طرف بيت، أو في مسجـد أو معتمـدا عليـه دكـاّن. تجد آثار ضربـات مشعـابـه أو محجانه ندوبا في كلّ عمـود في المدينة فيه جصّ، حتّى أنّ بعض النّـاس يتفـادى أن يضـع الجصّ على شيء خارج البيت خوفـا من أن يغـير عليه هذا المسكـين الـذي قد يكـون لديـه نقص في الكلسيوم، ولو كان في زمننا ربما عولج على هذا الأساس.

وذاك الـــذي لا بدّ أنّ ميـــزان عقله قد اختـلّ، نتيجة رجّه أصابته، فهو كفيف لا يبصر، ومع هذا فهو يصل إلى هدفه بسرعة فائقة يقف في وسط المدينة فإذا مرّ به راكب حمار أمسك بذيل حماره حتى يوازن المكان



الذي يقصده فيتركه، يفعل تماما، مثل الذين «يتشعبطون» في الترام، إلا أنه لا يخشى من «الكُمْسَاري» موزّع التذاكر، جامع النّقود، يلتفت راكب الحمار فيراه، ولا يزيد عن أن يبتسم، وليس هو الوحيد الذي يبتسم، وإنّما يشاركه في هذه المتعة أصحاب الدّكاكين الذين يمرّ بهم يمينا وشمالا، وكذلك المارّة.

ولهذا الرّجل عادة عجيبة، أكله وطعامه على النّاس، كلّ يوم من السّنة وَجْبته الرئيسية يأخذها من البيت الفلاني، يأتي قبل الموعد بيوم وينبّه أهل البيت على يومهم، ويأتي في الموعد، ويأخذ الإناء المليء بالأكل، ثم بعد أن يأكل الطّعام يغسل الاناء، ويحذفه من كوّة الباب. ولهذا تُحذّر النّساء بعضهن بعضا من إعطائه الأكل في إناء ينكسر، ويمرّ العام وهو لم يكلّف بيتا أكثر من وجبة واحدة



في السّنة، وهو رجل متديّن، ويقال إنه كان طالب علم في أول حياته في إحدى البلدان العربيّة. وهو موسوس عندما يتوضّأ، وهناك بركـة مشهـورة في بلدهِ، ينـزل فيها عندما يَتوضّأ غامرا جسمه كلّه في الماء، ليطمئّن إلى أنّ وضوءه قد كمل وقد أسبغ.

ويـأتي بحـركة عجيبة تعوّد عليها مؤذّن المسجد الذي يصلي فيه، ولكنّها تكاد تدفع الـذي يفاجأ بها إلى الجنون، فهو إمعانا في اسباغ الوضوء، ولأنّه يقوم قبل النّاس لصلاة الفجـر، ولا يجد ماء، ولا أحـد «يـزعب» يمتح له دلوا أو دلوين من البئر، أو لعلّ ما يكفي الآخـرين لا يكفيـه، وقياسا على ما يفعله في البركة، فهو ينزل في البئر. ويسبح ويتوضّأ بالطّريقة التي يرتاح لها، ثم يجلس منتظرا أسفل البئر أول وافد إلى «الحسو»، حسو المسجد، وفي الغالب يكون المؤذّن هو أوّل وافد، يصبّ دلوا أو دلوين في «قرو»

الحسو احتسابا ومساعدة للمتوضّئين، وعندما يهمّ بجذب الدّلو من البئر، ويكاد يعرف من أنزله، يأتيه صوت الرّجل من أسفل البئر، يقول له: احتسب، و «ازعب» أخيك فلان، (يعني نفسه)، أي ساعده على الصّعود إلى أعلى، ويفعل المؤذّن ما أمر به، وهو يزبد ويرغي ويحسبل، ويستعيذ بالله من الشّيطان الرّجيم، ويعظ أخانا بما يرجو معه أن يقلع عن هذه العادة، فإلى متى يفاجىء بعمله هذا من لا يعرفه وعادته هذه؟ وإلى متى يُغضب كثيرا من المصلّين الذين يشمئزّون من نزوله في البئر، وتلويثه الماء، ولكنّ المؤذّن المؤنّب لا يعدم أن يسمع جواب فقيه عن القلتين في الماء وعدم تنجيسهما من جسمه النّظيف. ويردّد المؤذّن التأنيب، ويردّد أخونا الجواب، بنغمة عدم مبالاة، تبعث على الضّحك، ليست كلماتها فقط، وإنّما الحركة التي يأتي بها الرّجل، «بإعطائه



ظهره» للمؤذّن ، تاركا له ليلمّ شعث كلماته التي لم يبال بها هذا السّامع الوحيد ، وجسم الرجل النّحيل يأخذ طريقه مختفيا في الظّلام إلى المسجد الملاصق ، وليس عليه إلا ثوب لا يصل إلّا إلى منتصف السّاق ، صيفا وشتاء ، لا «يزرّ» أزراريره ولا يرتج مزاليجها ، لأنّه لا وجود لها في الغالب فقد عاثت بها يد الزّمن لتساعده ليتمكّن عندما يريد أن يرفع الثوب فيغطي أعلاه رأسه ، ويصبح يطل وجهه من ثوبه ، بطريقة تبعث على الضّحك ، ويصبح الثّوب ثوبا وغترة ، يغطّي بالثوب جسمه ورأسه . ويسمعه النّاس وهو يسير يردّد كلمات رتيبة : «يا عباد الله جدّوا ، ربّ داع لا يردّ» . رحمه الله فقد كان طيفا من الأطياف التي مرت بإحدى مدن المملكة ، أكملت ذاك المجتمع بما بيّنته من تعاطف النّاس مع المعتوه ، وتكفّلهم بإطعامه ، وتحمّلهم لتصرّفاته ، فهو وأمثاله مذكّرات للنّاس



بنعمة العقل الذي يهبه الله لمن يشاء من عباده.

هؤلاء المجانين كانوا صورا مألوفة في البلدان وفي القرى، لو كتب عن كل واحد لضُمِّن هذا مجلدات، تحوي من الطّرائف مالا مثيل له. والتأليف عن الحمقى والمغفلين والمجانين ليس غريبا عن الأدب العربي فهو يحوي الكثير منه افرادا في كتاب أو فصلا فيه.

أمّا اليوم فقد اختفت هذه المظاهر، وأصبح من تظهر عليه علامات توحي باختلال العقل يُسارَع بادخاله المستشفى المناسب لحاله، وكثير من النّاس يُتداركون في أوّل ظهور العوارض، سواء كان ذلك بين الصّغار خلقة وولادة، أو كان بين الكبار نتيجة ضغوط نفسيّة، أو عوارض زمنيّة مفاجئة، أو أنها بدأت تظهر تدريجيّا ثم استفحلت. وكانت المارستانات هي أوّل خطوة في هذا الاتّجاه في البلدان العربية. ثم تدريجيا بدأ يتطوّر فيها العلاج



والرّعاية حتى ارتقت إلى مستشفيات متخصّصة، تؤدّي خدمات جلّى. وأصبحت أساسيّة تنشأ مثلما تنشأ المستشفيات العامّة، ويحسب حسابها في التّخطيط ضمن حاجة المجتمع.

ونعرج قليلا، يا بُنَيّ، لنتحدّث عن بعض المجانين في أزمان ماضية في مجتمع كان فيه من هذه الصور نماذج فريدة، كتب عنها المؤلّفون، لأنّ بعض هؤلاء كان يختلط جنونهم وتصرفاتهم ببعض الأدب الراقي، حتى أِن أحد المؤلّفين ألّف كتابا فريدا سماه «عقلاء المجانين»، فعقولهم من العمق وأفكارهم من الرّقيّ، وأساليبهم الفلسفيّة تجعلهم في مقدّمة العاقلين، ولكنّ بعض أعمالهم تدخل بهم إلى بؤرة انتقاد المجتمع، فهم غرباء عن المجتمع في معيشتهم، وفي لباسهم وفي مساكنهم، وفي تصرّفاتهم في مجتمعاتهم. ويبدو أنّ الجنون ينزل بمستوى الكبير إلى حياة الصّغار، ولهذا في كل زمن نجد المجنون متّصلا بالصّغار إما التحاما أو نفرة، إما صداقة أو عداوة. وبعض ما سأقصّه عليك

مستقى من كتاب «عقلاء المجانين»[1] سوف يعطيك فكـرة عمّا أردته، ولعلّه أيضاً يقنعك بالبحث عن الكتـاب والْتِهـامـه، وهـو كتابِ قيّم مليء بالشّعر الجيّد، والأفكار الصّائبة، والحِكَم الصّادقة. رغم أنها جاءت على ألسنة المجانين، ولعلكّ تذكر القول المعروف: خذ الحكمـة ولو من افواه المجانين. في هذا الكتـاب من الحكم والافكار والاشعار ما لو اهتممت به واستـوعبتـه حفـظا لرفع من مستوى لغتك وتفكيرك، ولأفادك لتتصرّف في مجابهة الحياة عندما تحتاج إلى مثل هذه الحكم.

سعـــدون هو أحـد المجـانـين العـاقلين، كان «دوجـانه» وتنقله في الأسواق دليل جنونه، ولكن اسمع ما يبديه عقله:

قال عطاء السّلمي رأيت سعدون ينتقل ذات يوم في الـشّمس فانكشفت عورتـــه،

(١) عقـلاء المجـانين: لأبي القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النّيسابوري. نشر دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.



فقلت له: استرها أخا الجهل، فقال: أمالك مثلها؟ واستَتَر. ثم مرّ بي يوما وأنا آكل رمانا في السوق، ففرك أذني، وقال: من الجاهل؟ أنا أم أنت؟ ثم قال:

أرى كل إنسان يرى عيب غيره
ويعمى عن العيب الذي هو فيه
وما خير من تخفى عليه عيوبه
ويبدو له العيب الذي لأخيه
وكيف أرى عيبا وعيبيَ ظاهر
وما يعرف السّوءات غير سفيه[1]

قد لا يتبيّن لك مدلول المحادثة والجدل الذي قام بينهما، ولكن عندما تعرف أنّه في الماضي كان مما يعيب المرء أن يأكل في السوق أمام النّاس، لأن هذا يخدش سمعته، و ينزل قدره، ويسقط مروءته، وقد وصل الأمر في بعض المجتمعات إلى أنّ فاعل ذلك لا يعتبر عدلا تقبل شهادته. هذا ما جعل

(١) عقلاء المجانين، ص ٥٣.



سعـدون المجنـون يقضي دينـه من غريمه عطاء، وأجهز عليه بالأبيات التي أردفها ملاحظته.

أمّا أنتم اليوم، يا بُنَيّ، فتعافون الأكل النّظيف في بيـوتكم، وقد طبختـه أمّهاتكم، أو طبخ تحت رقـابتهنّ، وتـذهبون جريا وراء منتجات المطاعم ذات الوجبات السّريعة، وقد تبخترت «الهمبورجه» في أذهانكم، واستولت على عقولكم، ولو أمكنكم الاقتصـار عليهـا وحـدها، تدفعونها مع حلوقكم «بالبيبسي كولا» زيادة في ضمان الأذى، لما كرهتم. ولو قالت لكم أمّهاتكم: تعالوا واجلسوا في البيت وسوف نصنع لكم مثلهـا وأحسن منها، لما قبلتم، لأنّكم نفسيّا مدخولون، وقد استولى عليكم محيط المـطعم والـوقفـة فيه. والله أعلم ما هي محتويات اللّحم، ومـا مدى الصّـافي منـه، وما نسبة الغثاء والسّـاقط، وأنتم تغمضـون أعينكم عن المنفعة، وتفتحونها لتمتّعوها بالمضرّة. وقد لا يتبينّ الأذى في سنّكم هذه، ولكن عندما تتقدّمون في الحياة تجدون

رصيدكم من الأكل الصّحي ومراعاته قليل. وحينئذ لا يفيد التوجّد على الماضي.

أرأيت، يا بُنيّ، كيف أصبحت دون علمي واعظا، وما أثقل الوعظ على نفس المخالف، ولهذا سوف أنتقل إلى أمر سعدون، فهو أقرب لديك قبولا:

قال إسماعيل بن عطاء العطّار: مررت بسعدون فلم أسلّم عليه فنظر إليّ ثم قال:

ياذا الذي ترك السلام تعمدا
ليس السّلام بضائر من سلما
إن السّلام تحيّة مبرورة
ليست تحمّل قائلا أن يأثما[1]

وهذا مجنون آخر من الحقبة نفسها يسمى بهلولا، وهو من عقلاء المجانين، وله قصص تدلّ

(١) عقلاء المجانين، ص ٥٤.



على أدبه ودينه. ولكنّه مثل غيره من المجانين سلوة الصّغار، ومحط لعبهم:

قال عمر بن جابر الكوفي: مرّ بهلول بصبيان كبار فجعلوا يضربونه، فدنوت منه، فقلت: لم لا تشكوهم لآبائهم؟ فقال لي: اسكتْ، فلعلّي إذا متّ يذكرون هذا الفرح فيقولون: رحم الله ذلك المجنون.

لابدّ أن عنصره، يا بُنَيّ، كان جيدا، فرغم جنونه، وما يأتي به الصّغار مما لا يُصبر عليه، إلاّ أنّ بهلول صبر، وأمام عينيه أمر كبير يتطلع إليه وهو رحمة الله التي قد يستنزلها هؤلاء الصّغار عندما يموت، وقد رخص الأذى عندها[1].

وعليّان المجنون شخصيّة تستحقّ أن تقف عندها، وتتمتّع بما سأرويه لك عنها، وسترى كيف لا يتعارض الأدب مع الجنون، أو لعل الجنون لا يمحو ملكة الأدب والصّنعة فيه:

---

(١) عقلاء المجانين، ص ٦٩.



قال السريّ، مولى ثوبان: أدركت بالكوفة مجنونا يقال له عليّان، وكان يأوى إلى دكّان طحّان، وكانت معه عصا لا تفارقه، وكان الصّبيان قد علموا وقت مسيره إلى الدكّان، فيجتمعون، ويعبثون به، فإذا بلغت أذيّتهم منه قال للطحّان: قد حمي الوطيس، وطاب اللقاء، وأنا على بصيرة من أمري، فما ترى؟ فيقول شأنك، فيثب وهو يقول:

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه
وأعرض عن ذكر العواقب جانبا

ثم يشدّ مئزره ويقول:

قوم إذا حاربوا شدّوا مآزرهم
دون النّساء ولو باتت باظهار

ثم يتناول العصا ويشدّ عليهم، ويقول:

أبيّ

أشـــدّ على الـكتيبـــة لا أبــالي
أَحَــتفي كان فيهــا أم سواهــا

والصّبيــان يهربون، فإذا أرهقهم طرح الصبيــان أنفسهم، وكشفوا عن عورَاتهم، فيعرض عنهم بوجهه، ويقول: عورة المؤمن حِمى، لولا ذلك لتلف عمرو بن العاص يوم صفّـين، والأخـذ بكلام علي رضي الله عنه أولى بنا، أمرنا أن لا نتبع مولّيا، ولا نذفف[1] على جريح، ثم يرجع ويقول:

أنـا الرجل الضّرب الذي تعرفونه
حشـاش كراس الحيّـة المتـوقّـد

ثم يعـــود إلى دكّـان الـطحّـان، ويلقى عصاه، ويتمثل:

وألقت عصاها واستقرّت بها النّوى
كما قرّ عينـــا بالإياب المســـافـر[2]

(١) الذّف: الاجهاز على الجريح، ومنه قول الشّاعر يعاتب رجلا:
لمّا رآني أرعشَت أطْـرافي كـان مع الشّـيب مع الذّفـاف
(لسان العرب).

(٢) عقلاء المجانين، ص ٧٥ .



وقصّة أخرى تريك كيف يسير الجنون مع العقل في لحظة واحدة، لا يفرّق بينهما إلا إلتفاتة، فعليّان مع الصبيان مجنون، ومع العاقل عاقل، «يلبس لكلّ حادثة لبوسا خيال العبقري به يضلّ»[1].

قال عليّ بن ظبيان: مررت يوما بالكوفة، فلما صرت في سكك همدان إذا أنا بعليّان المجنون، وفي يده قصبة فارسية مثل القناة، وفي رأسها كبّة قطن، وعليها خرقة، وإذا هو يشدّ على الصّبيان، فإذا أدركهم، قالوا: القصاص يا علي، ثم يلقى القصبة من يده، فلما رأيته تهيّبت أن أمرّ بين يديه، فقال لي: مرّ يا علي، فلست منهم... قلت له: من العاقل؟ قال: من حاسب نفسه، وخاف ربه[2].

وهذا عبدالرحمن بن الأشعث، أصيب بالجنون بعد العقل. كان إذا خرج من بيته

(١) من قصيدة لأستاذنا عمر الدسوقي، رحمه الله.

(٢) عقلاء المجانين، ٧٦.

أُولع به الصبيان يؤذونه، ويقولون: يا دحمويه! فلا يجيبهم. وإذا قيل له: يا عبدالرحمن! قال: لبّيتكم أنا عبدالرّحمن. قال سيف بن سوار، قاضي واسط: رأيته يوما والصّبيان يرمونه بالحجارة، فقلت له: إرمهم، وكُفّهم عنك، قال: لا أفعل، يمنعني من ذلك خصلتان: خوف الله عزّ وجلّ، وأن أكون مثلهم[1].

و«فليت» معتوه من معتوهي ذلك الزّمن، ومثل الآخرين كان لعبة الصّبيان، ومرمى تفكههم. قال عمرو العسكريّ رأيت «فليتا» يوما والصّبيان يرمونه بالحجارة، وهو يقول: ﴿ولمن صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الأمور﴾[2].

هذه لمحة من ملامح ذلك العصر ومجانينه، تعطيك صورة من الصّور التي كان يعجّ بها

(١) عقلاء المجانين، ٨٠.

(٢) عقلاء المجانين، ٨٢، القرآن الكريم، سورة الشورى، الآية ٤٣.



مجتمعهم، ولم يخل مجتمعنا المتأخّر من أمثال هؤلاء، وأشعارهم كانت باللّغة العامّيّة، وكانت ممتلئة بالحكمة، وعجيب القول. ولعلّ بعض المتخصّصين يتفرّغ يوما فيجمعها من البادية والحاضرة.

ونعود، يا بُنَيّ، إلى ما كنّا فيه، فقد أبعدنا، ولكنّ الحق في هذا على الجنون، وهو يتحمّل كلّ لوم، وعلى كلّ نستطيع أن نحمّله ما يتحمّله بحقّ، وبغير حق، لأنّه خلاف العقل، والمخالف للعقل يستحقّ أن يُعنَّى.

سوف نأخذ، كما سبق أن فعلنا، يا بُنَيّ، زاوية حادة في رجعتنا إلى صلب الموضوع، وهو الحاوي. وكدنا ننساه من كثرة الاستطراد. وبعض الحاويات من الأوعية سبق أن تحدّثنا عنه، وهو دلّة القهوة، وابريق الشّاهي. والآن ما دمنا في مجال الشرب وهو أخو الأكل نمدّ يدنا أو على الآصحّ لساننا، إلى القِدر، ونتحدث عنه.

والقدر بطل من الأبطال التي تلعب دوراً مهمّا في حياة النَّاس، وأَعجبُ، يا بُنَيّ، أنه لم يوضع له تمثال عند الأمم التي تهتمُ بالنُّصُب، فهو كما تعرف ملازم للنّاس في كلّ القرون، وله فضل على البطون وغير البطون. ومع هذا فلم يهتمّ به غير صانعيه، والمستفيدين منه في حدود ما وضع له لسدّ الحاجة. وتطويره فيما بعد، اهتماما، جاء لغرض الرّبح من الصّانع لمّا رأى حاجة النّاس لذلك، ولغرض تعدّد الفائدة واتقانها من المستعمل المستفيد. وكما ترى وصل هذا التّطوير إلى أن أصبح بطن القِدر أكثر من بطن: كل بطن يطبخ فيه صنف من الطعام لا يختلط بما يجاوره، وأصبح القدر كأنه بيت ذو غرف، كل غرفة مستقلّة عن الأخرى. وهناك قدر البخار، وهو قفزة في التّطوير، سمحت للطّابخ بميزات لم يكن يحلم بها، فقد اختصرت له وقت الطّبخ، واختصرت له الوقود، وهذان أمران اختصارهما مكسب لا يستهان به. هذا عدا ما دخل على المادّة التي يصنع منها القدر من تحسين، إذ



أصبح القدر أخف كثيراً مما كان عليه، وأصبح تنظيفه أسهل، بل إنّ بعض القدور لا يعلق به الوسخ، وقد لا يحتاج منك زيتا تضعه لتحمي قاعه من الحرق والسواد.

في الماضي، يا بُنَيّ، كان القدر غالبا من النّحاس، وعلى هذا فهو ثقيل، وكما تعرف كانت مهنة الطّبخ للنّساء، والمرأة رقيقة بطبعها، وقد تكون وحيدة، فإذا لم يكن القدر صغيرا، فهو يتعبها بحمله خاصّة بعد أن يكون ممتلئا بالطّعام. وبعض القدور من أجل هذا وضعوا له حلقات عند اطار شفته لحمله بها. والقدور كما تعرف أحجام، منها الصّغير ومنها المتوسّط ومنها الكبير. وقد يصل حجم الكبير إلى ما يطبخ «حاشِي» فتصوّر صعوبة هذه المهمّة، قدر به حاشي، وفي القدر ماء ليسلق هذا البعير الصغير فيه، رَفْع هذا القدر ويسمّى «حْجرى» ووضعه على الأثافي، ثم إنزاله من فوقها، بعد أن يكون قد نضج اللّحم، أمر ليس



باهين، ويحتاج إلى عدد من الرّجال. ينقل بعدها الحاشي كاملا إلى صحن الكور، وهو أيضاً مثل القدر من النّحاس، صحن واسع وضع له قاعدة مستديرة ترفعه عن الأرض بمقدار أربعين سنتيمتراً، يتحلّق المدعوون حوله، وقد تصفّ على جوانبه خراف، تجمّل صاحب الوليمة أمام ضيوفه.

والعادة في مثل هذه الولائم أنّه إذا جهّز الأكل وقدّم، يدعى أول فريق من الآكلين إلى «القلطة الأولى»، وفيها الضّيف ومن معه، وللضّيف مهمّة خاصّة هنا، عليه بعد أن يزن الأمر، ويقدّر أنه ومن معه قد أخذوا نصيبهم أن يكفّ يده، وأن يحمد الله بصوت عال، فيكفّ الآخرون أيديهم، ثم ينسحبون، وتأتي الدفعة الثانية، وتجلس على سفرة الأكل، ويأكلون أيضا نصيبهم، وبينهم من ينظر إليه على أنه هو الذي يزن كفايتهم، ويفعل مع دفعته ما فعله السّابق مع دفعته، حتى يتداول الأكل دفعات، من بينها العاملون الخادمون للضّيوف ومن بينهم المضيف. والنّساء لهن «قلطة» أيضاً.



والقصص عن الطّرائف التي تقع، يا بُنَيّ، عن الأكل، وعلى الأكل كثيرة، سأقصّ عليك هنا واحدة منها:

يأتي الضّيوف فجأة، ويطرقون باب من يتوسمون فيه الاستجابة لإضافتهم، وتكون حالهُ رقيقه، أو يكون عددهم أكثر مما يستطيع تقديمه، فيحتال في توفير الطّعام ليرضي هؤلاء الضيوف، الذين فاجؤوه على غير موعد. وقد يحتال في غير توفير الطعام كما حدث لصاحبنا الذي سوف نروي قصته:

جاء ضيوف نزلوا فجأة على رجل لم يكن عنده من الطّعام ما يكفيهم بدفعاتهم المتعدّدة، وكان الوقت شتاءا، والشّتاء ببرده يضيف إلى شره النّاس في الأكل شرها. فقدّم لهم ما استطاع تقديمه، وخوفا من أن يجلسوا حتى يشبعوا، فلا يبقون لغيرهم شيئا، قال لهم عندما دعاهم إلى الأكل: «تفضّلوا، وبعد

هذا. تفضّلوا إلى «الشراع» الثاني ففيه لكم «عـنجليّـة»، الله يحييكم على هذه ثم على تلك». و«عنجليّة» كلمة غير محدّدة المعنى، فهي وصف لمجهول، وتوحي بأنّه شيء جزل وكبير. فظنّوا أنّه «فريكة» أو أكلة أدسم من هذه. فأخذوا من طعامهم برفق، ولم يوغلوا فيــه إلا بمقــدار ما كان بهم من جوع لم يستطيعوا منع أنفسهم من إسكاته. وقلوبهم معلّقة بالعنجليّة، وسرعان ما قال قائدهم الحمد لله! وكفّ يده عن الطّعام، و«فزّوا»، قامــوا من الأكــل، وجــلس الآخــرون المنتــظرون، فذهب هؤلاء بقلوب تخفق، وشهيّـة مفتـوحـة، وأسنـان مسنونة، وأيد متـطلعـة، إلى الشّراع المنصوب غير بعيد. ووجدوا لخيبة أملهم العنجليّة. التي أعماهم طمعهم وجوعهم وشرههم عن أن يحدسوا ما هي، كانت نارا «تـرعـد» أطـول من قامة الرّجل، «فاكهة الشّتاء» هذه، يا بُنَيّ، هي



العنجليّـة، لم تكن فريكة برّ وسمن وتمر. وقد فات وقت العودة إلى الأكل الأوّل، فقد أعقبهم عليه أسود شرى، وقعوا عليه كأن بينهم وبينه ثأرا.

نجـا الرجل، يا بُنَيّ، من اللّوم، فقد ضيّف، وقـام ضيـوفـه والأكل باق لمن يليهم. وهي حيلة حاذقة، وما للمضطرّ إلاّ ركوبها.

وقصص الأكـل وطـرائفه لا تحصى، وبعضها ينصبّ على الأكل وعادات النّاس فيه. واختلاف العادات:

سافـر مفتش للدّولـة العثمانية إلى قبائل شمال الجزيرة ليتفقّد أحوالهم، فأصرّ رئيس إحـدى القبـائل على أن يضيّفه، ويقيم له مأدبـة، يدعـو إليهـا عشـيرتـه، فاستجاب المفتّش للدّعــوة، وكــان يصحبـه في هذه الرحلة ابنه الشّاب، ولم يكن يعرف عادات البـاديـة و«سلومهم»، لهذا لمّا جلسـوا على

الطّعام، أهوى الشّاب على لسان الخروف الـذي يليـه، واقتلعه، وأكله، و«تكهرب» الجوّ و«تمسّس» النّاس دون أن يدري الشّاب لذلــك سببـا، ولم يستـطع والـده في هذه اللّحظة أن يخبره بخطئه، الذي سوف يضطرّ صاحب الدّعوة معه أن يعوّض الضّيف عن هذه الدّعوة، لأن أكل اللّسان إشارة إلى أنّ ما قدم أقلّ من أن يفي بشرف الضّيف.

وبمجرد أن انتهى الآكلون دعا الدّاعي ضيـوفـه جميعـا على الغداء في اليوم التّالي، وضاعف ما قدمه في اليوم الأول، ولم ينفع معه شرح الضّيف لجهل ابنه.

وكان درسا محرجا للشّاب، وأرجو أن لا يكون «توّبه» من زيارة البادية، ومضاربهم، والتّعرف على عاداتهم.

وفي العادات في البادية من الغرائب ما تراكم مع الـزّمن، مما دعت إليـه حيـاتهم، واقتضتـه طبيعة



الصّحراء، وفي هذه العادات من المخاطر ما قد يثير الفتن، ويوقد نار الحرب. من بين العادات أنّه إذا «تنحنح» شيخ من شيوخ القبائل التي حضرت الوليمة كفّ النّاس إيديهم عن الأكل، وهي علامة للاكتفاء، وتأتي في الوقت المناسب عندما تَصفو النيّات، وتساعد المضيف على مظهر كفاءة الأكل للضّيوف، فلا يوغل الجالسون على الأكل في الطّعام فلا يتركون للدّفعة الثّانية والثّالثة ما يقيتهم.

ولكن قد يقصد أحدهم الأذى، «فيتنحنح» ويحمد الله، ويكفّ عن الأكل بعد ثوان من البدء فيه، إمّا حرمانا لشيخ قد يكون أكبر منه، أو مثله ولكنّه يريد أن «يخطم عليه» ويتقدّمه، أو يريد أن يحرم المضيف من كمال الشّرف، ولكنّ الأمر لا يقف عند هذا الحدّ، بل ترد الصفعة بأكبر منها، ثم تكبر كرة الثلج حتى تهرس في طريقها أفخاذا وعشائر وقبائل.

وقد انقطعت هذه العادة بعد أن استتب الأمر

للملك عبدالعزيز، فقد أراد أحدهم أن يجرّبها معه، ولكنّ العبقـري عالـج الأمـر من جذره، وقـال بوضوح إنّه لن يقوم من السّفرة حتى يشبع هو ومن معـه من هذا الأكل الوافي الطّيب، وأنّ هذه هي العادة السّعودية. فبقي هو والنّاس، وما نال الذي نهض إلا الحرمان. وأصبح الأمر قاعدة، أوّل من يقوم يقول: «إنّها سعوديّة» فلا يقوم إلّا من شبع. ومن توفيق الله أن هذا صادف سعة الرزق في هذه الجزيرة، ممّا أنجح القصد في هذا التّرتيب.

في بعض منـاطق من الجـزيرة يوضع الخروف مطبـوخا أمام الضّيف، وأول عمل يقوم به هو أن يُنحِّى جزء معلوما منه لصاحبة البيت، التي طبخت وتعبت، ومعها من ساعدها، أو جاء ضيفا عندها. ويحدث مشكلة لو لم يتمّ هذا، وأقبل الضّيوف على الخروف بكامله، دون أن يرسلوا لها قسطها.

وفي بعض مناطق الجزيرة يوضع الخروف أمام الضّيف، فيقسّمـه كلّه بالقسطاس المستقيم بين



الضّيوف الحاضرين، يعطي كل واحد من كل جزء منه ما يسمح به عددهم، فكل واحد يناله قسم من «اللّية» ومن القلب، ومن الكبد ومن الكلى، ومن هبرة الفخذ، ومن موزة العضد، ومن فقار الظّهر، يصغر الجزء ويكبر، حسب عدد الحاضرين.

هذه العادات بدأت تنقرض، يا بُنَيّ، ويحلّ محلّها العادات التي ليس في جوانبها ما يستغرب. والحمد لله على هذا، لأنّ بعض هذه العادات من السّوء بحيث تجعلك تستغرب كيف بدأت، وكيف صبر عليها النّاس. فمثلا يعتبر من الإهانة عند بعض القبائل النائية المنعزلة في جوانب الجزيرة، ألّا «يكرّع» «يتغر» يتجشّأ الانسان بعد الأكل، مما يضطر النّاس إلى بلع الهواء حتى «يكرعوا» أو «يتغروا». هل هناك أمر أبشع من هذا، يا بُنَيّ؟ لهذا دعنا ننتقل إلى غيره.

وسأنتزع ذهنك بعيدا عن هذه الصّورة البشعة انتزاعا، وانقلك إلى أمر تحبّه، قصّة ضحلة عن

جحا والأكل، أو لعله أشعب، فأحيانا الاثنان يتعارض طريق أحدهما مع الآخر. المهمّ عندك القصة وليس أشخاصها وإن لم تملأ عينك هذه فسأقص عليك أخرى من البيئة، وأرجو ألّا أكون قد قصصتها عليك من قبل(١):

مرّ جحا بدار أحد الأشخاص الذين يعرفهم ويجاورونه، وشمّ رائحة سمك، فقرع الباب، فلما عرفوا أنه هو، خبؤا الصّحن الذي فيه السمكات ذات الحجم الكبير في زاوية بعيدة في الغرفة، وأبقوا السّمكات الصغيرة، فلاحظ جحا ما تمّ. فلما دعوه إلى الجلوس معهم على السّفرة استجاب، فأخذ إحدى السّمكات، وقرّبها من أذنه، كأنه يستمع إليها «توشوشه»، وتهمس في أذنه، فسأله من حوله عن عمله هذا. فقال: إن والده كان قد غرق في البحر

(١) تبيّن أنها وردت في «أيْ بُنَيّ»، في الجزء الثاني منه، صفحة ١٣٧، الطبعة الأولى.



وأكله السمك، فهذه السمكة تخبرني أنها لم تأكل من لحمه، وأن التي أكلت هناك، في ذلـك الـرّكن، فضحـك أصحاب البيت، وأدركوا ألاّ مناص من احضار السمكات الكبيرات.

وقد أكون قصصتها عليك من قبل، وقد تكون هذه مناسبَة، وتلك أخرى، ولكنّي متأكّد أنّك لا تأنف من سماعها عدة مرات ما دامت قصّة، وعن جحا وأشعب.

وما دمنا نتحدّث عن الأكل، وانتهينا، فلنقل: «الحمد لله ربّ العالمين».